أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول: بهيج عثمان
رئيس التحرير: الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS
Directeur : BAHIJ OSMAN

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص. ب ١٠٨٥ - تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ADAB *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél- 24502

العدد السادس
حزيران (يونيو) ١٩٥٥
السنة الثالثة

No. 6 - Juin 1955
3ème Année

الأدب اللبناني العربي

بقلم رئيف خوري

يتحدثون عن ادب لبناني وادب عربي، يريدون بذلك ان ينفوا العلاقة بين الادب اللبناني والادب العربي؛ او هم يريدون ان يوجهوا الادب اللبناني توجيهاً يقطع كل صلة بينه وبين الادب العربي. وهذا تشبث بمحال!

است ازعم، ولا يزعم من له مسكة من ادراك، ان الادب اللبناني لا يحمل ملامح خاصة تردّه معروف السمة واضح الطابع. الا ان هذا يصدق على الادب العراقي، والادب السوري، والادب المصري، وادب الشمال الافريقي، فكلٌ من هذه الآداب يحمل ملامحه الخاصة التي تعيّن سمته وتبين هويته، ولكن احداً لا يخطر بباله ان يدعي ان هذه الآداب مفصولة عن الادب العربي. كل ما في الامر ان هذه الآداب قد تأثرت بعوامل خاصة من بيئة او تاريخ اكسبتها ملامحها الخاصة، الا انها ملامح خاصة ترتسم في محيا عام هو المحيا العربي والقسمات العربية!

وليس عصرنا الحديث هذا هو اول عصر تحدث فيه الناس عن ادب خاص لهذا الوطن العربي او ذاك، فقد تحدث القدماء عن شعر شامي وشعر عراقي وشعر حجازي وشعر اندلسي، ولم يفقهوا بذلك ولا توهموا انه غير شعر عربي.

ولقد كان طبيعياً مع انتشار اللغة العربية، وانتشار العرب، واستعراب كثير من الاقطار والشعوب، وتعاقب الاحداث السياسية وتقلبها، وتنوع المجتمعات، ان تظهر آداب عربية في بوتقة الادب العربي الواحد.

ووحدة الادب العربي تنشأ وتستمد استمرارها وقوتها من أربعة عوامل اساسية متساندة:

أولها: اللغة العربية، ولا سيما الفصحى، واغتذاء الآداب العربية الحديثة بتراث الادب العربي القديم.

ثانيها: التفاعل التاريخي الدائم بين معظم الاقطار العربية.

ثالثها: الاتصال الجغرافي بين هذه الاقطار.

رابعها: تبادل الكتب والمجلات حتى لتؤلف الاقطار العربية اسواقاً طبيعية بعضها لبعض في بضاعة الحرف.

ولقد عجزت الحدود السياسية عن ان تنال من وحدة الادب العربي، وعجز ظهور اللغات العامية العربية عن ان يغير هذه الوحدة. كذلك لم يؤثر فيها ان انصرف بعض الادباء الى الهجرة اللغوية، فكتبوا بلغات غريبة آثاراً سيقرر التاريخ انها اشبه بالمسيحي الذي اسلم ظهراً ومات مساءً فانكره عيسى ولم يعترف به محمد.

والذين يحلو لهم ان يتنكروا لسير الادب اللبناني في موكب الادب العربي يعلمون ان لا تثبت لهم حجة مبنية على مصلحة هذا الادب وخصبه وازدهاره. فعروبة الادب اللبناني وغيره من الآداب العربية تتسع وترحب لان يأخذ هذا الادب باقصى ما يختار من ضروب التطور والتحرر في الفكر والاسلوب. ويعلمون كذلك ان لا نمو لهذا الادب اذا ضيق على نفسه النطاق - كدت اقول الخناق! - وابى ان يخاطب الشعوب العربية ويستجيب لها ويتخذ منها له مجالاً حيوياً يحيا فيه ويخصب ويزدهر.

ولكنهم يمضون في دعوتهم، يدفعهم اليها لا ايمانهم بامكان نجاحها بل ضيق نظر، يتوهمون انهم يخدمون بذلك طائفة او يضعفون من طائفة، وما يخدمون الا الاستعمار ولا يضعفون الا الوطن مع طائفتهم ومع هذا الادب اللبناني الذي يتظاهرون عليه بالغيرة.

لقد اشرق اسم لبنـــان في العصر الحديث منارة للثقافة في هـــذا الشطر من العالم. ونحن اشد مـــا نكون فخراً وزهواً باشراقه. ولكننا لا ننسى، ولن ننسى، ان اشراقه قد اتصل منذ اللحظة الاولى بثلاثة اوجه:

الوجه الاول: صيانة اللغة العربية وادرار ما كمن من ينابيع الحياة في جوانبها، وإعماقها، وزيادتهـــا ثروة الى ثروتهـــا وطاقة مجددة مستأنفة الى طاقتها الموروثة.

والوجه الثاني: تعزيز الادب العربي ببعث دفائن كنوزه وجلوها وصقلها، وابتكار فنون جديدة اعوزت هـذا الادب منذ اقدم عصوره، وابـداع روائع اضيفت الى خزائنه المـلأى بالكثير من روائع الآثار.

والوجه الثالث: تفتيح الآفـــاق واطلاق المجاري بين الفكر في الاقطار العربية والفكر العالمي، وبالتالي اخصاب الثقافة العربية اخصاباً في سعة وعمق وحرية...

هذه الاوجه الثلاثة التي اتصل بهـا اشراق الاسم اللبناني في العصر الحديث هي التي كونت رسالته، وفيها انحصرت مقومات هذه الرسالة وما منها مقـوم إلا وهو شاخص الى العروبة حميم الصلة بها، الى اليوم الذي لا تكون فيـه عروبة، وإنه لبعيد جداً ذلك اليـوم والحمد لله، وأقرب منه، والحمـد لله ايضاً، ذلك اليوم الذي لا يكون فيـه استعمار ولا ضيق نظر ولا تعصـب طائفي، بموه بغيرة أدبية، وغيرة ثقافية لقطع الصلة بين ما جمع التاريخ وجمع هدف الحرية!

رئيف خوري

جامع قرطبة

[مهداة الى زوجي الذي اوحاها بقوله لدى خروجه من الجامـع في قرطبة «اكاد اسمعه يقول اني هنا اني هنا رغم الزمن».]

أنهِ المطاف، فذاك بيت الله مسجدنا
الله أكبر!
من روحنا كسب الخلود وعاش يخلدنا
الله أكبر!
هو قطعة عربية في ارض اندلس أراه
ستظل عمر الدهر آثار الجدود على ثراه
ويرفّ ما شاء الزمان صدى المؤذن في سماه
فأصِخ لصوت المسجد الجبار يهتف معلنا:
«اني هنا، اني هنا
رمزٌ انا
رغم المصائب والمحن
سأظل احتقر الزمن»
فلتصدح الاجراس ولتقرع نواقيس المدينه
ولتشعل الالحان اوتاراً بخفاقي حزينه
ولتملأ الانغام قرطبة القديمة حولنـا
فنداؤهن لها، واجراس الخلود لنا.

✲

سألوذ بالمحراب، اشرب روعة الفن الفريد
وأستعيد
ذكراه، ذكرى الصقر، ذكرى الداخل
[البطل العنيد
الفاتح البنّاء.
وبناه جباراً على الايام لا يرضى الفناء
ويعيش يحضنه الخلود
في كل مضرب انمل فن عريق يعربي
في كل موقع ناظر روح رفيع عبقري
والعطر ينبع من ثراه
والسحر ينضح من ذراه
وأنا أراه ولا أعي شيئاً ســواه!

✲

ووقفت بالوادي الكبير
اقول للقلب الكسير
قد هاجت الذكرى بنا
فلنبكِ يا قلبي هنا
فهنا ركبنا المجد تحدونا المطامح والمنى

وهنا ربطنا خيلنا
وهنا صببنا ويلنا
وهنا اعدنا قولنا
« نحن العربُ ، فلتخضع الدنيا لنا » .
وهنا هنا
سكر النسيم بعرفنا
ونمت زهور المجد مغمد سيفنا
وانداح سيل الفن ملمس كفنا
وكما تصوغ الشمس فوق الارض اثواب السنا
صغنا الحضارة للدنى
ووجودنا هز الوجود
فتدفقت امواجنا عرض الطريق الى الخلود
تلك الطريق
بالبدء سيف الفاتح الجبار عبّدها لنا
فما نفيق
الا وتاج المجد ملك نضالنا
والمجد يغمز زهونا ، ويقود في درب [العلى اشواقنا
فيسيل نهر العبقرية في مسيل نبالنا
ونروح نعطي للدنى ، والنور والفن العريق
بنّاءنا ... عملاقنا !

✡

ووقفت بالوادي الكبير
اصيح :
بنّاء ! يا بنّاء سالف مجدنا !
اصحيح
كفنه الردى بناءنا ؟
اصحيح
دمره الونى ؟
اصحيح
لفلفه الفنا ؟
بناءُ يا بناءنا
هلا بُعثت سناً تحقق فجرنا
وتروح تقتطف النجوم بها ترصع صدرنا
بناءُ يا بناءنا
قد حان موعدنا ، فها قد ابلجت سدل الظلم
بصباحنا
أو َما ترانا نستعد لكي نطال ذرى القمم
برماحنا
ولنخضب الوادي العريض ونلثم الجبل [الاشم
بجراحنا
بناءُ يا بناءنا
خافت تكتلنا الامم
واهتزت الدنيا ، متون الريح والبحر الخضم
لكفاحنا !

✡

فأصخ معي ماذاك صوت الريح فوق جبالنا
ولتسمع الدنيا .. فما هذا سوى رجع الحياة
يدب في اوصالنا
ويهزنا هزاته الحمراء من سكر الممات
فنهب من اوحالنا
لنضالنا !
وانظر معي ... ما ذاك ضوء الشمس [فوق بطاحنا
ولتنظر الدنيا .. فما هذا سوى نور الجهاد
يشع من ارواحنا
ويقودنا عبر المفاوز والسباسب والوهاد
فنهب من ادواحنا
لكفاحنا .

✱

وغدٌ لنا
لا ريب ان غداً لنا .
فالدهر دار وعاد يلثم فرقنا
والدهر في دورانه
كالنجم في جريانه
بالامس شع بشرقنا
وسما الى اوج العلا .. وهوى وغار بافقنا
وهناك حيث هوى ... اساطين الضياء [بها هوت
والليل دثرنا ، واجنحة الحياة بنا انطوت
وهوى الجبابرة العظام
وهوى العباقرة الضخام
وتحطم الازميل واستولى على السيف الصدأ
ورجاء اعيننا انطفأ !
واليوم عاد لجفن ناظرنا رسيس من ضياء
واليوم عاد لجفن صارمنا رسيس من مضاء
وغداً سيبزغ نجمنا
وغداً سيشرق عزمنا
وغداً عظيمٌ يومنا
فغد لنا
لا ريب ان غداً لنا !

سلمى الخضراء الجيوسي
بغداد

حول مناظرة طه حسين ورئيف خوري

مخاض أدب جديد

بقلم عبد الله عبد الدائم

لا ندري ما الذي دفع الاستاذ رئيف خوري إلى ان يقرر ان الرأي الذي حمل الدفاع عنه في تلك المناظرة بينه وبين عميد الادب العربي الدكتور طه حسين هو أهون الرأيين والى ان يرى أن موقفه أسهل الموقفين وان من شأنه أن يمكّن لصاحبه فيجعل مقامه في الدفاع حصيناً .

قد يكون الدافع الى ذلك رقة في الحاشية أراد الأستاذ رئيف خوري منذ البداية ان يقدمها بين يدي مناظره ، احتراماً منه لمناظر يقصر عن شأوه كل احترام . وقد يكون الدافع أمراً أبرع من هذه اللفتة الناعمة ، وهو ان يبشر منذ البداية بصواب رأيه وأن يوهم السامع أن مناظره لم يصطنع الموقف المضاد الا من قبيل اقتحام الصعب ، ولو كان خاطئاً .

وأياً كان الامر فمما لا شك فيه أن موقف الأستاذ الخوري أصعب الموقفين واشقهما منالاً . ذلك ان الفكرة التي اصطنعها في مناظرته ، والتي يصطنعها كثير من الكتاب المحدثين اليوم تلقى دوماً ما تلقاه الاشياء الجديدة من مقاومة وتمنع . وهي ككل الافكار الجديدة تواجه امامها تراثاً من العادات التي ألفها الناس ومن المنازع التي حُفرت في نفوسهم ، ومن الصعب عليها أن تتغلب على ما في تلك العادات وهذه المنازع من عنف العادة واستشراء السنّة وثقل الأعمدة القديمة .

ولا تتجلى هذه المقاومة للقديم من الجديد عنيفةً صارمة في شيء كما تتجلى في هذه المسألة التي يسوقها المحدثون اليوم والتي دار حولها موضوع المناظرة : لمن يكتب الأديب ؟ وما هي رسالة الأدب ؟ وهل تعني حرية الاديب ألا يلتزم أي شيء ، أم أن هذه الحرية نفسها تستلزم أن يلتزم قضية وينافح عن فكرة ؟ وهل يُسأل عما يكتب ، أم هو في حلٍ من كل مسؤولية ؟ الى ما هنالك من اسئلة مماثلة تدور كلها حول محور واحد ، قوامه التساؤل عن رسالة الاديب أولاً وأخيراً .

فمما لا شك فيه أن مجرد طرح مثل هذه الاسئلة يبعث في كثير من النفوس مقاومة يسوقونها مما ألفوه عن السنّة الادبية الشائعة . وأول ما يواجهون به مثل هذه التساؤلات هو أن يتهموها أنها ليست ذات موضوع ، وأنها إثارة لمشكلات زائفة مصطنعة ، وأن الاهتمام بها أشبه بدفع أبواب مفتوحة أو إقامة نوافذ لا تدفع إلى اقامتها إلا الرغبة في التناظر . ذلك أن هاجس العادات يهمس في هذه النفوس قائلا : أوليس الادب قائماً سواء تساءلنا أو لم نتساءل ، وسواء شككنا في رسالة الادب أو لم نشكك ؟ أفلا يقبل عليه الناس ، فيؤدي رسالته إذن حين يتذوقونه ويسيغونه ويجدون فيه المتعة ؟

أما تجاوز التساؤل الى الاجابة ، وأما القول بعد ذلك ان الادب ينبغي ان يكون ذا رسالة اجتماعية ، وان عليه أن يكتب لغاية ، وأن يكون غذاء صادقاً للمشكلات التي في عصره ، فأمرٌ لا يثير المقاومة وحدها وانما يثير معها السخط والثورة لدى بعض الناس . انهم يرون فيه تجديفاً على الادب ورجماً لقدسيته ، وما هم بخاطئين في واقع الامر . فهذه النزعة الجديدة التي تريد ان يدخل الادب معركة الحياة وان يكون دعوة الى الحرية الحقة للانسان وان يتخلى بالتالي عن اعتزال المسئولية ويخرج من قوقعة اللامبالاة ، تحمل حقاً أول ما تحمل على تلك القدسية الزائفة التي يريد بعض الناس ان يهبوها للاديب . فلقد استطاع الادباء في الايام الماضيات ان يوهموا الناس أن الادب شيء فوق الاحكام وفوق التوجيه وفوق المسئولية ، وأن الاديب إنسان لا يجوز المساس باستعلائه بل استطاعوا ان يوهموا الناس أن جوهر الادب هو هذا الاستعلاء وذلك الاعتزال لجمهور ماجن مستهتر ، وأن الاصل فيه التعالي عن الزمني والارتفاع الى المطلق . انه في نظرهم لا يصف هذا الانسان أو ذاك ، ولا ذلك العصر أو ذاك ، ولا يلتزم القضية هذه أو تلك ، وانما يلتزم شيئاً يتأبى على الحد ويخرج عن الحصر ، يلتزم الحديث عن « طبيعة انسانية » مطلقة مزعومة ، والاهتمام بقضية هي فوق القضايا الجريئة ، قضية الفن والجمال .

وكما تصبح بعض الافكار الخاطئة مقياساً للاحكام الصحيحة

حين تنبث وتذاع وتغرس على مدى الايام ، أصبح هذا الوهم حقيقة وغدا لدى كثير من الناس مقياساً اليه يُرجع وبه تقدر الاشياء . ولهذا فهم يرتدون اليه حتى حين يحاولون جاهدين ان يفكروا في بعض الآراء الجديدة التي تطرح امامهم . إنهم يريدون ان يناقشوا القول برسالة للاديب استناداً الى هذه الفكرة التي استقرت ورسخت عندهم وهي ان الادب يتسامى على كل رسالة ، وامتصاصاً من تلك العاطفة الحارة التي تحدثهم عن قداسة الاديب وارتفاعه فوق الشبهات .

والحق ان من الجميل ان يتحدث المتحدثون عن حرية الاديب . وإن في كل دفاع عن الحرية حرارة وقوة . ولكن ، ما أشد ما يعرو هذه الحرية من لبس وغموض ، وما أشد ما يختلف الناس حولها ، بل ما اشد ما يتذرعون بها للدفاع عما هو نقيضها ! ولهذا لم يكن من المستغرب ابداً ان نجد هذه الظاهرة الغريبة في حد ذاتها : وهي ان المدافعين عن فكرة الادب للادب والمدافعين عن فكرة الادب ذي الرسالة الاجتماعية يستند كل فريق منهما في التدليل على رأيه إلى فكرة الحرية هذه . فأصحاب الادب للادب يذودون عن حرية الكاتب فيرفعونه به فوق كل قيد ، فيما يقولون . وأصحاب الادب الاجتماعي يرون أنهم يذودون عن حرية لا كهذه الحرية التي يتحدث عنها خصومهم ، بل عن حرية تحمل المعنى الاصيل لهذه الكلمة .

وهنا جوهر المسألة . فالفريق المنتصر للادب الصرف يرى ان الحرية تكون اعمق فأعمق كلما صدرت عن طبع الاديب وحده ، لا يوجهه في ذلك موجه . وهو يقرر ان الاثر الادبي شيء منفصل حتى عن تقدير الناس له ، بله عن تحديثه إياهم عن مشكلاتهم وعما يعانون . وهم بهذا يقذفون بفكرة قد تغري لما فيها من حرارة الافكار المطلقة المتعالية . إنها محملة دون شك بشحنة عاطفية تجعل منها منزلقاً سهلاً ينزلق فيه الناس ، حين تتحدث عن الادب حديثاً فيه نفحة الاشياء الدينية المقدسة . وهي تكاد تهمس أحياناً ان الفن يكون أقدس وأسمى كلما ابتعد عن الحياة - حياة القطيع - وعن الاختلاط بها ، بل تكاد تعبر سراً عما قاله « كير كغورد » جهراً ، حين رأى ان الانسان دائرة مغلقة على ذاتها ، إذا هبط المجتمع هبط وتدنى .

أما الفريق الثاني الداعي الى ادب يخوض غمار عصره ، ولا يتقزز من مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه ، فيفهم الحرية فهماً آخر ويفهم القدسية فهماً آخر ايضاً . ان الحرية عنده في الحياة نفسها ، لا في اعتزال الحياة . فهي تشرق حين يخاطب حرية الآخرين ويستنفر نفوسهم . فالادب مخاطبة للنفوس ، ولا معنى له ان لم يكن كذلك . والاديب كما يقول الدكتور طه حسين « لا يكتب لنفسه » وإنما « يكتب لغيره » . واذا كان الامر كذلك فكيف يكتب لغيره ؟ إنه يكتب لغيره حين يكون وسيطاً ينقل الى الآخرين مما يحتاجون اليه ، ويفضح امام اعينهم حقيقة امرهم ، ويجلو لهم واقعهم ، ليستصرخ بعد هذا الجلاء حريتهم وينادي إنسانيتهم . ولا يعني هذا ، كما قد يظن ، أن يكرههم على افكار بعينها ، وانما يعني أن يفتح آفاق نفوسهم على الافكار الحقة وعلى المنازع الانسانية الحرة ، وان يضعهم امام الحقيقة واضحة ، ليختاروا منها اختياراً تمليه حريتهم التي اثارها على هذا النحو .

واذا كان الاديب ، كما يقول الدكتور طه حسين أيضاً ، « حريصاً أشد الحرص على ان يقرأه ويفهمه ويذوقه أضخم عدد ممكن من الناس » ، فأنى يتأتى له ذلك ان لم يخاطب هذا العدد الاكبر ؟ والخطاب يقتضي أول ما يقتضي أن نقدم للمخاطب ما يسأل عنه وما يعنيه ، أو أن نعرّفه على ما يعنيه وفي هذه الوحدة بين المخاطِب والمخاطَب تكمن حرية الكاتب . فالكاتب يكون ، حين تخلق لديه رغبة في أن ينثّ الناس نجوىً تعنيهم ويشعرها هو شعوراً أعمق وأقوى . إنه وسيط ، كما قلنا ونقول . وما هو بالوسيط بين نفسه وبين حقيقة مطلقة لا ندري ما هي ، وانما هو وسيط بين الحقيقة « المعاصرة » وبين القراء ، ينقلها اليهم في حرية ، ويطلب إليهم أن يطلعوا عليها في حرية . انه لا يستبيح لنفسه ان يكتب لأناس غير احرار ، لعبيد مقيّدين بظروفهم . ولهذا كانت اولى مهماته ان يفتّح نفوس قرائه وان ينقل هؤلاء القراء الى مستوى الاحرار . ولا يكون ذلك الا حين يطلعهم على واقعهم الاجتماعي وحين يعمل معهم على وعيهم لهذا الواقع والخلاص من قيوده .

وهكذا يتجلى الفرق واضحاً بين منزعين : اولهما يرى في الكتابة نوعاً من الغناء والتغني ، وضرباً من الحداء والنجوى الداخلية ، ويشفق على الاديب ان يكون شيئاً آخر غير بلبل صدّاح يرقى الافنان غير حافل بما يجري على الارض ، ولا يكف عن الغناء ، ولو كان الناس في سواد الحداد ، ولا

يأبه لمن يصغي اليه ولمن لا يصغي . فهو يغني وهو يجود الغناء والطرب ، وما على الناس الا ان يصغوا اليه او لا يصغوا . وكثيراً ما يزاوج بين الفاظ المعجم ، ويتأنق في هذا الزواج، ويشعل اللهيب في تلك الالفاظ مستمتعاً بنارها ، محاولاً ان يمتع بذلك ولو قلة من الكتاب مثله ، راضياً الا يعجب به الا كاتب واحد يعنيه رأيه ، أو قراء قلة يفهمون ما يريد . ثم يزعم بعد ذلك انه حر ويدافع عن هذه الحرية دفاعه عن المصير الذي لم يستطع غيره .

وثاني المنزعين هو الذي يعتقد ان مثل ذلك الموقف « الرفيع » ان جاز في بعض العصور الماضية ، حيث الانفصال صارم بين القلة والكثرة ، بين الصفوة والسواد ، وحيث الشعب في نظر الصفوة « ببغاء عقله في اذنيه » كما يقول شوقي (على لسان احد الابطال في قصة كليوباترا) ، فهو غير جائز بحال من الاحوال في هذا العصر الذي دخل فيه الشعب قلب المعركة واصبح عنصراً هاماً من عناصر الحياة الاجتماعية والفنية . ولا يحق لنا ابداً ان نرتضي لادباء اليوم ما ارتضيناه لادباء القرن الثاني عشر الذين كانوا في خدمة رجالات الكنيسة وحدهم ، او لادباء القرن السابع عشر الذين كانوا يكتفون بتقرير الاوضاع الراهنة في عصر محافظ لا يعرف مخالفة القيم السائدة . فذلك الادب الذي يريدون ان يصفوه بالحرية هو المسخّر لخدمة طبقة معينة ، وهو الادب المستعبَد للسياسة حقاً : أفتكون السياسة مقصورة على من يدافع عن الشعب ويعنى بها، ولا يتّهم بها من يدافع عن الطبقة القائمة الحاكمة او يدعو ، بقوله او بصمته ، الى بقاء الاوضاع السيئة على ما هي عليه ؟ نعم ، لا يجوز ان نرتضي لادبائنا اليوم ما ارتضاه أدباء العرب وشعراؤهم في العصر العباسي مثلا حين كانوا يوجهون ادبهم الى الخلفاء او الوزراء او قلة من الكتاب ، ولا يحفلون بسواد الشعب . ولئن كان ادباء تلك العصور الخوالي معبرين عن وضعهم الاجتماعي اذ ذاك مخلصين لشكل الحياة السائدة عندهم (وهي حياة تقيم هوة بين السادة والسواد) فأدباؤنا اليوم ينبغي ان يكونوا معبّرين عن عصرهم هم وعن مجتمعهم هم ، هذا المجتمع الذي برزت فيه اول ما برزت فكرة استلام الجماهير لمقدراتها وشعورها بمصيرها . وهم سيظلون متخلفين عن هذا العصر ، غريبين عنه حتماً ، ان لم ينطلقوا شطر هذه المشكلات التي تطوّف بهم من كل جانب وتطوقهم شاؤوا ام أبوا . ولا يعفيهم الصمت تجاهها والتلهي عنها بغيرها ففي صمتهم معنىً وموقف . وما دام فرارهم من عصرهم ومشكلات عصرهم امراً غير ممكن في عصرنا الحديث ، فلينطلقوا اذن نحو هذه المشكلات ولينغمسوا في هذا العصر ، وليزحموا المسائل قبل ان تزحمهم ، وليجعلوا منها ميداناً لبراعتهم وفنّهم . فشرّ الامور الفاتر ؛ والكاتب قد يرتضي لنفسه كل شيء الا الفتور : وهو ان ظل منكراً لهذا الواقع الاجتماعي الذي يغزوه ، ولم يداعبه الا لماماً ولم يعرض له الا ابتساماً ، اوقع نفسه في الفتور لا محالة ، وكان بين بين ، فلا هو مجتنب واقعه ولا هو قابض على هذا الواقع قبض العليم المتذوق. واذ ذاك يشعر بالتمزق ، واذ ذاك يحس بفرار حريته من بين يديه.

وبعد ان المشكلة على هذا النحو قد تبدو مكرورة ، وقد تبدو غير جديرة بان تطرح . وهي حقاً مكرورة ابداً جديدة ابداً. على انها تأخذ معناها الواضح الصريح حين تنصب على الآثار الادبية نفسها . ففي هذه الآثار نجد حقاً ان هنالك ادباً للحياة وادباً جامداً مجانباً لها ، ومن قراءة هذه الآثار نستطيع ان ندرك تمام الادراك الفرق الواضح بين المنزعين اللذين اشرنا اليهما ، منزع الادب للادب والادب للمجتمع. ومن الصحيح كل الصحيح ما قرره الدكتور طه حسين حين طلب الى الكتاب ان ينتجوا بدلاً من ان يفكروا ويبحثوا في النظريات. فالنتاج وحده يحكم بين النزعات الادبية ، ويحكم بين النزعتين خاصة . على ان تبين الادب طريقه حين يتحدث عن النظريات لا يعني ابداً افلاس الادب والادباء ، ومعذرة من الدكتور طه حسين . فهذا حديث كثيرا ما ينبيء عن مخاض ادب جديد . وان كان الادب يمر في ازمة عالمية ، فيما يبدو ، فما ذلك الا لكونه في مفترق طرق ، ولانه يريد ان يحمل منازع جديدة ويستجيب لهذا التطور الاجتماعي المفاجيء الذي مر به العالم. فالادب القديم لم يعد يروي ظمأ الجماهير الشعبية، والادب الجديد يريد ان يتلمس طريقه ومنهجه قبل ان يمضي موغلاً.

واخيراً ، هل من حاجة الى ان نقول للمختلفين حول رسالة الادب ان مجتمعنا العربي ينتظر من ادبه الجديد الشيء الكثير لينقذه من محنته ، وان اختلافهم لا بد ان ينتهي الى اقرارهم جميعاً بان هذا المجتمع الذي يعيشون فيه يحتاج الى مهاد ادبي يبعث فيه حياة قومية سليمة ؟ ان الحر منهم هو الذي يعرف ان يقف هذا الموقف الامين ، اما المستعبد للسياسة فهو الذي يتدرع بدرع الحرية المزعومة ويلبس لبوس الادب الخالص فيما يقول ، ليبتعد عن الاسهام في معركة شعبه وليكون بذلك عوناً لمن يروق لهم ان يظل جاهلاً لقضيته وان يعيش في الظلمات .

دمشق — **عبدالله عبد الدائم**

طه حسين في مناظرة .. وفي كتبه

بقلم موريس كامل

لا اقصد ، في هذا الفصل ، قصد النقد ؛ ولا اقصد قصد المناقشة .

ثمة وقائع ، في مناظرة الدكتور طه حسين [1] ، اثارت في نفسي الواناً من الملاحظات والتفكير ، رأيت ان اذيعها على القراء لتثير في نفوسهم الملاحظة والتفكير .

واول ما اقف عنده ، من هذه الوقائع ، آراء متباينة في موضوع واحد ، وردت في مناظرة عميد الادب حديثاً ، وفي فصوله قديماً ..

.. وكتبه تشهد

•

وبعد ، فقد قال الدكتور طه حسين في مطلع المناظرة :

« انا لم التزم الدفاع عن الخاصة ولا عن العامة ، وانا لم التزم موضوعاً ما .. فهذه المناظرة او هذه الموقعة او المعركة او هذه الخصومة ، انما هي فيما اعتقد شيء مصطنع لا اعرف له اساساً ولا اعرف له اصلاً ، لسبب في غاية البساطة ، وهو اني فيما بيني وبين نفسي ، وفي كل ما كتبت ، وفي كل ما علقت ، وفي كل ما حاولت من عناية بالادب .لم افهم عامة وخاصة بالقياس الى الادب .. » .

وهنا يجدر القول ان الدكتور نفسه ، اعلن في المناظرة نفسها او اذاع :

« تلقيت دعوة كريمة من جمعية المقاصد الاسلامية امضاها الاستاذ الصديق سهيل ادريس « وعرض فيها ان ستكون مناقشة حول الكتابة للخاصة والكتابة للعامة ، وطلب الي او ذكر اني سأتحدث عن الكتابة للخاصة ان اردت» و« قد القى في روعي (شوقي الى لقاء لبنان) ان اجيب الاستاذ سهيل ادريس باني موافق .. »

ثم اعلن الدكتور طه حسين نفسه في المحاضرة نفسها واذاع :

« ان سوفوكل .. وكل الشعراء البارعين وكل الكتاب الممتازين .. انشأوا فنونهم لطائفة بعينها » .

كذلك اعلن الدكتور طه حسين نفسه في المحاضرة نفسها او اذاع : « ما دمنا متفقين على ان الاديب لا ينبغي ان يضحي بفنه في سبيل قرائه فلن يكتب الاديب الا للخاصة » .

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد ؛ ولا اقصد قصد المناقشة .

والواقع يشهد .

•

وحاول الدكتور طه حسين في المناظرة ان يدحض نظرية الكتابة للخاصة والكتابة للعامة (مع انه اصطفى الخاصة في النهاية) فاعلن بداءة :

« لست من الذين تفتنهم هذه الآراء الكثيرة الخطيرة الحديثة التي يشغل بها الاوروبيون انفسهم .. منذ كانت هذه النظريات السياسية التي غيرت نظم الحياة في هذا العصر الحديث » فان الاديب « قد وجد قبل ان توجد هذه النظريات ، وهو قد اثر في حياة الامم والشعوب ، وقد اتاح لها ان تتطور .. دون ان يفكر الذين انشأوا الادب في انهم يكتبون للعامة او للخاصة او يفكروا في انهم موجَهون او موجهون ، كل هذه اشياء لم تكن تخطر للادباء ببال عندما انشأوا روائعهم منذ العصور القديمة الى اوائل هذا العصر .. »

واستشهد :

« دعوا هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه ، ودعوا الظروف التي تحيط به وتؤثر في الادباء وفي ادبهم اثاراً مختلفة (?) وانتقلوا بنا الى عصر بعيد كل البعد عن هذه الظروف التي نحن فيها ، واختاروا اي اديب شئتم من ادباء العصور القديمة . ولنختر مثلاً ادباء التراجيديا عند اليونان .. فمن الذي وجه كاتباً او شاعراً كسوفوكل مثلا ؟ .. ان سوفوكل لم يحفل عندما انشأ « انطيغونا » لا ببريكايس ولا بالذين سبقوا بريكايس .. وانما وجد امامه اسطورة قديمة رائعة تأثر بها اليونان .. فاستغل هذه الاسطورة .. دون ان يكون للسياسة ولا لأحد سلطان على هذا الشاعر» فقد« استطاعت طائفة من القدماء ان تنتج ما انتجت دون ان تفكر في شيء من هذا الكلام الجميل (كلام رئيف خوري) الذي استمعنا له منذ حين ، لأن كل هذه المعاني لم تكن تخطر لاحد منهم ببال او لان العصر لم يكن يسمح بان تنشأ هذه المعاني ولا ان يدفع اليها الكتاب والشعراء » .

قلت ان الدكتور حسين نفسه اعلن في المناظرة نفسها او اذاع « ان سوفوكل .. وكل الشعراء البارعين .. انشأوا فنونهم لطائفة بعينها » . وهنا يعنيني ذكر ما ورد في كتبه حول وضع الاديب ، وحول تأثير العصر والبيئة ، وحول طبيعة الفن الاغريقي .

---

[1] راجع العدد الماضي (نوار) من الآداب .

كتب الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه « في الادب الجاهلي » يقول :

« الادب الانشائي هو الادب حقاً . وهذا الادب الانشائي خاضع لكل ما تخضع له الاثار الفنية من تأثر بالبيئة وبالجماعة والزمان، وما الى ذلك من المؤثرات الاخرى ، ومن تأثير هذه المؤثرات ايضاً . وهو مرآة لنفس صاحبه . وهو مرآة لعصره وبيئته . »

واذاع في كتابه « فصول في الادب والنقد » في فصل عنوانه « مع ادبائنا المعاصرين » :

« الشيء الذي يظهر انه لا يقبل الشك ولا يحتمل الجدال ، هو ان الانتاج الادبي ظاهرة اجتماعية . »

« والحق الذي لا شك فيه ان الاديب اجدر الناس بان يكون هذا الحيوان الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف القديم ، فهو لا يعيش الا للناس . منهم يستمد خواطره وآراءه . ينتج إن غذوا حسه وشعوره وعقله بالظواهر والحوادث والواقعات ، وينعم إن أحس أنهم يسيغون ما يقدم اليهم من غذاء » .

« والمهم ان الاديب مهما يكن امره ، كائن اجتماعي لا يستطيع ان ينفرد ، ولا ان يستقل بحياته الادبية ، ولا يستقيم له أمر الا اذا اشتدت الصلة بينه وبين الناس » .

وفي نقده كتاب « فيض الخاطر » لأحمد امين، اعلن احسن ما يكون الاعلان : « ما اكره ان اهبط الى العامة بل يجب ان ادنو منهم ، ويجب ان أرفعهم الى حيث يذوقون الادب الرفيع ، هذه هي الديموقراطية الصحيحة . »

• اذاع في فصل عنوانه « الى صديقي احمد امين » :

« لما عصفت العاصفة . . كنا ايها الاخ العزيز ألسنة الساسة وسيوف القادة والسفراء بينهم وبين الشعب . وكنا سياطاً في ايدي الشعب يمزق بها جلود الظالمين تمزيقاً . وكنت ترى ، وكان غيرك يرى ، آثارنا في الظلم والظالمين، وبلاءنا في مقاومة العدوان والمعتدين، وحفاظنا لهذا الشعب الذي لم يكن له قوة الا قوتنا يومئذ . »

وفي شأن الادب الاغريقي اعلن الدكتور طه حسين او اذاع في المقدمة التي وضعها للترجمة العربية لكتاب اندره جيد « اوديب » :

« الشعراء الممثلون من اليونان يعتمدون في تمثيلهم ، بحكم الفن نفسه ، وبحكم الدين ايضاً ، على الاساطير . . فالابطال والالهة هم موضوع القصص في الالياذة والاوذيسة ، وهم الموضوع الاساسي لتمثيل الممثلين . ومع ذلك فتغير الصورة له خطره العظيم وان بقي الموضوع ثابتاً مستقراً ، ذلك ان الصورة لم تتغير الا لان النفس اليونانية قد تغيرت بحكم ما احاط بالشعب اليوناني من الظروف . . فقد كان القصص اليوناني صورة لحياة الجماعة . . ثم تتقدم الحضارة ويرقى العقل ، وتقوى الشخصية وتظفر الشعوب في المدن بحقوقها السياسية ، فتتغير صورة الشعر »

والسؤال : لماذا لجأ سوفوكل الى موضوع قديم ؟ هل لأنه « وجد امامه اسطورة قديمة رائعة » ؟

يقول الدكتور طه حسين نفسه في مقدمة كتابه « الشعر التمثيلي اليوناني » :

« ان التراجيديا كانت عملا دينياً قبل كل شيء ، فلم يكن بد من ان يمت موضوعها الى الدين بسبب » . ان « مكان التراجيديا من الدين وحرص اليونان على سننهم الموروثة – لايغيرونها مهما ظهر من فسادها – حالا بين الشعراء وبين اختراع الموضوعات الطريفة» . لقد « اضطر الشعراء الى ان يتخذوا موضوعات قصصهم من ابطال العصور الاولى الذين نوهت بهم الالياذة والاوذيسة . . ولم يكن كل هؤلاء الابطال ليصلحوا موضوعاً للتمثيل ، فاختار الشعراء من بينهم من هو اشد الى الحياة الواقعة قرباً» . وهناك شيء « لا بد من الاشارة اليه اذا اردنا ان نستقصي المؤثرات التي عملت في تكوين الاثار التمثيلية لسوفوكليس، هو هذه الجماعة اللاتينية التي عاشرها الشاعر في جميع اطوار حياته منذ بلغ رشده.»

« كانت هذه الجماعة تمثل ارقى طبقة مفكرة في العالم اليوناني (سيمون بيريكليس ، هيرودوت ، فيدياس . .) وغيرهم من زعماء السياسة والادب والفن . . وكانت هذه الجماعة محبة للحياة كافة بلذاتها تستمتع بها غير مسرفة ولا مفرقة . وكان احب شيء اليها ان تجتمع الى الطعام والشراب متجاذبة اعذب الحديث . . متحاورة متناظرة في اطرف الموضوعات . . فما اشد تأثير هذه الاجتماعات في ترقية الحوار وتهذيبه وجمله من الرقة والدقة بحيث يلائم هذه العقول التي كانت تفهم فتسرع في الفهم . كل هذا تراه جلياً فيما اشتملت عليه قصص سوفوكليس من حوار او جدال . »

وفي حديثه على حياة سوفوكليس اعلن او اذاع :

« كان سوفوكليس ابن هذا العصر الذي رقي فيه العقل اليوناني والشعر

اليوناني ، واصبح فيه الانسان يشعر اشد الشعور بوجوده ويعترف اشد الاعتراف بشخصيته ويود لو اكره كل شيء على ان يعترف بهذه الشخصية ويشعر بذلك الوجود . »

« نشأ هذا كله عما كان من الاستحالة الاجتماعية والاقتصادية اللتين غيرتا ما كان لليونان من نظام سياسي ، وجعلتا الحرية حظاً شائعاً بين افراد الشعب جميعاً سواء منهم الفقير المعدم والغني المثري وسواء منهم الشريف الرفيع والسوقي الوضيع . »

« ففكر كل انسان ، وعمل كل انسان ، واحس كل انسان بأن لتفكيره ثمرة ولعمله نتيجة ، فعرف انه شيء يذكر واعتقد انه موجود لا ينبغي لأحد ان يهمله او ينكر ما لوجوده من خطر او قيمة ، ونشأ عن ذلك اعتقاده ان له ارادة حرة تستطيع ان تمانع فتفوز في الممانعة ، وان تنازع فتنتصر في النزاع . »

« على هذا الاصل الذي هو الى السياسة اقرب منه الى الفلسفة قامت قصص سوفوكليس .. »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « قادة الفكر » :

« ظهر تأثير الجماعة الاثينية بسقراط وجزع الطبقات الارستقراطية من سلطانه على الشبان في نحو ٤٢٥ ق.م حين اخذ الشاعر التمثيلي المشهور « ارستفان » الذي كان لسان الاحزاب الارستقراطية المحافظة ، يعرض بسقراط في قصصه التمثيلية المضحكة واصبح سقراط يخيف الارستقراطية . »

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد . ولا اقصد قصد المناقشة .

والواقع يشهد

•

وبعد

اعلن الدكتور طه حسين في المناظرة او اذاع :

« لست ادري أعندكم الآن هذه المشكلة التي يشقى بها كثير من الكتاب ومن الادباء في مصر ، وهي السخط على المدح والمادحين والممدوحين واعلان ان شعر المدح انما كان يصور مهنة الشاعر ويصور انه كان يبيع شعره ويبيع خلقه ويبيع نفسه .. »

« اؤكد لكم ان هذا كله ليس في حقيقة الامر الا عبثاً من العبث ، وكلاماً لا يقدم اصحابه ولا يؤخر . فليس من شك في ان شعراءنا قد مدحوا ، وغلوا في المدح إذ قالوا شعرهم ، ولكن ليس من شك ايضاً في اننا عندما ندرس حال هؤلاء الشعراء الذين كانوا يبيعون المدح ويأخذون ثمنه من الامراء والخلفاء ، وندرس حال اولئك الذين كانوا يغرون بهذا المدح ويعطون الجوائز السنية في سبيل هذا المدح ، ونسأل انفسنا : اي الفريقين كان ادنى الى الغفل ، واقرب الى الحماقة ، واي الفريقين كان مغفلاً بالمعنى الصحيح ؟ فالجواب هو ان الملوك والخلفاء والامراء هم الذين كانوا اغفالا مغفلين ، وان هؤلاء الشعراء كانوا يعبثون بهم ويسخرون منهم فيما بينهم وبين انفسهم . » فليس « الشاعر هو المغفل ، وانما المغفل هو الذي ترك نفسه ينخدع بهذا الكلام » فاي الفريقين « كان يبيع نفسه ، واي الفريقين كان يبيع خلقه ، واي الفريقين كان ينزل للآخرين عن كرامته ؟ اما انا فاعتقد ان الممدوحين هم الذين خسروا في هذه القضية ، وان الشعراء لم يخسروا فيها شيئاً »

وتابع ، « لم يخطر لأحد من هؤلاء الشعراء ان يفكر في عامة او خاصة وانما فكر في فنه .. ولم يزد على هذا الا انه اجاد واتقن ما اتيحت له الاجادة واتيح له الاتقان » .

وهنا يجوز القول ان الدكتور نفسه ، اعلن في المناظرة نفسها او اذاع :

ان اصحاب السياسة « استغلوا هذا الشاعر او ذاك » وان الشعراء « قبل ان يفكروا في الممدوحين ، وفي المهجوين ، وفي الساسة ، انما يفكرون في الشعب ، ويفكرون في هذه الكثرة الذين سيقرأون هذه القصيدة او سيتناشدونها فيما بينهم . »

وفي حملته على الادب الموجه اعلن الدكتور طه حسين او اذاع :

« ما تحبون للاديب ؟ اتحبون ان يكون خادعاً وان يكون مخدوعاً ؟ واذن فليكن الاديب موجهاً ، ولتكن سيرة الاديب مع الذين يوجهونه كسيرة ابي تمام والمتنبي . »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « مع المتنبي » في حديثه على الشاعر حين فارق سيف الدولة والقى بنفسه بين يدي سيده الجديد كافور يمدحه :

ميّ وسعد والجلاء!

ألقيت في مهرجان الجلاء النسائي بدمشق في ١٧ نيسان ١٩٥٥ .

•

لفتةً يا ميُّ .. نيسانُ عبيرٌ ، وبشائرْ
وربيعٌ ، مثلَ عينيكِ ، أصيل السحر آسرْ
أنظري .. غمغمةُ النبع ، وحسناءُ ، وشاعرْ
وخطانا تنسج المرج .. نسيماً وأزاهرْ
حبنا أترع هذي الارض نبضاً ، ومشاعر
حبنا يا مي .. هل آمنتِ أن الحب قادرٌ؟!

•

حرةٌ أنتِ ، اسفحي حيث تشائين رؤاكِ !
وطني حلو كرؤياكِ .. جميلٌ كصباكِ !

ربوةُ الشام لنا ، والنهرُ همسٌ وتشاكي ،
وظلالُ الغوطة الخضر يقبلن خطاكِ
حرةٌ انتِ .. انثري حيث تشائين رؤاك
وطني حلو كعينيكِ .. وحيٌّ كصباكِ !

•

أنظري ، غابةَ دوحٍ تفرش الأرض ظلالا
وتدلي الثمر الاشهى .. يميناً ، وشمالا !
هي لي ، بل لكِ يا ميّ ، إذا العشان آلا
في غدٍ عشاً ، وسهراتٍ ، وأحلاماً طوالا ،

•

كم تحصنا بها ، إذ ألهب البغيُ النضالا
وتحدى .. فأحالَ الشام ساحاً ، ونزالا !

•

هذه ألحاننا النشوى ، وافراحُ الجلاء !
أسكرت نيسان ، فاستلقى على جدول ماء
أتذكرتِ .. إذ السفاح يسقي بالدماء
هذه الأرض ، ويكسوها ضلوعَ الشهداء؟
من بلاءٍ سار هذا الشعبُ جيلًا لبلاءِ !
فدعينا نغمس العود .. بأفراح الجلاء !

•

« جحد ماضيه كله ، ورفض اراءه كلها ، ونزل حتى عما كان خليقاً ان يحتفظ به من ايسر الكرامة واهون الكبرياء .. ظن نفسه حراً ، ولم يكن الا عبداً المال ، وظن نفسه ابياً ، ولم يكن الا ذليلًا لسلطان .. »

« ان المتنبي قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما اكثر ما يخدع الناس عن انفسهم . ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها ، وانما خدع معها كثيراً من الناس فظنوا به الحرية والكرامة واباء الضيم . »

واعلن الدكتور طه حسين او اذاع في كتابه « الوان » في فصل عنوانه « الادب العربي بين امسه وغده » :

« ان هناك تطوراً لأدبنا الحديث اعظم خطراً وابعد اثراً من كل ما قدمت وهو الذي سيوجه الادب في المستقبل الى غاياته التي لا يستطيع عنها تحولا او انصرافاً فيما اعتقد » .

وهنا يشير الى الادباء الاحرار الذين « يكبرون انفسهم ان يحميهم هذا العظيم او ذاك . »

ثم يتابع : « قد تقول انهم ينتجون للجمهور ، فهم مدينون للجمهور بحياتهم الادبية » . وكل « اديب في بيئة متحضرة انما يعيش للجمهور وبالجمهور ، كما ان الجمهور نفسه يعيش لكل انسان . » ..

« فالظاهرة الخطيرة في ادبنا الحديث هي هذه الكرامة التي كسبها الادباء لانفسهم ولادبهم والتي مكنتهم من ان يكونوا احراراً فيما يأتون وفيما يدعون » .

« اما الوجه الثاني لهذا التطور فهو ان الحرية نفسها قد فتحت للادباء ابواباً لم تكن تفتح لهم حين كان الادب خاضعاً للسادة والعظماء . وقد اثرت ظروف التطور الانساني في توجيه هذه الحرية . فقد كان الادباء القدماء ، يؤثرون انفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون ، وكذلك عكف الادباء على انفسهم فحللوها وعرضوها : وكذلك فرغ الادباء لفنهم فجودوه كما يريدون ويستطيعون ، وكما يريد الفن ، لا كما يريد هذا السيد او ذاك .. وكذلك عكف الادباء على الشعب ، فجعلوا يدرسونه ويتعمقون درسه ، ويعرضون نتائج هذا الدرس ، ويظهرون الشعب على نفسه فيما ينتجون له من الآثار . وهذا كله قد رفع الادب الى الصدق والدقة وجعله انسانياً لا فردياً ، ووضعه حيث وضعت الاداب الحية الكبرى نفسها بحكم التطور الذي دفعتها اليه ظروف الحياة الحديثة . »

و « هناك حقيقة واقعة . . وهي التي اريد ان اختم بها هذا البحث الطويل وهي ان الحياة الانسانية على اختلاف بيئاتها تتجه الان اتجاهات شعبية لا فردية . ومن طبيعة هذه الاتجاهات الشعبية ان تستغرق كل شيء » . والادباء « سيلائمون في ادبنا العربي ، كما لاءم زملاؤهم في الاداب الاخرى ، بين امتياز ادبهم الرفيع وطموح الشعوب الى ان تستغرق كل شيء » .

اسوق هذا الكلام من غير تعليق ، لأني لا اقصد في هذا الفصل قصد النقد ، ولا اقصد قصد المناقشة .

فتلك وقائع اثارت في نفسي الواناً من الملاحظات والتفكير رأيت ان اذيعها على القراء لتثير في نفوسهم الملاحظة والتفكير .

موريس كامل

كان سعدٌ موجةً من فرحٍ صافٍ عميق
يملك الدنيا بعينين ، وخدٌّ كالشروقِ
ويحس الأرض تنهال عليه بالرحيق
ويرى العيدَ ،وقد أقبل في خطوٍ رشيق
يفرش الورد لميّ ، وله، طولَ الطريق
خلق الحب.. لحرٌّ من أذى القيد طليق !

•

ورنت مي .. وهزت قبضة ريا ذراعا
ورمى الصمتُ على ثغر الحبيبينِ قناعا
وأطلت نجمة تستطلع السر المـذاعا
وتهادى « بردى » في خاطر الليل شعاعا
ما دهى الحسناء؟ هل باغتها حلم ،فراعا؟
فبدا الصمت بجفنيها وميضاً ، والتماعا !

•

جمدت في فم سعد لفظةٌ كادت تبوحُ
ورآها .. مثلما شدت على الجمر الجروح
أي لغزٍ أضمرت ميّ فأعياه الوضوح؟!
أي إيماضٍ من النار بخديها يلوح !
ما أحبَّ الحسنَ تمشي فيه كالجذوة روح !
ما أحبَّ الحسنَ يستهويه همٌّ، وطموح !

•

وأدارت رأسها، وانتفضتْ في الريح خصله
باغتتها نسمةٌ عجلى من النهر ، بقبله :
ربوةُ الشام لنا يا سعدُ، والشهب المطله
ونسيمُ الليل كالخمرة يُروي كل غله
وضفافُ النهر، والوردُ الذي يفرش ظله
للهوى، لي ، لكَ، للمحزون سلوى وتعله !

•

ربوة الشام لنا سعد .. وأعيادُ الجلاءِ
ورؤى نيسان سكران ، وآهُ الشعراءِ
والاغاني يتفجّرن كشلالِ الضياءِ !

فِتَنٌ رائعةُ السحرِ ، كوحي الانبياءِ
غير أني لستُ مَنْ تغرقُها حفنة ماءِ
أنا لن أهدأ.. مذ اشعلت شيئاً في دمائي !

•

أمسِ قد كنت بلبنان ،ومازلت نجيعا
يتحدى العبد (هولاكو)، ومولاه الرفيعا
أنا في النيل نداء الارض قد لاقى السميعا
انا في المغرب أمٌّ تُلقمُ الموتَ رضيعا
وفتاةٌ وهبتْ ثائرها قلباً جَزوعا
أقسمت تهواه حياً ، وستهواه صريعا !

•

أنا قبل الحب - هل تسمع ؟ - روحٌ عربيه
تتلقى كل فجرٍ من يد البغي منيّه !
حرة؟.. هيهات، أرضي للحراب الاجنبيه
ربما كنتُ غداً في مهد اجدادي سبيه
ربما القاك - من يدري؟ - على الدرب ضحيه
شاءها مستعمر نذل بطلق ، او شظيه !

•

حرة، لا، كذب الوهم، ودعني وقيودي
نصطرع، لابد من فجر على الارض جديد
حرة ؟ غفران ثارات الضحايا، والحدود
ودم في القدس يستصرخ أكفان الجدود !
حرة ؟ لا كذب الوهم، ودعني وقيودي
نصطرع.. لابد من فجر على ارضي جديد !

•

لا تشح وجهك، لن ارقص في عيد الشآمِ
لا، ولن اقنع بالقطرة من صوب الغمامِ !
وطني تعرفـه يا سعد أنقاضُ حُطامِ
لملمتها خرقٌ صامتةٌ تحت الظـلامِ
أمتي . حفنةُ أشباحٍ تلوى في الخيامِ
ينهش الداء بقايا الجلد فيها ، والعظامِ

•

دوحُ بستانك في الغوطة فذُّ الحسن، رائع
اكدوا أن به كوخاً وخلف الكوخ جائع
وطني يا سعدُ فلاحٌ وراء الطينِ قابعْ
وذراعٌ أسمرٌ تحت غبار النول ضائعْ
يصنعُ التاريخَ هؤلاء والمجدَ، اسامعٌ؟
ان يكن في المِحَن السوداء للتاريخ صانعْ

•

قم معي نبدأ جلاءَ البؤس في الكوخ الحقير
وقبابِ الطين لا تعرفها ومضة نُورِ
قم معي نبعثْ من الأجداث أسمال العصور
حُرمت من جرعة الماء، ومن دفء الحصير
واعتذاراً من (أبي رمانة)[1] الزاهي المنير !
والقصور البيض في جنبيه تومي للقصور

•

عد معي فالدرب درب البعث يا سعد طويل
ينتهي جيلٌ، ويمضي في الكفاح المرجيل
لم يَرُعنا أن من يصمد في الشوط قليل
مقوَدُ النصر بأيدينا.. وهيهات يحول !
شعبنا هذي الجباه السمر، والعزم الاصيل
صخرةٌ يفنى عليها كل طاغ ويزول !

•

عد معي يا سعد نقسمْ بنجيع الشهداءِ
عطرت ثوراتنا الحمر به كل سمـاء !
أننا ماضون عبر الدمع ، او عبر الدماء
من بلاء تشمخ العليـاء فيه ، لبلاء
فاذا ماجت بأرض «الضاد» راياتُ الجلاء
ونفضنا عن نعال الشرق ظل «الدخلاء»
وامحت من هذه الارض دموع البؤساء
ضمني يومئذٍ ، واسكر على رجع غنائي !

حلب — **سليمان العيسى**

١ شارع فخم من شوارع العاصمة .

اللقاء...

قصة للكاتب الفرنسي جان ريفيزري

نقلها الى العربية الدكتور سهيل ادريس

لم اكن استطيع التفكير في الاقامة مع امي، بعد ان غادرت المستشفى، فأخذت ابحث لي عن مسكن. وعبثاً جريت هنا وهناك، ثم لم أجد مفراً من نشر اعلان في صحيفة: « طبيب يبحث عن بيت بأربع غرف ، في الضاحية». وتلقيت جواباً .

واني لأذكر تلك الرحلة الطويلة ، تحت مطر يصحبه بَرَد، وقد افضت بي الى البناية التي دُعيت اليها والتي رأيتها من غير أمل : انها تنتصب رمادية اللون ، في ساحة منبسطة كاليد ، على هامش جادة صاعدة. ولقد دلفت اليها فاكتشفت مسكناً خرباً يشبه مقبرة منبوشة. ومع ذلك، فقد اتفقت في خمس دقائق مع الشخص الذي قرر مغادرته. واذ خرجت، مسلماً وجهي الى المطر، توقفت عند العتبة، انظر امامي الى الساحة الصغيرة بشجراتها الاربع الداكنة، في وحشة ذلك الاصيل الشتوي ، فأتذكر ، بحزن ، ساحة اخرى ، هي ساحة « الانفواس » التي سأتركها ، والتي تبدو هذه الساحة الصغيرة شكلاً منمنماً عنها ، هو صورة لوحدتي وكآبتي . ولكني سرعان مـا دافعت عني الفكرة المريرة ، واردت ان يشيع في نفسي بعض الامل، فرحت اتفحص بعين مبتهلة فوضى الشوارع ، والازقة التي لا مخرج لها، والمصانع والحدائق: ركام متداخل من الاشياء الرمادية والسوداء لم الاحظ ، قبل اليوم ، مثل انتظامها البسيط وخطوطها الكبرى. وكانت تلك ساعة الخروج من المصانع، فكان هناك رجال يتنكبون محافظهم ويدفعون ابواب المقاهي، وآخرون عند دراجاتهم ، يقفون على ساق ويرفعون الاخرى ليمتطوا المقعد، بتلك الحركات الخرقاء التي تأتيهـا ذوات الاربع اذ تتزاوج .

وفي الايام التالية، اخرج الحمالون بعض اثاث امي القديم من أغطيته ، فأيقظوه ونفضوا عنه الغبار ، ومـا لبث ان اتخذ طريقه الى مسكني الجديد . واشتريت آلة للتوتر وسماعة وبعض الامصال . واخيراً علقت على جدار البناية لوحة عريضة تعلن سكنى الطبيب الجديد .

***

ثم كان انتظار الصابر . ولقد أخذت ، وانا وحيد في مكتبي ، اقرأ الصحف. اما في غرفة الانتظار ، فقد كانت امرأة عجوز لا تبسم قط، بسبب ما عانته من مصائب تزرد امام مدفأة؛ وقد استخدمتها لفتح الباب وتدبير شؤون المنزل . وكانت قد طلبت الي ان تظلّ هناك لتنعم بالدفء ، ما دام أحد لا يأتي ، وأضافت « إن الامر لن يطول، فانني احدث عنك أهل الحيّ.» وفي اليوم الاول ، عكر عليّ جرس التلفون وحدتي تعكيراً سعيداً: وكانت هي امي تسألني ، وهي قلقة على بدء عملي ، عما اذا كان كل شيء على ما اروم . وانقضى الاسبوع في هدوء وصمت مطلقين . وكنت اذا ضجرت من وحدتي ، هاجرت الى غرفة الانتظار لأثرثر مع المـرأة العجوز التي تدعو نفسها الآن بمديرة شؤوني. وكانت ترفع مـن همتي إذ تحدثني عن اطباء الجوار الذين لم تكن تحبهم ، على ما بدا لي ؛ وكانـت تومىء احياناً ايماءة موجزة الى بعض الاطباء الذين ماتوا منذ زمن بعيد، فأدرك ، وانا استمع اليها ، هزال الذكرى التي قد يخلفها طبيب بعد حياة طويلة من العمل .

على ان مديرة شؤوني ادخلت الى مكتبي ، ذات صباح باكر ، عاملة كانت تبكي وهي ممسكة يدها بمنديل مدمّى . وضمدت زبونتي الاولى التي عادت بعد ذلك طوال اسبوع بدا لي اقصر من سابقيه : ثم كانت الوحدة من جديد . وأخذ الوقت يمر ، وبدأت اشعر باليأس حين تلقيت زيارة وكيل للمنتجات ، وهو شيخ لاهث استراح الى المقعد الذي قدّمته له. وبعد ان وضع على مكتبي بعض العينات وبعض الورق النشاف ، حدّثني حديث خبير عن الاطباء الذين أصبحت الان منافساً لهم: « إن الدكتور ترامار منهمك في السياسة ؛ ولقد رؤي يوم الاحد الماضي على رأس موكب . والعمال لا يحبون ذلك . واما الدكتور غرانجا ، فقد خسر كثيراً منذ زواجه ... » وقد تركني زائري وهو يوجّه اليّ اقوالاً مشجعة ويغمز بعينيه غمزة مشاركة :

– صدقني يا دكتور ، إن لك مستقبلاً لامعاً . إن الحي صالح ، والعامل كريم في الدفع . إنك مدعو الى الربح !

على ان الحادث الذي لا يصدق ، ما لبث ان وقع : لقد دعيت أخيراً لزيارة مريض حقيقي . فبعد ظهر أحد الايام ، بسطت لي مديرة شؤوني من غير كلمة ، نصف صفحة من دفتر تلميذ ، كتبت عليه بضع كلمات : « دوبوبيه ، ٣٢١ ، شارع بول برت . » فتناولت حقيبتي ، ومضيت في الطريق .

***

كان ثمة درج خشبي يصعـد في ظلمات متنامية حتى يفضي الى باب حزرته بفضل انعكاس رقعة مـن النحاس استطعت ان اقرأ عليها اسماً. وأعريت سمعي ، فلم تبلغني مـن الداخل حركة . إن لكل باب وجهه الذي لا يقلّ خداعاً عـن وجه انسان ولا عن عينيه ؛ وقد كنت اودّ ان اعرف خيراً مما عرفت وجه الباب الذي سينفتح امامي . وتلمست يداي الخشب الخشن ، وتعلّقت اظافري بنتوءات . ولكنّ ذلك لم يزد معرفتي بباب « دوبوبيه » الذي طرقته أخيراً طرقتين خفيفتين بسبابتي المطوية . وسرعان ما استدار الباب على رزّاته ، وفجأني نور قوي : فرأيت امامي ما يشبه ممراً يكتنفـه بعض الأثاث ، ويفضي ، على سجادة ملتمعة ، الى نافذة بعيدة .

ودخلت بقدم ثابتة وعرفت ان امرأة مسّنة كانت تمشي بحذائي . وكانت قد حدثتني . ومضيت امامها بين طاولات ومناضد وكراسي ممزقة تملأ غرفاً صغيرة ، فكنت ازيحها احياناً بحركة واثقة كما لو انني اعرف هذا المكان منذ وقت طويل . وكان معلقاً على الجدران صور رجال ملتحين ، ونساء عُقد شعرهن عقداً بارزة ، وكلهم واقف امام لوحات صبيغة او مرتفق حواجز ، في رضى كامل من اللاوجود . وكانت العجوز تخب خلفي وتحدثني بصورة طبيعية جدا ، كما لو ان حديثنا كان تتمة لحوار قطع عشية الامس او هذا الصباح بالذات.

ولا بدّ أن انتظاري خلف الباب، وتلمس الخشب الخشن ، قد أعدّاني لهذا اللقاء مع عالم الفقر الذي لم اكن انتظره . إن التي ادخلتني قـد عرفتني على التوّ : فقد كنت مثلها فقيراً : وما كان لفقري ان يختلف عن فقرها ؛ ذلك انه ليس ثمة إلا فقر واحد ليس فيه شوق او أمـل في

حال أفضل ، وانما فيه عزم متصل امام عناد الحياة الثقيل ، وتوتر قابل العنف للذهن المتنبه للخطر ، وفيما وراء ذلك ، رضى بالسعادة او بالشقاء اللذين يوزعهما القدر بيده الثقيلة ، يد الوحش المعتوه . ومن النافذه ، كان يسيل ضوء مثلوج من أضواء نهاية الاصيل ، متشحاً بغلالة حريرية ذابلة ، فيتسلل الى الزوايا والثنايا ؛ ولقد بهرني ذلك البياض البخاري الذي يشبه بياض الغمام المحدّب الذي يمرّ في السماء ، ايام الجو الريّق .

***

ولا بدّ انّ وقع اقدامي قد ايقظ « دوبوبيه » الذي كان مختبئاً بغطاء متداع تأرجح وسقط على الارض من غير ضجة : وبرز من الغطاء شيخ متقع معذّب القسمات ، ذكرني خروجه من الغطاء بيقظة دبّ قطبي كان نائماً تحت ثلج متراكم .

ولم يحتفظ الوجه بقسماته المعذبة وقتاً طويلا ، فقد بدا ان دوبوبيه عرفني . فتقاربت كفانا وتلامستا وظلتا متحدتين ردحاً طويلاً .

وجلست على السرير ، وقعد دوبوبيه ، وأخذ كل منا يتكلم . وقد وقفت المرأة خلفي وكان صوتها يمرّ من فوق رأسي ؛ وقد كان بالامكان ان تنتظم جميع كلماتها ، منذ ان فتحت لي الباب ، في جملة منسجمة ، هائلة ، تتمدد من غير انقطاع . وفي الوقت نفسه كان دوبوبيه يتكلم وهو يتمايل يميناً وشمالاً ، وفقاً لتنفسه الشاق الذي كان يقطع كلامه عبارات قصيرة : وكان صوته ، وهو يتضخم بأصداء صدر هزيل يذكّر ، بصوت بوق .

وانا كذلك كنت اتكلم ، وكانت كلماتي ، بلهجة أعنف ، تسعى للتسرب الى صمت اللحظة التي كان يتركها العجوزان وهما يحدثاني عن همومهما ومشقاتهما . واعتقد اننا كنا سعداء ، وان وحدة كاملة تقريباً كانت آنذاك تتحقق : كان الرجل المضطجع ، ورفيقته الواقفة ، والطبيب الجالس على حافة السرير يشكلون جوقة منسجمة . وكان دوبوبيه يقول : « لقد شعرت اولاً بضيق في صدري ، ثم حسبت ان حيوانات تتأكل أحشائي . وكانت امرأتي نائمة بالقرب مني ، وقد اردت ان اوقظها ، ولكني كنت متألماً جداً حتى اني لم استطع ان ارفع يدي . » وكانت المرأة ترتل عبارتها التي لا تنتهي : « ... في عام ١٩٢٣ ، حدث له مثل ذلك ، ولكن ليس على هذا الشكل ، بعد ظهر يوم أحد ، بينما كنا نحن الاثنين في الطريق ؛ لاننا كنا غالباً ما نذهب لزيارة اهله الذين كانوا ما يزالون في الطرف الآخر من المدينة ... » وفي الوقت نفسه ، كنت اقول للشيخ ، من غير ان يسمعني : « ينبغي الا تجزع لذلك ، ولكن لا بد من فحص جدي ، أصف لك بعده علاجاً ستكون جدواه عظيمة بقدر ما تفرض على نفسك الراحة . »

وكانت السمفونية ترتفع وتكتمل من غير نغمات ناشزة ، ترافقها العبارة التي لا تنتهي ، وكان صوت دوبوبيه المليء بالنبرات ، والذي كانت تقطعه اختناقات مفاجئة ثم انبعاثات مرنّة ، يصدي بالقرب من صوتي الذي كان أشد رقة ، وكان متموجاً كانغام الفلوت . ولم يكن احدنا يسمع الآخر : كان كل يبث نفسه شكاته ، ولكن التوافق كان كاملاً ، وكذلك العاطفة التي كانت تحيي كلماتنا والتي كان ينم عنها تعبير وجهينا الغائبين عن المباشر وعن الحياة القاسية التي توشك ان تستردنا — تلك العاطفة لابد انها كانت كذلك ايضاً . وكانت الاغنية تملأ القاعة ، وكان صخبها يعزلنا عن العالم المطلّ من النوافذ ، حيث كان النهار يتضاءل . ولم تكن العبارة الطويلة تشارف قط نهايتها ، كانت العجوز دوبوبيه ترسل نحيبها الابدي في زفرة هادئة لن تنتهي ابداً على ما يبدو ، كاؤلئك الفنانين الذين يتماسكون طويلا فوق قوانين التنفس ، وهم امام الجماهير الصاخبة . « ... ولكن ذلك قد حدث ، لحسن الحظ ، امام مقهى دلفنا اليه وارتمى فيه زوجي على كرسي ، ولو لم يفعل ذلك ، لكان سقط في وسط الشارع ، كما اظن ، ولعجز ابداً عن النهوض ، بالرغم من ان ما اصيب به لم يكن في حقيقته خطراً جداً ، فقد كان حسبه ان يشرب كوب ماء ، فاذا بألم صدره ينقص بسرعة ، واذا به يستعيد سيره . وصحيح انه اعتمد في ذلك ذراعي ، ولم تكن ساقاه متماسكتين جيداً ، ولكنهما كانتا تملكان من القوة قدراً مكننا من متابعة سيرنا حتى منزل اهله الذي لم يكن بعيداً جداً ، والذي مددته فيه امه ، وما زلت اتمثلها ، على سرير بقي فيه اكثر من ساعة قبل ان يشعر بالراحة تماماً ... »

كان دوبوبيه جالساً في سريره جلسة مستقيمة ، يحاول ان يهديء ألمه : « كم تألمت لأني لم اكن استطيع ان ارفع يدي لاوقظ زوجتي . كان هذا يشبه ما أصابني عام ١٩٢٣ ، حين كنا في طريقنا لزيارة اهلي الذين كانوا ما يزالون احياء . ان هذا امر لا ينسى ، حتى بعد انقضاء عشرين سنة! » ويرتفع صوتي في الجوقة متمتماً : « إن العروق تقسو مع الايام وتتكثف فيجري فيها الدم جرياً اصعب ، وقد يحدث ان ينسد عرق متقلص . ولكن علاجاً يؤخذ في اوانه كفيل باعادة الامر الى نصابه . ثم اننا حين نشخص المرض تشخيصاً صحيحاً ، فبوسعنا ، اذا اتخذنا له الحيطة وعنينا به والتزمنا الراحة ، ان نتحاشى كل مضاعفة . »

***

وفي الخارج كان الليل يهبط ، وفي الغرفة المظلمة حيث كانت بعض بقايا الضوء تتعلق باطراف الاثاث المشمع ، كانت الاغنية مستمرة ، كان كل منا يتكلم باندفاع او بتفكير ، وفق اللحظات ، من غير ان ينقطع قط . وكان تعبير الوجوه واوضاع الاجسام وحركات الايدي المنفصلة عن الاجسام لتنتهي باشارات اتساع او انقباض للاصابع الجامدة لحظة ، كأنما هي لتعطي او لتقذف شيئاً الى بعيد او لتسترد اعطية . وكان اشراق النظرات وهو يضيف معناه الخاص — كان ذلك كله يغني رموز

اللغة او يضيء ، بمجرد وجوده ، تلك الهوة السوداء لما لا يعبر عنه .

وفجأة ، صمتت الاصوات ، بالرغم من ان اية اشارة للتعب لم تظهر على أحد منا : كان ذلك كهدأة مفاجئة بعد عاصفة من الكلمات . وسقطت يدي المرتفعة ، وانطوت سبابتها والتفت بالابهام ، فتعلقت به كأنها هي تستعينه . وفي تلك اللحظة ، انتقلت يدا دوبوبيه من على صدره الى السرير حيث ظلتا لحظة ساكنتين ، قبل ان تختبئا في الغطاء؛ واستشعرت حركة خلفي ؛ لقد ابتعدت المرأة ، واضيء مصباح كهربائي . على ان هذا التغير الفجائي لم يسجل اي اختلاف ؛ كل ما في الامر اننا نحن الثلاثة احسسنا في اللحظة نفسها حاجة الى الصمت . إن الضوء الجديد الذي غير المظاهر ، ولعله غير طبيعة الغرفة الصغيرة بالذات ، لم يعكر علينا وحدة إجماعنا .

وأخرج دوبوبيه يديه ، بجهد ، من تحت الغطاء ، ونزع قميصه، ففحصته اذ ذاك ، ثم اقتعدت كرسياً امام طاولة وجعلت احرّر وصفتي .

وبعد ذلك ، أخذت اتكلم من جديد ، وحدي هذه المرة ، معلقاً على ما كتبت . وما لبث الشيخ ، بعد ان عانى ما عانى لارتداء قميصه ، ان استعاد تمايله ، فكان كتلك الفهود التي تتكبد الضجر في اقفاصها . وتمتمت: « سوف اعود غداً» وتناولت يده . وظل احدنا ينظر في وجه الآخر. وحين واصل تمايله ، بدأت انا ايضاً ، وكأنني ملتصق به ، بسبب ثبات نظرينا ، أهز رأسي يمنة ويسرة بايقاع شبيه بايقاعه . وكان دوبوبيه يشدّ على يدي بقوة : ولقد شاءت يدي الهزيلة ان تقاوم اليد التي كانت تشدها ، فتعانقها هي ايضاً ؛ ولكن قوة اصابع العامل الضخمة هي التي انتصرت . واستسلمت يدي الرخصة الموهونة ، بعد انتفاضة اخيرة ، وانتقل خدرها المؤلم تقريباً الى الذراع والكتف .

لقد تكلمنا من قبل طويلا ، في تناغم كامل ؛ وايأما كان معنى كلامنا ، وسواء تحدث كل منا بلغة مختلفة فان تفاهمنا كان واحداً ، فيما وراء وعينا في تلك المنطقة السوداء من الآلام والافراح التي تضيء احياناً ، مدة لحظة بعد دوار لذيذ . اما وان يدينا الآن قد اتحدتا ، خيراً مما تتحد الكلمات العاجزة ، فانهما تصهران تحالفنا . كانت عينا دوبوبيه تلتمعان ببريق نشوة وانتصار . لقد شعر بضعفي ، وبمقاومة اصابعي ، ثم باستسلامها ، فعادت اليه قوة الماضي الضائعة ؛ ولكنه لم يسحقني . لان نصره لم يكن ذلك النصر الذي يهدم .

***

واخيراً فكّ التحام يدينا . وعيّنت المرأة في درج اخرجت منه اجرتي : ثلاث اوراق من فئة العشرين فرنكا ، قدمتها لي منشورة ومطبقة على يدي ، كما هو الشأن في لعب الورق . واذ ذاك اطبقت يدي على يدها من غير ان آخذ الاوراق . وارادت السيدة دوبوبيه ان آخذ المال ، وكان بودي اول الأمر ان اقبل ما منحتني إياه ، ولكني لم استطع ان امضي في حركتي حتى نهايتها . ثم إن يدينا اللتين فصلتهما كثافة الاوراق، التي لم يكن لمسها منفراً ، انصهرتا بقوة . وكانت العجوز تتفحصني عبر نظارتها ذات الاطار الحديدي ، وحزرت من تقطيب حاجبيها انها لم تكن تراني جيداً ، وانا نفسي لم اتميز من عينيها ، خلف زجاج نظارتها المغشى ، الا وميضاً مزوروراً . وظللنا صامتين ، لا يتحقق الاتصال بيننا إلا عبر الاوراق الثلاث ذات العشرين فرنكا ، وانها لعقبة تفصل بيننا ، وإن كلا منا ليرفض ان يختص بها نفسه . على ان أصابع العجوز تشنجت وتسللت خلال اصابعي وهي تدعك الاوراق كما لو انها تريد ، مرة اخيرة ، ان تلصقها بيدي ، ولكنني قاومت . واذ ذاك انسحبت اليد بالمال . لقد استسلمت العجوز .

« ساعود غداً » قلتها مرة اخرى كسباً للوقت ، لأنني لم اكن استعجل الذهاب . واذ رفعت رأسي نحو الصور المتداعية ، وقع بصري على مرآة صغيرة مكسورة الى خمسة اجزاء او ستة ، ظهر فيها وجهي المقطع ، وعلى قسماته تعبير وددت ان امنحه إياه بأن أجمع الجبهة والانف والشعر والعينين . لقد اسقطتني المرآة المكسورة في شركها ، فبدا لي وجهي فاتناً بذلك المزيد من سمرة الشعر والبشرة : كان الجلد المزيت يلتمع بانعكاس النور ، وكانت العين المظلمة الرطبة الوسيعة تنعزل في جزء من المرآة ، كما لو انها في اطار . واذ استشعرت هذه الصورة المجزأة اللامعة المسودّة التي تمثلني ، فكرت بانني لا اشبه رجال هذه البلدة ؛ ولكنني سارعت ادفع هذا الخاطر المغرور بسبب العجوزين اللذين كنت أشعر بوجودهما شعوراً عميقاً ، واتجهت نحو الباب . واستعادت العجوز ، على أثري ، عبارتها التي لا تنتهي والتي ستواصلها من غير شك ، مع فترات استراحة ، ومن غير ما تعب ، حتى يوافيها الأجل .

***

ان زيارتي لدوبوبيه تظل لي موضوع تأمل ودرس ،ولقد بسطها ذهني الى بضعة احداث : انتظاري القصير امام الباب الذي كانت تلتمع عليه رقعة من نحاس ، وتلمس الخشب الخشن ، ثم مشيتي المندفعة ، وبدء العبارة الهائلة التي ما لبثت ان رافقت حواري مع دوبوبيه ، فالصمت المفاجيء ، وفحص الشيخ العجوز؛واخيراً لمسي المزعج للاوراق الثلاث من فئة العشرين فرنكاً ، واني اذ اذكر ذلك كله ، يتجه لي ان افكر ان هناك حاجة الى ميلاد علم يهتم بالعلاقات البشرية :الدنو ، والفرار ، والاتصال ، والحوار، وحركات الجسم والاعضاء. علم يعالج توحد الانسان ، ومن ثم ، الانسان نفسه : ومن اجل هذا لم يغر هذا العلم احداً بعد . وان على الفضول ان يبدو متواضعاً امام القوى التي تجتذب الاحياء ،أو تباعد فيما بينهم ، او تجمدهم ساعة من زمن ، وجهاً لوجه ، وان يكتفي من غير استنتاج ولا فائدة للفكر ،بملاحظة النبرات المنطلقة ، والاشارات المكتوبة والحركات، والنظرات المرسلة . إن هناك هوة تعبير الاذهان المتجهة عبثاً الى نفسها ، والمعلنة عن ذاتها بهذه الكلمات وهذه الحركات وهذه الحروف التي بفضلها تتواصل الارواح .

سوف اموت من غير ان اشبع الفضول الذي عذبني ، ولكن قيمة الفضول تقوم على مجرد وجوده ، فغالباً ما لا تحتاج هذه الاسئلة الى اجوبة. انني اعرف جيداً انني لن اعرف ابداً لماذا اخذت ، بعد ان طرقت باب مخلوقين يدعيان دوبوبيه ، اتكلم وامتليء حركة طوال ساعة ، بينما كانا هما ايضاً يتكلمان ويرفعان ذراعيهما او يشدان على يدي.وبعد ان نفذت الى صميمية العجوزين بسهولة بلغت من القوة بحيث احتاج الى سنوات طويلة من التفكير لأعجب لها ، شعرت بانني لم ابق انا نفسي . لقد تم ، من جهتي ، تقدم لا في الفهم بل في المسلك . واحسب ان فقر آل دوبوبيه الذي يقارب فقري ، لا يد له في الامر ، وانما كان التغير في نفسي ، وكان ناتجاً عن دورة الزمن لا عن وضع اللذين واجهتهما .

ان اسمها بعد الآن لا يهمني في شيء ، كما لا تهمني اسباب افراحهما واحزانهما، لقد رأيت ما كانا عليه اعني مظهرهما ، اعني واقعهما . لقد وجدت نفسي امام شيخ نائم فايقظته ،وارتفع صوتانا ليعلمنا تفاهمنا ، بينما كان خلفنا كائن آخر يعلن عن نفسه بعبارة لا تنتهي.لم اكن اريد ان افهم شيئاً ، لأنه ليس ثمة ما يفهم مما هو انساني ، وكل ما في الامر اني وجدت مكاني بين الناس .

صباح العيد

[إلى شهداء الحرية في كل زمان ومكان]

•

الليل يزحف لاهثَ الأنفاس مبتور الرجاءْ
وغداً سينطلق الرصاص مفجّراً فيك الدماءْ

***

أولادك الأطفال من يرعاهم من بعد موتكْ ؟
أسرع وأوصِ فان ظلّ اليتم يمرحُ فوقَ بيتكْ

***

وكوسنة الغافي على أحلام آمال سعيده
مرّت به الأطياف هانئة الخُطا تمشي وئيده

***

كانوا على اكتافه يتلاعبون ويضحكون
ويدغدغون خدوده حيناً وحيناً يرقصون

***

وعليهم الأم الرؤوم تصبّ أنوار المحبهْ
وتضمّهم زَهراً ترفّ عليه أرواح الأحبهْ

***

في العيد في غدنا سنرفلُ في جديد ثيابنا
وغداً سنسكبُ فرحة الأعياد في ألعابنا

***

لا تُبعدي هذي الثيابَ وقرّبي هذي التحفْ
كيما تكون اذا الصباح أطلّ - يا أمّ - الهدفْ

***

وأفاق مذعوراً على الصوت الأجش يُروّعُ
« أسرع وأوصِ دنا الصباح وعن قريب تُصرعُ »

***

وأضاء وجه فيه أمواج البشائر تزخرُ
وافترّ ثغر منه ينداح الشعاع النيّرُ

***

« أهلاً صباح العيد ما أحلاك صُبحاً تُرقَبُ
أطفاليَ الأبرار لا توصى عليهم أذؤبُ »

***

إن الوصية : أن أطفالي بكم لا تُنكبُ
إن الوصية : أن أطفالي عليكم تغضبُ

***

سيمرّ عيد إثر عيد في دماءٍ تشخُبُ
وتظلّ أشلاء الطغاة على لظى تتلهّبُ
أنا ليس لي طفل ولكن أمّة تتوثّبُ
أطفال كل الناس اطفالي لذاك أعذّبُ
ستظلُ في دميَ السفيح جراحهم تتصبّبُ
ويظلّ تاريخ الضحايا من دمائي يُكتبُ
وأظلُ في محراب أطفال الحياة أقرّبُ
فلتقرأ الأطفال في أعيادها أني الأبُ

***

ورمى الصباح ثيابه الحمراء فوق المشرقِ
فتخضّب الأفق الذبيح بدمعه المترقرقِ

***

ومشى الشهيد الى الخلود وثغره متبسّمُ
والقيد للحريةِ الكبرى فمٌ يترنمُ
واهتزّ منتشياً على صوت الرصاص يُدمدمُ
صدر عليه من الدماء وسامه المتكلمُ

***

وهوى فدوّت صرخة حمراء يسقيها الدمُ
العيد أقبل أيها الاطفال فالهوا وانعموا
فليسقط المستعمرون ومن بهم يستعصمُ
وليهنئ الاجيال أن قيودنا تتحطّمُ

بيرزيت — رام الله

عبد الرحمن رباح الكيالي

***

دير ياسين

(١)

بنت الجنوب
لمّي فؤادك من هنا
لا تحلمي
ودعي الغيوب
أوَ تحلمين؟
بالقصر، بالفرو الثمين
بالانفراد
والشعب جلله السواد
وبلادنا
منهوبة الاطراف غرقى في الدم
ورحابنا
بؤس على بؤس يقوم ويرتمي .
عبث الذئاب بارضنا ومضوا بها طعناً وقتلا
ملأوا صدور شبابنا غدراً وتشويهاً وهولا
حرقوا الحقول فكل كوخ فيه بائسة [وثكلى
لم تبق معصرة تغني للحياة على السفوحْ
والكرم اضلاع ممزقة وغربان تنوحْ
أتكحل الطرف الرؤى وبلادنا وطن [الجروح ؟!
هدموا منازلنا وغالوا في الخراب [وفي الدمار
ورشوا ضمير العالم المسكين بالذهب النضار
قالوا له : «إنا بداة في الصحارى والقفار
وهم الذين اتوا الينا بالحضارة والعمار
أفتحلمين وحلمنا خزي وعار !
والعار اكبر إن جبنّا
ويلوح كلّ مطمئنا
لا حقد يلهبنا ويدفعنا لثار
في القدس ذل نال منا
وأقام دولته على اشلائنا
تلك الحقيقة، لا تني اوَ تجفلي

الحكم المستقبل .
أحلامنا لا بوركت احلامنا
إن لم تكن احلام نار
تودي بمن اخنى وجار
هذي الحقيقة يا اخية فاعدلي
أفتحلمين
بالقصر، بالفرو الثمين
بالانفراد
والشعب جلله السواد
وبلادنا وجه حزين
أفتحلمين ؟

*

في الأمس دوى مدفع العيدِ
وتراكض الاولادْ
فرحين كل بالاناشيدِ
يستقبل الاعيادْ
إلا صغير
في وجهه الم غزير
يرنو وفي عينيه مأساة الجنوب
وطفولة حيرى تلوب
لا قبلة نشوى تذوب
فوق الجبين
يا اخت، موطننا كهذا الوجه ممتقع حزين
أفتحلمين ؟!
هذا الصغير
متشرد جهل المصير كأنه كلب حقير
في وجهه عصف الخريف، يدور يعبث [بالقمامه
ويغط فيها باحثاً عن لقمة نخرت عظامه !
في الامس كان له فراش
وحنونة تحنو عليه
واليوم لا أم تحن ولا أب يرنو اليه
الجوع يأكله ويفترش التراب
وعليه من مزقٍ ثياب
من صدر والده رأى في الامس تنتزع [الحراب
وتطايرت اشلاء اخوته الشباب
في ملعب الزغب الصغار
عند الجدار
فانسلّ والام الحزينة في مضلات الشعاب
وعلى الطريق
والرعب والليل العميق
قالت له : والدمع يملأ مقلتيها
ورنت إلى وجه السماء لعلها ترنو اليها
إن متّ ان لنا هناك أقارباً ملء الرحاب
وغداً تصير إلى الشباب
والحق حقك بالضراب !!

*

هذي ضحايانا أتعمى العين عن هذي الضحايا
أشباح بؤس من هناك ومن هنا تسعى عرايا
وعلى الجباه حكاية المأساة بل ذل السبايا
أنغيب في طيات أنفسنا ونحلمها حياه
الذات منبعها وبئس الذات من فأس لئيمه
أكالة شجر الحياة
هي صخرة في دربها
بل خنجر في قلبها
هي منبع الآثام تهدم كل امنية كريمه
ام الجريمة كيف لا نقضي على ام الجريمه
مأساتنا في القدس يأختاه والاسكندرونه
والطائفية اختها هذي المحقّرة اللعينه
ما الدين غير محبة تعطي فيكبرها العطاء
وسماحة في الارض يشرب من مناهلها [الاخاء
والله ليس بحاقد او كاره عفو السماء
خسىء الذين يغلفون الله كذباً وافتراء
ويتاجرون به، أولئك يفزعون من الضياء !

*

وشراهة الاقطاع هذا الغول شرّاب الدماء
منا يقدّ ومن معاولنا السعادة والرخاء
ليلاته الحمراء من دمنا ومن عرق الجبين

في كل مزرعة و كوخ يشهر السوط اللعين
ويرن في الاجواء يلعق من ظهور البائسين
هذي الافاعي المنشبات نيوبها في جسم شعبي
يا هولها فكأنها تمتص من صدري وقلبي
زندي وزندك يا أخيّة كي نمزقها ونودي
هذي اللعينة ما ونت للشعب في هدم وهد !
أفتحلمين
ودماؤنا هدر مشين
وثعالب الاتراك تمرح في الكروم
وتدّعي حق التخوم
أفتحلمين !

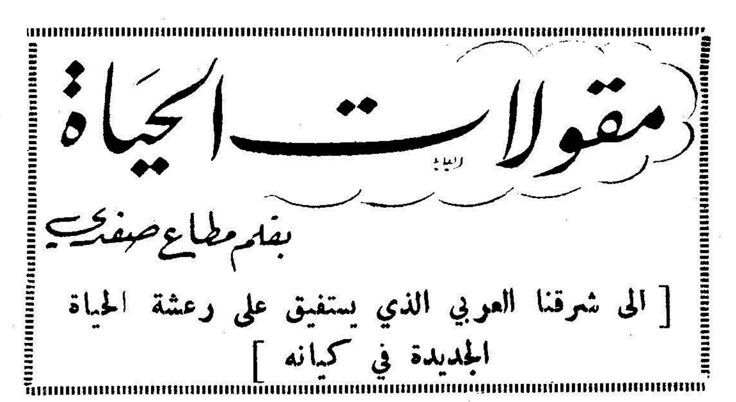
*

وترن اغنية مؤثرة جميله
أغنية الفرّاط فوق [الجوز] والنغم الطليق
ويرفرف الشحرور من عب الخميله
بغنائه الحلو النسيق
ونروح مشواراً نغلغل في الحقول
هل تذكرين ؟
ام كنت يومئذ رُخاء تحلمين .
هل تذكرين مسنّة جلست هناك على شفا [جذع عتيق
كالكهف في هذي الحياة بلا معين او رفيق
مكدودة النظرات كالاشباح في الليل [العميق
بملاءة ممزوقة وبوجه محزون شريد
حفرت به الويلات والايام فهو بلا بريق
تومي بعكاز لطفل غائر العينين ناحل
ليلم مما خلف «الفرّاط» في طرف الطريق
وليحتطب وإذا ونى فليسترح عند الجداول
حين اقتربنا منه راح الى العجوز توثبا
فزعاً كأن به جنون
ضمته للصدر الحنون
غمرته بالقبل السخية ثم قالت : مرحبا
وجرى على الخدين أنبل دمعتين
من خير عين
رغم التغضن ان ذاك الوجه يشرق بالحنان
رغم المصائب والليالي رغم غدرات الزمان
قد قوّست ظهراً ولكن لم تقوّس كبرياء
قد خددت وجها ولكن لم يخددها إباء
ونأيتِ انت مع الصغير تلاطفينه
بالحلويات وبالنقود
أملاً بأن يتكلما
لا تعجبي إن أحجما !
هل تذكرين ؟ بقيت وحدي والعجوز
ورحت أهمس في شرود [
ما اعتدت يا اماه أعباء الهوان
فمضيت تحتطبين والطفل الصغير
خير من استجداء صرخات الضمير
في رأس مغرور حقير !
قالت أنا من دير ياسين الشقي وذا حفيدي
بقرت بطون ذويه يا للغدر حربات اليهود
فانظر كأن بعينه شبح المآسي والشرود
جاؤوا لحقلي المطمئن مع الظلام
فكل شيء مستباح
ورجالنا كانت معاولها السلاح
وبنادق صدأى عتاق
كانوا الى الموت المروّع في سباق
وهكذا كان الكفاح !
يا أفق مزرعتي أتذكر كبنا عند الصباح
وغناءنا عند السقايه
أم انها مُلئت جراح
وقاربت مثلي النهايه
أرضي التي هي قطعة مني
غصبت وشردنا
ونسير من وهن الى وهن
وغد بلا معنى
وبأرضنا تزهو لهم رايه
وعلا لهم مبنى !
أنا لعنة التاريخ والاجيال
ان لم تفق في شعبي الأبطال
فنسير للغايه
ونحرر الوطن الحبيب من الشمال الى [الجنوب
ونعود نعطي الكون منا
زنداً وفكراً مبدعاً
ويصير للانسان معنى !
لا تعجبَنْ ليس الكلام بمدعي
تتعثر الدنيا اذا لم نبتدع نحن الدروب !
ولدي الحبيب كطلعة الفجر
قتلوه بالغدر
بعلي يدافع عنه بالصدر
يا للنذالة مزقوه
ورموه في البئر
وكذا ابوه . »
سكتت ، وأفصح دمعها يجري !
ورجعتِ انت مع الصغير تلاطفينه
بالحلويات وبالنقود
أملاً بان يتكلما
لا تعجبي ان أحجما
ورأيتني استعجل المشوار أرغب أن أعود !
ورأيتني متفكراً متجهما !
لا تعجبي طالت لسان الطفل مجزرة اليهود !

*

أفتحلمين ؟
بالقصر ، بالفرو الثمين
والشعب معصوب الجبين
قومي معي يا اخت ندفع عنه غدرات [الزمان
ونرد اطماع الاعادي
انا اذا شئنا الحياة فكل جلاد يُهان
والامر ما شاءت بلادي
فارادة الانسان فوق ارادة القدر الغبي
هذا يسير بعقله والغيب من وهم وغي
منا التقدم والتقهقر ان أردنا والرقي
تتطلعين الى السماء وأرضنا شيء زري !
يااخت في ظهر البلاد وصدرها جرح طري
ولنحن مأملها وفجر الخير في الليل العتي
أنغيب في اوهامنا ونداؤها حار سخي
أفننزل الاحلام والاعداء تنهب كل شي
ان لم نفق من هذه الاحلام
ان لم تقد في صدرنا النار
نار الحياة كأننا اغنام
ولصيقنا الخزيان والعارُ !
احلامنا لا بوركت احلامنا
ان لم تكن احلام نارْ
تودي بمن اخنى وجارْ !

دمشق **نذير عظمه**



مقولات الحياة

بقلم مطاع صفدي

[الى شرقنا العربي الذي يستفيق على رعشة الحياة الجديدة في كيانه]

ان اللحظة التي التقى فيها الانسان بنفسه هي بداية زمان تحدت فيه الابعاد الواقعية التي انسربت من النقطة التي يقف فيها هذا الكائن الصغير الذي جهز بحواس لا ترمي بادراكه الى أبعد من مكانه إلا بقليل . ولكن خياله يتخطى آفاق هذا المكان . ولكن عقله يريد ايضاً الا يكتفي بحيز جسمه . فما هو هذا الحيز بالنسبة لمطلق المكان ؟. ومن هو إذن في العالم ؟

قبل تلك اللحظة ، شغل الانسان بعقله ، ونسي أنه كائن حي . فهو في كل افق ، وليس في افقه ، في الفراغ المحيط به ، وليس في الملأ الذي يرتكز عليه في تراب ارضه . كان السؤال : من اين انا ؟. ثم اصبح : ما هي الحياة ؟ وأخيراً اضاف الى هذا السؤال مشكلته الحقيقية لأول مرة حينما أضاف ضمير المتكلم فكان السؤال المشروع : ما هي حياتي ، اي كيف اعيش ؟. والسؤال لا يتطلب الفكر بقدر ما يرتكز الى المعاناة العميقة التي توحد بين السؤال وصاحبه ، وتجعل الجواب ينبت في دمه وحرارته ولحمه ، دموياً حاراً ، من خلال التجربة الواقعية . وإذا كانت التجربة فردية في أصلها ، فان معنى فرديتها ينحل الى ثلاث نقاط هي انها تضم كثرات ، ووحدات ، وعدم وجود . هذه الحدود الثلاثة تدخل في صراع داخلي جدلي هو الذي يعطي الانسان في التجربة حدة مشكلته[1] . وبالتالي تجعله هذه الحدة يتأجج بما فيه من قدرة على الحياة .

غير أن هذه الفردية يمكن ان ينظر اليها من خلال العصر . إذ لم تكن التجربة لتأخذ حدودها جيداً إلا من خلال التاريخ . وكما يقول هيغل : إن الحضارة الشرقية القديمة اقامت سلطان ما وراء الطبيعة على الطبيعة وكان الانسان فيها عبداً كله في المجتمع الكل ، يقابل حرية فرد واحد هو الامبراطور ممثل الاله على الارض . وكانت الحضارة اليونانية نقيضاً مباشراً للشرق ، إذ حصرت قيمها في الانسان وحده . وإذا فحصنا الأمر أكثر من خلال المنطق الهيغلي نفسه ، رأينا ان اليونان نفسها لم تكتشف الانسان حقاً . اذ لم تكن تعرف معنى التجربة القائم على هذا الصراع الداخلي . إن اليونان حضارة هادئة تبحث عن الانسجام ، وإذا كانت حضارة إنسان . فهي لم تكن حضارة إنسان يعرف ما هو ، لأنه لم يكن يعرف ما هو نقيضه . فالالهة اليونانية نوع من البشر ؛ وساوكهم بشري مشوه قليلاً . لأنه ينقصه النهاية ، أي الموت الذي يمتاز به الانسان على الآلهة . والميثولوجيا اليونانية تنتهي فيها كل اسطورة بالصراع الى الانسجام . فالصراع فيها مرحلة موقتة جداً . وهو صراع في اكثر منه دموياً . لم يكن يقابل الانسان اليوناني اي طرف آخر . فليس هناك مطلق . إذ ان المطلق محصور ضمن مفهوم المتناهي ، وهو طبيعة العالم المغلقة ضمن كرة حبس فيها اليوناني مع آلهته .

وقد اشار « شللينغ » الى اهمية دراسة الميثولوجيا اليونانية وألمح فيها الى أن طبيعة الآلهة اليونان كانت محايثة واقعية لم تكن تخرج مطلقاً عن حدود عالم الانسان .

وامتازت العصور الحديثة بالكشف عن الانسان الحقيقي ، إذ حددت صراعه بين النقيضين ، الخالق والمخلوق ، المطلق والمحدود . وكان لا بد من ان يعلن هذا الصراع مكشوفاً ، فكان نيتشه ، وهو نفسه كان ضحية تجربته . غير ان حدة هذا الصراع ، كان مصدرها ان الصراع لم يكن يخرج عن ذاتية الانسان ، حتى تضاءل العالم كله في مسرح فرديته . فكان النقيض يتحول شيئاً فشيئاً من معنى الاله الى معنى الشيطان . والشيطان هنا هو كل ما ليس بانساني . وما ليس بانساني اللانهاية ومقولاتها : المجهول والخلود والليل الصامت .

ويحدد « ستيفان زفايج » معنى هذا الشيطان من خلال تجربة ثلاثة ابطال في الصراع ، وهم كليست وهولدرلين ونيتشه ، في كتابه « الصراع مع الشيطان » . فيقول في مقدمة الكتاب « إننا نسمي بالشيطان الاضطراب القديم الملازم لكل إنسان ، الذي يجعله يخرج عن ذاته ويقذف بنفسه في اللانهائي ، في البدىء ، كما لو ان الطبيعة كانت قد تركت في غدر نفوسنا قليلاً من سديميتها (Chaos) القديمة ليس بطاقتنا مدافعته ، فينزع راغباً الى العودة ثانية الى ما هو فوق الانساني والطبيعي . » (ص ٣) .

أراد نيتشه ان يكشف عن الحياة بكشف سوالبها ، فدخل معبد الأصنام ، وهناك أخذ فأساً من حديد ليحطم بها اصناماً من حجر . هذا هو صنم النظام ، يقوم على قاعدة الاستقرار ، ويكسوه ثوب من عنكبوت الماضي . فليفسح الطريق إذن للجريء الذي يخطو فيُبدع نظاماً ، ويخطو ثانية فيحطم نظاماً ، لانه ليس في طريق الجريء الا الصعود ، والصعود لا

« اذا كان لنا نحن الادباء العرب من مذهب أعم من كل مذهب ، فهو مذهب الحياة بكل خصبه وعنفه . واذا كانت حياتنا فقيرة فأدبنا سيغني حياتنا ذاتها ، شرط ان ينبثق عن حاجة الانسان للاخلاص الى وجوده الارضي ضمن اوضاعه الخاصة . »

[1] Obstacle et valeur. R. Le Senne.

يكون الا اذا خضعت كل عالية لما هو أعلى منها . تلك هي شريعة الذرى .

وصنم يُمجِّد الأبدية اذ جفّت منه الحياة فتاق الى الموت الدائم . وصنم يمثل حكومة القطيع التي تخشى الفرد لانها تخشى البطولة . وصنم يمثل التجار وهم نساك بخلوا على الدنيا بحياتهم فحرمتهم الدنيا لذة الالم النبيل . فتاجروا بالجسد في سبيل الروح . وتاجروا بالارض في سبيل الفضاء .

وهذا صنم الكذابين . وهم الذين تصنعوا جلال الحقيقة فعبسوا وطالت لحاهم . وتقذروا قذارة الجيفة المحنطة جيداً . وهذا صنم الاخلاقيين وهم عتيقون لانهم صالحون يفعلون الفضيلة العتيقة . ولم يعرفوا بعد معنى ان يكون الانسان مبدأ اخلاقه ، وان يكون كل عمل جديد شريعة لا يستطيع ان يقلدها احد سواه .

ان الحياة عند نيتشه اثقل من ان يحملها قميء فضولي على ارض البطولات . وارض البطولات هي التي تصطبغ بالدم والنور ، والتي تتغذى بألم المخاض دائماً ، عن كل عظيم يلد عظمته ثم تتخلى عنه هذه العظمة ليلد غيرها . ولهذا قرن معنى الحياة بالبطولة . وليس كل حي إذن حياً الا عندما يصبح بطل مصيره . وما من انسان مثل نيتشه فجّر مصيره من قلبه ، وعمّق قبره بمخالبه مثلما صفع الاجواء بجناحه .

فكانت على يد نيتشه ثورة عنيفة لاجل الحياة ضد السكون والخلود والموت البطيء . وكان على عاتق غيره من المفكرين بعده ان يتحدثوا عن الحياة بصبر اكثر وبحمى اقل تأججاً . فبرزت جميع مقولات الحياة تباعاً في انتاج البطولات الحديثة .

فجاء الفيلسوف الشاعر «جان ماري غويو» يبشر الانسان بانه ينبوع طاقة لا يعمل البذل فيها إلا انماء وإغناء ، ولا يؤثر فيها الفيض الا تعميقاً لها وتفجيراً . واذا كان أبيقور رجلاً شحيحاً بالحياة فلأنه لم يكن حياً . فالعمل ، والعمل غير المعقول ، هو الذي يجعل الانسان اعظم من نفسه دائماً .

لقد رأى غويو في ابيقور (في كتابه عن فلسفته) انساناً يطمح الى اللذة شرط ألا يألم من اجلها . ولكن غويو يريد من الانسان ان تحدد آلامه لذاته . بل ان مثل هذا القياس غير موجود البتة لديه . ان القيمة لا تسبق العمل ولكن العمل هو الذي يخلقها . ولهذا فكل ما يساعد على العمل ، على الابداع في العمل ، على البطولة في العمل ، يكون لذيذاً ومفرحاً . لان لذة الشمس ان تشرق أعظم اشراقها ، ولذة القلب ان يحب اقصى حبه . ولذة الحي ان يحيا اعظم حياة ليموت أعظم موت . فالمغامرة بسعادة الانسان هي شرط السعادة . وتجاوز الاخلاق هو الاخلاق ان مقياس الفضيلة والرذيلة يكون في نجاح الانسان بتحقيق انسانيته . وإنسانيته هي التي تجعله حياً عنيفاً جميلاً يعيش حياة عريضة ، كما عاش غويو عمره القصير العميق . فهل كانت قواعد السلوك اوسع من السلوك ؟ وهل كانت الاخلاق اشمل من الحياة .. كلا ! إن السيل هو الذي يحفر مجراه حسب قوته : فالاخلاق ليست حارس الانسان . والمسؤولية فيها مسألة تتبع قيمة الابداع في السلوك الذي لا يمكن تحديده ، لان قدرة الحياة غير محدودة . والجزاء فكرة تجعل الاخلاقي عبدَ واجب خارجي . فالانسان الحق – كما بين نيتشه – لا يتاجر مع احد بأعماله . إنه ارفع من ان تذله فكرة الخوف من العقاب او الطمع بثواب [1] . وهكذا تصبح الاخلاق في الحياة الاعنف .

وأما الحقيقة فهي في ذرى الشعور . والانسان الشاعر هو الذي يبتكر الحقيقة ، والفيلسوف هو الذي يعطيها قيمتها . وأما العالم فهو شخص سخرته الحياة لخدمتها . فكل مكتشفات العلم عملت على زيادة إغراء الحياة . غير ان الحقيقة المطلوبة ليست هي الحقيقة النافعة ، أي تلك الحقيقة التي يستخدمها العالم لمنفعة حضارة المجتمعات ، بل هي الحقيقة التي تدفع الانسان لان يبذل أقصى حياته في سبيلها . ومن هنا كانت الحقائق كثيرة كثرة الافراد . ولكنها واحدة ضمن نموها المتكثر في الافراد ، لانها كلها تعمل مع الحياة . والحياة واحدة . فهي فرح وابداع ، وفرح بالابداع . وتكاد كل قصيدة في ديوان غويو (أشعار فيلسوف) تقيم رابطة جديدة بين الانسان وجمال الحياة ، حتى لكأن الشعر ليس مهمته فقط التحدث عن مباهج الوجود ، بل انه يسعى لخلق مباهج جديدة فيه ، بقدر ما يكون كل بيت فيه عرقاً نابضاً بالحياة . فكل قصيد حي جديد يولد .

وبلغة الشعر الخالصة كانت الكونتيس دو نواي تحصر معنى الجمال في كل ما يعبر عن الحياة الصادقة المبدعة . وفي الطبيعة ، عند هذه الشاعرة تتحد حياة الانسان

[1] كتاب الاخلاق بلا إلزام ولا جزاء – تعريب سامي الدروبي .

بحياة المياه المتدفقة والاشجار والاعشاب والصحارى الواسعة والبحار المشرقة بالحركة الدائمة . استمع اليها كيف ولدت في الحياة فولدت الطبيعة فيها ومعها :

أفكر احياناً ببدايتي ، لقد بزغ لازورد السماء، ومن قبل كنت أحيا بقلب ناعم ، مبعثرة في الفجر ، أنا كالزمان ، جبلت حياتي ، من مادة العالم ، كنت قبل مصر الفسيحة ، وقبل اليونان ، في الأيام الأولى للموجه، ولدت على الماء في صباح مشرق ، تحت الزبد المشع ، عندما كان العالم بركاناً مليئاً بالحمم ، ولازورداً غضاً يصعد منه الدخان ، وأذكر هذا الصباح عندما أتت ، على شفاهي الندية ، حطت الى الأبد الأنشودة الالهية ، بجناحيها المنتشرين[1] .

ذاك هو الحب المشرب بمجد الالم من اجل اعنف انبثاقة تنتج انساناً من طينة الارض . وقديماً قال احدهم انه يحيا لكي تكون لديه اعظم ذرة .

***

كانت الحياة اذن بحاجة الى من هو مثل نيتشه كي يحطم قيودها ، ويحررها من مفاهيم الجمود والاستقرار والخلود . فهذا هو نبيه زارا يبشر بالانحدار الحي المتفوق ، بآيات فيها عنف المخاض عن هذا الانسان . وقد كانت القسوة والمرارة لهجة هذا النبي. لان السعادة التي يحلم بها إنسان الارض يعارضها نوع من الشوق المجنون الى ان يُخضع الانسان الكون لمعرفته. هناك إذن صراع جبار بين سيد الارض والمجهول في العالم الذي يعارض هذه السيادة ما دام ليس مفهوماً .

وإذ استقر مذهب الحياة في الفكر الانساني وهدأت المعركة قليلاً ، أصبح بامكان هذه الشاعرة ، شاعرة الانوثة الحية ، أن تتغنى بمقولات الجمال الحار ، وكان لها في أنوثتها وأنوثة الطبيعة حولها ينبوع ثر ، لابداع الرشاقة الوجدانية وهي في تناغمها الخفي مع رجولة المجهول .. في زواج جنسي عنيف برموزه في الارض . البركان ، البحر ، البلاد الواسعة الغامضة ، الرياح المزمجرة ، المعابد القديمة المخيفة ...

ديوان هذه الشاعرة سمفونية ريفية طويلة لا نرى فيه احلى من الحب ومن الامتزاج بكل ما هو متدفق بالحياة في الفجر ، والبراري السحراء ، والعاطفة المبهمة الجياشة التي تريد ان تحب أكثر من الحب ، أن تشمل بذاتها كل ما هو واسع رائع يعانق الآفاق .

ولقد اكتشفت الطبيعة اكتشافاً جديداً من وجهة نظر جديدة ، وهي ان روائع الطبيعة لا تشكل فيما بينها انسجاماً ، وبالتالي ليس مقياسها الحديقة الهندسية كما في الفن الكلاسيكي ؛ بل هي في هذه النظرة الهمجية ، وبمقدار ما ترعش بالحركة والجدة والطرفة والحرارة ؛ وذلك من خلال روح هذه الانثى العنيفة الانوثة ، القاسية الحب ، الرائعة الجمال في حيويتها وفي طريقة مبادرتها للحياة الفنية المبدعة .

غير ان الانسان في عرومة هذا الاتجاه انحرف مع الحياة الخارجية في الطبيعة والاشياء والتاريخ. وكان برغسون يحاول ان يجعل من الانسان أرقى وأعنف دفعة من ديمومة الحياة خلال تطوره المبدع. وما زال التيار يعمق حتى جاء من أراد ان يبرز مملكة الانسان من وجهة نظر الحياة. فكانت أنشودة الارض للموسيقار « ماهلر » .

ادرك هذا الموسيقي الفيلسوف ان الاصوات الانسانية اذا ما شاركت في التعبير الى جانب الآلات ، أبرزت العلاقة الرحمانية بين الانسان والارض . وفي هذه السمفونية الكبرى نشوة كبرى جاءت عن الايمان بالارض وما في الارض من لذة وغبطة ، من الم وقلق ، ما في هذه الارض من ليل وذرى جبال غامضة ، ورجل يفتح صدره لرياحها من اي جهة هبت عليه . الارض حيث الشمس المشرقة ، والزهور البرية في التراب . والطفل والمرأة والمشاق الدنيوية كلها .. ما اروعها من مشاق تفجر في القلب عظمة الشوق الى كل موجود له طبيعة القلب في الحركة والدفقان والخفقان الملحن بايقاع اللحم عندما يعيش ويأخذ كل تغييرات الانفعال .

الانفعال والفكر الاقرب الى نور الشمس منه الى ضوء الشموع المتسلسل في الظلام ، والكارثة المبدعة التي تؤزم وجدان الانسان في معاناته لتفاصيل الارض ... كل شيء في الارض متغير ، وكذلك الانسان عليها . وليس ما يحد الجزئيات ، فلكل حياة اذن كنزها ومجالها ان انتبهت الى مركزها من الارض .

لقد كان بيتهوفن اول من ادخل صوت الانسان الى جانب صوت الآلات في سمفونية الحرية . ولكنه لم يستعمل الانسان والآلات هنا إلا من وجهة كلية مجردة أرّخت لصراع الانسان ضد المصير . وأما (ماهلر) فقد أغنى الاوركسترا بآلات جديدة ذات ايحاءات خاصة جزئية جداً ، واستعمل من فن التأليف ما ينسجم مع خصب اللونيات في الارض ليأتي باجمل لوحة عما يحسه ساكن الارض تلقاء الف

[1] Gomtesse M. de Noailles : Les Eblouissements.

لون والف صوت ، والف صورة .. كل شيء غـــير محدود ضمن حدوده . فليس اللانهائي الا في النهائي ذاته ، فــلا حاجة للآفاق الا من خلال العيون التي تراها .

وكان أندريه جيد يقيم أكثر الرابطة بـــين الانسان و (أغذيته الارضية) . ورغم ان الارض وجـــدت لمسرة الانسان وموته ايضاً ، الا انه يجب ان نتعلم التلذذ بهـــا . وليس من خلال الافكار التي تعلمناها . وان جيـد – وهو في كتابه الاغذية الارضية زارا الجديد - يخاطب تلميـــذه (ناتانئيل) وينصحه اول نصيحة بان يسرح في الارض وان يهجر كل معلوماته عنها في رأسه لكي يبادرها عـــلى حقيقتها ويتذوقها غضة طرية مفاجئة . وان الذي يعطي للارض قيمة اولية هو سيدها ، هذا الانسان المجهز بأروع الحواس التي تكشف له اسرار المتع الارضية (ليكن الاهتمام في نظرتك وليس في الاشياء المنظورة) .

والاشياء اللذيذة يجب ان يكون الانسان جزيئاً لكي يحبها . ولهذا فالانسان قبل الاخلاق (افعل دون ان تحكم فيما اذا كان الفعل فاضلاً او شريراً . أحبّ دون ان تقلق اذا كان ذلك خيراً او شراً .)

وعلى هذا فللحياة فنّ ، على الانسان ان يدركه خلال تجربته الارضية وحدها دون النظر الى سواها . تلك هي فرصة العمر ، وفيها يبذل الانسان كل رغباته على ان لا يترك للموت الا الجيفة الجافة من العظم والجلد ، واما اللحم والدم فليستهلكهما الحي قدر الامكان ، مع العلم ان كل رغبة تروى تغني صاحبها اكثر من ان تفقره . (انا لا أتمنى راحة اخرى غـــير هجعة الموت . واخشى ان تكون رغبة ما ، وكل طاقة لم اروهـــا خلال حياتي ، للابقاء عليها ، لم تعذبني . **وآمل** بعد ان عانيت على هذه الارض كل ما كان ينتظر بي ، ورويته ، ان اموت **يائساً** تماماً) عندما لم تعد له رغبة ، على الاطلاق ، يأمل بها .

✡

ويبقى اخيراً أن يتضح امر كان دائماً محقراً متضائلاً ، وهو جســـد الانسان . الجسد الذي هو وجود الانسان المتحقق فعلاً في عالم المكان . ولقد لفت المفكر (مين دوبيران) النظر الى الجسد وحركاته باعتبارها المجال المشخص الوجود . ولكن الفيلسوف الوجودي (غابرييل مارسيل) هو الذي فلسف الجسد وجعله موضوعاً رئيسياً في فلسفته وفي كل فلسفـــة وجودية اخرى حتى تدارسه كل من هيدجر وسارتر وميرلوبونتي . على ان ملاحظات مارسيل هي النقاط الأساسية التي اعتمدها الفلاسفة الاخرون في بحثهم .

يصرح غابرييل مارسيل[1] بأن لكل فيلسوف مبدأ اساسياً يحمل منطقيته بذاته ، ينطلق منه في ابحاثه الفكرية . وهو يجعل من جسده نقطة انطلاق فلسفته . ولا يجد فيه من منطقية ضمنية ، اكثر من تحققه في عالم المكان . وللجســـد شكلان من الوجود[1] : أولاً باعتباره جسداً بالنسبـــة لشعور الآخرين ، وثانياً باعتباره جسدي ، او جسداً بالنسبة لشعوري . ومارسيل يعتقد ان التجسد لا يعني شيئاً آخر غير التحسس . والاحساس ليس مجرد رسالة رمزية (كما يعتقد علم النفس التقليدي) تنقل الموضوعات الحسية الخارجية للادراك على شكل رموز . بل ان الاحساس واسطـــة التعاطف بين الجسد وبين الاشياء الخارجيـــة . فاذا حاولنا ان ننظر الى الجسد ، كما يفعل الاقدمون ، نظرتنا الى آلة مجردة عن الانفعال ، ثم حولنا هذا الجسد ، الى مجرد فكرة خالية من مضمونها الحي ، انبثقت امامنـــا مشكلة علاقة الجسد بالروح . غير ان هذه المشكلة فاسدة ، لأننا نعلم ان كل قيمة الجسد تنبثق عن كونه جسدي أنا ، أي انه يحمـــل كل ذاتيتي ، وبالتالي لا يمكنه أن يكون موضوعاً بالنسبة لي . اذ ان الاشيـــاء الخـــارجية هي التي تكون موضوعـــات له ، أو بالاحرى لي . فاذا كنت انا جسدي (Je suis mon corps) فهذا من حيث انني كائن حي ... ومن حيث أن انتباهي يحمل عليه مبدئياً ، قبل ان انتبه الى اي موضوع خارجي آخر[2] . فجسدي إذن يتمتع بوجود قبلي مطلق : غير انني لا استطيع ان أكون جسدي إلا اذا امتنعت عن اعتباره آلة لموجود آخر غيره (كالروح مثلاً) . وكذلك فان فكري لا يمكن ان يتشارك مع غيره الا بواسطة الرموز . والرموز هي التي يصنعها جسدي ، وهو هذا التركيب الحي (ص ١٨٦) . فهناك علاقة دائمة بين ثلاثة حدود يسبغ عليها طابع الوحدة العميقة . وهو ان الانتباه دائماً هو انتباه الى شيء معـــين (ceci) خارجي . ولا يمكن الانتباه ان يقع إلا اذا كان من قبل انتباهاً للذات . فالذات المنتبهة تصبح جسداً ، والجسد يصبح « شيئاً خارجياً » وكل ذلك ضمن وحدة التعاطف بين الداخل والخارج . فالجسد بذلك لا ينفصل

١ G. Marcel : Du refus à l'invoquation. 1er. chap.

١ G. Marcel : Journal Métaphysique. p. 19.

٢ المصدر نفسه ص ٢٣٦

طوبى .. للجبناء!

« .. أدلى الجنرال (مايك وست) – قائد فرقة الكومنولث البريطاني في كوريا بحديث في التلفزيون – قال فيه: إنه كانت هناك عدة حالات تشتمل على الجبن في كوريا وأنه أجريت بشأنها محاكات عسكرية. واستطرد قائلاً: انه ليس في الأمر ما يدعو إلى الدهشة فقد حوكم جنود كثيرون في الحربين العالميتين بتهمة الجبن !!.. وكان الحكم احياناً هو الاعدام رمياً بالرصاص .. »

. . . .

ولما كبرت أتوا ينتقون خراف الفداء

وساقوا القطيع إلى ساحة غطيت بالجيف

ذراع هناك .. وفخذ هنا ..

وشلو .. وساق .. ورسغ .. ودم

ألوف الجماجم

وقالوا :

« هنا قبلة الصالحين .. هنا المعبد

هنا تستجاب صلاة العبيد ..

وتؤتى الزكاه .. »

وفي ليلة جن عزريلها

وضج الفضاء بقصف الرعود

ودمدمت الريح تذرو الجنود

وثار الدخان

مضوا يقصبون وهم ينشدونَ

نشيد الدمار لرب الدمار ...

سمعت الرفيق بأذن الرفيق يثير السؤال :

« لماذا نموت ..؟

ومن اجل من ??

ومن للعيال ??? »

وجاء الرصاص .. فمات على شفتيه السؤال

وهاجت بخاطري الذكريات

وألقت إليّ مئات الصور

بلون الحداد

بلون الجلود التي سودتها سياط الهمج

ولفح الوهج

بلون السوائم في قريتي

يدقون ارض الشقاء العنيد

يبثون للارض حقد العبيد

بفأس حديد

وقد يعثرون .. وهم يحفرون

بجمجمة في الثرى ساجده

وفي محجريها بقايا دموعْ

وهول .. وجوع

وفي عظمها بصمات النعال

عن النفس بل هو النفس متجسدة كما يقول بعد ذلك جان بول سارتر في كتابه (الوجود والعدم) .

ويلاحظ جان فال (في كتابه « نحو المشخص » ص ٢٣٩) ان كلًا من نظريتي الاحساس والجسد وجهان لظاهرة واحدة (فاذا لم يكن جسدي آلة ، فان الاحساس لا يمكنه ان يكون رسالة) وما هاتان النظريتان إلا مظهران لنظرية واحدة هي نظرية الوجود .

في الموجود إذن تتحقق وحدة النفس والجسد. وتجربة التجسد تقود الى وحدتين – كما يقول مارسيل – وحدة النفس والجسد، من جهة، ووحدة النفس وبقية العالم من جهة اخرى. وليس لنا ان نفهم من تحقق الموجود في الجسد أي نزعة مادية أو روحية ، فهنا المجال وجودي بحت : « انني حينما أقول انني جسدي فهو القول انني اكون هذا الاسلوب (الجسد) من الوجود ويمكن القول ايضاً ان جسدي هو اسلوبي في الوجود في العالم ، او في انتسابي اليه . » وبهذا نكون ، ولا بد ، قد تجاوزنا كل مشكلة فاسدة ، تريد ان تفصل بين الجسد والنفس ، لكي تحاول ثانية ان تجد بينها روابطها المصطنعة ، كما فعل ديكارت مثلاً . فالتجربة التي يحق لنا ان نصفها بأنها تجربة اولية لن تكون أبداً تجربة الكوجيتو المفكر عند ديكارت . إذ ان الفكر لا يتقوم باعتباره مدركاً إلا حينما يعتقد ان المحتوى ، من حيث انه مسلمة ، سابق على فعل الادراك نفسه . ففي لحظة تقوم النفس يكون تقوم الجسد .

***

ان كل هذه الابعاد الواقعية للحياة : الانسان ، العمل ، الارض ، الجسد ، تبقى غير ذات موضوع ان لم نلحظ أبعاداً مشخصة اخرى هي التحديد في الزمان والمكان والبيئة البشرية. وهذا ما يضمه مفهوم الوضع (Situation) عند سارتر . والاوضاع كثيرة كثرة الافراد، وبالتالي فان انعكاس الوضع مختلف المصادر من سياسة وقومية وثقافة وطبقية. فليس أحسن اذن من اسلوب الادب الروائي لكي يعبر عن هذه الاوضاع. و كل وضع يتكشّف عند نقطة هي الفرد وينطلق الى ابعد افق اجتماعي وانساني وميتافيزيكي اخيراً. ولهذا كان عصرنا اليوم عصر الرواية. وكلما عظمت وتلونت تفاصيل الحياة كلما وجدت الرواية طريقها في التعبير . والادب الحق هو الادب الذي يلتزم الحياة بجميع مقولاتها التي ألمحنا اليها في هذه الدراسة الموجزة . واذا كان لنا نحن الادباء العرب من مذهب اعم من كل مذهب ، فهو مذهب الحياة بكل خصبه وعنفه . واذا كانت حياتنا فقيرة فأدبنا سيغني حياتنا ذاتها شرط ان ينبثق عن حاجة الانسان للاخلاص الى وجوده الأرضي ضمن اوضاعه الخاصة . فليس اعظم من الادب عندما يساعد الحياة على الانتشار ، والبطولة في الحياة .

دمشق **مطاع صفدي**

وفي صمتها صرخات المسيح :
« لماذا اموت ؟ »

☆

وإني لاذكر ذاك النهار
وكنت اعد خطى الظل فوق اديم الجدار
وفي لهفة أستحث الغروب .. وطال النهار
وراح يجر خطى مثقله
كخطو الرقيق تشدهم للثرى سلسله
وما كنت قبل اضيق اذا ما تباطا النهار
وكنت أحب لو اني إله يقرر للشمس [الاتغيب
فاني لاخشى الظلام المهول يكفن بالرعب [احلاميه
ويطلق اشباحه العاتيه
وذاك الذي سلخت رجله
سليمان أطلق اعوانه
وفك الطلاسم في كوخنا
فأمضي ألملم أطرافيه
أخاف .. أخاف ..
وإني لأكتم أنفاسيه
بذاك اللحاف ..
وكم ليلة بت لا أغمض
فما كنت قبل أضيق إذا ما تباطا النهار
ولكنني ضقت ذاك النهار بطول النهار
فقد طبخت امنا بعض لحم على غير [ما عودتنا الحياة
وعند الغسق
سيأتي ابي حاملا فأسه
على وجهه بسمة المنتصر
وغار العرق ..
ففي قريتي
يعيشون والموت في معركه
وحين تخضب وجه السماء دماء الشفق
يعود الجنود .. ويأتي ابي .. ويمد العشاء
ونجلس للحم في دائره

أيأتي المساء ؟؟

☆

وأسمع دقاً على بابنا ويجيء القدر
« ابي والرفاق
يساقون قهراً إلى الجزيره
من الدار .. للنار .. للمقبره .. »
وأمي تشق الكساء الجديد
وتلطم بالراحتين الخدود
وطيناً على وجهها تلصق
وتصرخ .. تصرخ .. « واجملاه » !!
واصرخ .. اصرخ .. « وأبتاه » !!
ترى هل يعود ؟
وكيف يعود ؟
وعيد مضى .. ثم عيد .. وعيد
وعيد .. ولكنه لم يعد .. !!!
وجاء النبأ :
« ابي لن يعود .. ككل الرفاق »
وتأتي النساء الى دارنا
عجوز كبومه
تغني لهن بصوت غراب
وهن يصحن وراء النعيق بما لا يقال
تقول عن الموت كيف يجي بهول الخراب
عن « السبع » كيف يلوك التراب
وكيف تلوك السباع الذئاب
عن الذعر كيف يدق الحراب باحداقنا
عن الرعب كيف يحط الرحال على رأسنا
على كوخنا
ويمضي الحداء . . . .
. . . .
رأيت أبي من خلال الغبار
يسير الي يخطو وئيد .. بجلباب دم ..
وامي تشق الكساء الجديد
تريد اعيش
وزوجي تصرخ « واجملاه » !!

تريد اعيش
وابني يصرخ « وأبتاه » !!
يريد اعيش
« لماذا اموت ؟
ومن اجل من ؟؟
ومن للعيال ؟؟؟ »
اريد اعيش
وكل القطيع يريد يعيش
رميت السلاح .. واخفيت رأسي في راحتي
وقلت : كفرت بما تعبدون
فقالوا: «جبان» .. جبان .. انا ؟؟!!

☆

ولموا جموعهم والشهود وحشد الجنود
وساقوا الذبائح المحرقه
اقاموا الصلاة :
بخور ونار
ورقص السعار
وريح القديد .. ودفق الوريد
وانشودة الاله الدمار
وطاف يبارك بهم ربهم
وقال: «عبادي .. ما ترفعون ..»
فقالوا: «جباناً ، احب الحياة والقى السلاح
وقال كفرت بما تعبدون»
فقيل: «مع الفجر يمضي الجناز يزف الجبان
بعار وذل
الى حيث كان يعاف الذهاب
بغار البطل
فسرت .. اجرجر اذياليه
اسند بعضي الى بعضيه
وغطيت وجهي بأسماليه
وهم يبصقون
وهم يصرخون
« جبان ... جبان .. »
جبان انا ؟!

القاهرة **نجيب سرور**

:٩٥

قاهر العفاريت

قصة بقلم أحمد سويد

تململ الشيخ عبدالغفار بضيق ملحوظ، وهم بأن يرجم السماء بعتاب شديد اللهجة ، فلقد طال اليوم جلوسه على المصطبة دون ان «يستفتح» بشيء يسر الخاطر ، ولو اقتصر الجدب على هذا النهار لهانت مصيبته ، ولكن ريع الاسبوع كله لم يكن مرضياً بوجه من الوجوه ، واذا كنت لا تصدق فهذا هو كشف الحساب :

لقد كسب نهار السبت ثلاث ليرات فقط استوفاها ثمن حجاب كتبه لفتى يصاب بداء النقطة ، ويشهد الله أنه اخذ هذه الليرات الثلاث حلالاً زلالاً ، لأنه لم يدع شيئاً من علمه الا وافرغه في هذا الحجاب .

وكانت حصيلة الأحد فرخة بيضاء منقوشة الذيل يشعر بالامتعاض والضيق كلما رأى ديك جارته ام ابراهيم يلاحقها ويغازلها فلا تمتنع عليه ، وقد حملها اليه شاب من المزرعة المجاورة أحب فتاة تكرهه ، وكاد حبه اليائس يؤدي به الى الجنون ، فجاءه يستنجد بعلمه وقدرته العجيبة على جمع القلوب المتنافرة ، فكتب له حجاباً وأوصاه ان يحتال على الفتاة فيسقيها منقوعه فاذا وفق الى ذلك فستذوب في هواه باذن الله .

وكان نهار الاثنين تافه المحصول : ثمنية عدس فقط ، لقد كان يجدر به الا يقبلها لان لعلمه كرامة يجب ان تصان ، ولكن ما العمل ؟ وقد احرجته ام طمان احراجاً شديداً فهي جارة قديمة وقد هرعت اليه تطلب معونته ليحول دون الكارثة فزوجها يغامر بوقار شيبته وينشيء ، والعياذ بالله ، علاقات غرامية مع أرملة مشبوهة السلوك . وكان عليه ألا يردها خائبة ، فخربش لها بغير اكتراث ، كلمتين للكره ، وأوصاها أن تدس قصاصة الورق في قبر مهجور ، ولكن ضميره حاسبه على هذا الضرب من الغش ، فسارع الى إراحة ضميره وقال لام طمان وهو يشيعها الى الباب :

– يا أم طمان ، « يلي بتحطيه بالدست بيطلع بالمغرفة . »

ويظهر ان المسكينة لم تسمع ما قال ، إذ راحت تنط كبنت العشرين وهي تحسب أن الدنيا كلها اصبحت في خدمتها ، وانها وجدت اخيراً الحرمة التي ستخففها ، وترتاح ، في أعين العذال والشامتين .

أما يوم الثلاثاء فقبحه الله من يوم ، جر به فيه الشيطان فانتصر عليه . وكيف لا يهزمه اللعين وقد جاءته حسنة البدوية في الصباح الباكر تلتمس لديه دواء لعقمها ، فهي متزوجة منذ خمس سنوات ، ولكن الله لم يسبغ عليها حتى الان نعمة الامومة .

لم لا يعترف بصراحة أن تقاه المصطنع انهزم أمام هذه المخلوقة الطاغية التي تشتهيها كل جارحة من جوارحه ، ويسحره بشكل خاص ذلك الخال الحلو الذي يتكيء غنوجاً على خدها الوردي ؟

ولم لا يعترف أيضاً أن رائحة الأنثى التي تفح منها مثيرة غاوية ، أخرجته عن وقاره في تلك الاصبوحة ، وانه نال جزاء تطاوله الفظ صفعة « خلخلت » فكه الأسفل ، وتركت في خده الأيسر أثراً لولا أن حنا عليه عليه شعر لحية الكث فاحتضنه وغطاه ، لانكشفت حقيقته وافتضح أمره بين الناس .

وأما عطاء اليوم ، يوم الاربعاء ، فلم يزد عن أوقية زيت ، حلفت له « ام شنديب » أنها هي كل ما في بيتهم ، ورجته أن يتكتم لأن غضب السماء وعصا « ابو شنديب » سينصبان على رأسها اذا شاع أمر السرقة وتسرب الى سمع زوجها الذي هو اشرس من كلب عقور .

وأخذت شيخنا الرأفة فرقى إبنتها الصغيرة وأفهمها أنها مصابة بضربة عين فارغة ، وأمرها أن تعلق في غرة الطفلة خرزة زرقاء لرد الأذى ، ولم ينس أن يفهمها أكثر من عشرين مرة انه إنما يقوم بهذه الخدمة المجانية لوجه الله فقط ، لان اوقية الزيت لا تساوي حرفاً واحداً من تعاويذه الشافية .

***

ونهق حمار الشيخ معلناً ضيقه بالصمت ووطأة الحر ، فرد عليه الشيخ بتثاؤب طويل كسول ، ثم ازاح ساقه المعطوبة قليلاً ، ونقلها الى الظل ، وترحم على الماضي يوم كان سلطانه الروحي واسع النفوذ ، رغم انه ليس شيخاً بالمعنى الصحيح ، فلا يصاب أحد بالجنون أو الحب أو المرض إلا ويحمل اليه ، ولا تسرق دابة او خزانة في المنطقة كلها إلا ويهرع المنكوبون يتوسلونه ليطلق في أعقاب اللص أعوانه من ملوك الجن وعفاريت سيدنا سليمان ، فلا يرتدون اليه إلا وقد جروا السارق من ناحية ، واخذوه من انفه .

وكان يتدلل فلا يقيم « المندل » الا إذا رنت في كفه ذهبيات خمس « ام حصان » ، ومع ذلك فقد كان منزله يغص دائماً بالقاصدين وروائح البخور ، وبالباحثين عن طوالعهم ، ونوايا النجوم نحوهم .

وقد بدأ رزق الشيخ عبد الغفار يشح رويداً رويداً منذ قام في المنطقة بعض الزنادقة يشنون ضده حملة دعاوة ، ويتجنون عليه فيسمون علمه شعوذة ، وينشرون بين الناس الالحاد الذي تعلموه في مدارس كافرة ، والعياذ بالله ، لم تتورع أبداً عن تلقينهم الرطانة الأجنبية .

وتؤذيه بشكل مباشر تلك الجولات الشهرية التي يقوم بها في المنطقة طبيب شاب تعلم في بلاد الأجانب يدعونه الدكتور شكرالله . قيل له إنه يلبس البرنيطة ويحف شاربيه ليبدو كالمذراء ، ويزعم أنه يشفي المرضى بغير اسماء الله الحسنى ، ولا يعترف بالتخريب الذي تنزله العفاريت باجساد العباد ، لأنه لا يؤمن بالعالم الخفي ، بل يتشدق امام الناس بكل وقاحة أن أسباب الامراض ليست الا جراثيم صغيرة لا يمكن ان ترى بالعين المجردة ، استطاع العلم ان يكتشفها وأن يهتدي الى طريقة ابادتها بالعلاجات الحديثة .

ويرتعد الشيخ عبد الغفار كلما ذكر تخريفات الدكتور شكر الله التي يتناقلها الناس مشككين ، ويشعر بشهية هائلة لتحطيم جمجمة هذا الشيطان المضلل ، أو خنقه اذا قدر له أن يراه .

« ولكن ما النفع ؟ فلسوف يظل هناك عشرات الملحدين يبثون سمومهم ويتفلسفون فينعتون بالشعوذة كرامات الصالحين . اللهم عفوك . لقد ظهر الفساد في الارض . وهذه إحدى الامارات التي لا تخطيء بان هذا العالم الجاحد قد شارف نهايته . »

لاك الشيخ عبد الغفار هذه الكلمات وهو يحاول النهوض من مربضه ويلاحظ ان الظل قد انحرف قليلاً عن معلف الحمار . ومعنى ذلك أن ميعاد القيلولة قد حل ، وعليه ان يرتاح ساعة او ساعتين ، ورزقه على الله الذي لا ينسى احداً من مخلوقاته . ولكنه كان ما زال يجالد نصف قنطار من اللحم المترهل ، ويستعين على الوقوف بعكازه الثمين المصنوع من خشب « الزعرور » ذي العقد الضخمة ، حين أقبلت « الرزقة » تمشي على اثنين ، ووقفت امامه بتهيب ، وقالت بلسان جمّال الضيعة ابو حسن الهرموش :

– يا سيدي . آل الدمروشي يرجونك ان تأتيهم على عجل لأن ابنهم

سلمان مريض ، وحالته لا تبعث على الارتياح .

وهرش الشيخ لحيته النامية، ومسح بكمه الواسع العرق المتصبب من جبينه العريض ، وبعد ان اعلن تخوفه من السير في هذه الشمس المحرقة ، صارح الرسول بأنه سيقوم بهذه التضحية في سبيل آل الدمروشي ، ولكن هــل سيقدر آل الدمروشي هذه التضحية يا ترى ؟

ولمعت عيناه ببريق خاص فهم الهرموش منه ان عليه ان ينقل هذا التساؤل الى المراجع المعينة، وان يفهم الجماعة بضرورة إكرام الشيخ اكراماً يكافىء تضحيته، ولم يجد مفراً من تطمين الشيخ بأنه سيقوم بما يمليه عليه واجب الاحترام والتقدير لعلمه وكراماته ، ولكنه يتمنى ان يتكرم عليه مولانا، كبركة منه، بحجاب قوي المفعول، يطرد عنه الاحلام الخبيثة، ويرد عن جله شر العيون.

***

القى الشيخ عبد الغفار نظرة عجلى على المريض الذي كان ينتفض ويهذي من شدة الحمى ، ثم انتحى بالأم الهلوع ناحية وهمس في أذنها :

– يا ام سلمان ... إنه مسكون . وقد يقضي قبل الصباح إذا لم يغادره العفريت الذي يتلبسه ، ويعذبه كل هذا العذاب .

فتهالكت الأم على قدمي الشيخ منتحبة :

– خذ كل ما أملك يا سيدي. خذ حياتي ، خذ نور عيني وأنقذ ولدي.

وسمع زوجها الضرير توسلها فأقبل على الشيخ يتلمس يديه ليقبلهما ويغسلهما بدموع عينيه المنطفئتين :

– انقذه يا ولي الله انقذه.

ولم يتلكأ «ولي الله» فهيأ مباخره، وهز مزهره ، واخذ يتمتم بأوراده وتعاويذه ، ويتثاءب ، ولكنه ما كاد يسمع صياح ديك مذعور ، كان ابو حسن الهرموش يطارده وراء البيت، حتى ادرك ان الجمال الطيب القلب أبلغ الرسالة ، وان الغداء سيكون شهياً يسر الخاطر ، فرفع عقيرته وراح يستدعي ملوك الجن بصوت مرتفع متهدج ويسميهم بأسمائهم :

– يا شمروخ ، يا عمروش ، يا جرنفش يا طنفوش وسائر ملوك الجان ، استحلفكم بجاه الرحمن ، وباسم سيدنا سليمان أن تخرجوا هذا العفريت الشرير من جسد سلمان ابن وردة . اخرجوه والى الجحيم جروه .

وكرر الشيخ هذه الاستغاثة عشرات المرات، ولكن ملوك الجن الاحمر لم يستجيبوا -- على ما يظهر -- بالسرعة المطلوبة، فانتصب الشيخ منفعلا، وراح يدور في الغرفة الضيقة ، ويدق مزهره ذا الخشاخيش بعصبية حانقة، ويرمق بطرف عينيه المريض الذي يتلوى في الزاوية، والام وبعض جاراتها اللاتي تحلقن حوله يبكين بصمت .

واخيراً، أطاع ملوك الجن اوامر الشيخ فأقبلوا يعرضون خدماتهم وأشرقت اسارير الشيخ عبد الغفار وهو يلقي عليهم التحية، ويصدر امراً مستعجلا بالاكثار من حرق البخور تكريماً لهم . ثم ما لبث أن أعقب امره المستعجل بسلسلة قصيرة من الاوامر المقتضبة، تقضي بأن تقفل النوافذ بأحكام، رغم الحر الشديد الخانق، وان تدنى المباخر من المريض، وأن يخرج الجميع من الغرفة بلا ابطاء.

ونفذت الاوامر بسرعة ، وخرج « ولي الله » وهو يمسح عرقه لاهثاً ، ويعلن حالة الطوارىء ، ويفرض الصمت على الحضور لمدة ساعة واحدة ، فابناء العالم الخفي معشر نفور – حسب تعبيره – يجفلون إذا سمعوا صوت انسي او نأمة آدمي ، ومن الضروري ان يتاح لهم الجو الذي يمكنهم فيه ان يؤدوا مهمتهم كاملة .

وهش الشيخ للديك المحمر الذي فوجيء به ينتظره في فناء الدار، فوق بيدر شهي من الرز المصفر ، تحف به آنية اللبن الرائب وتصطف حوله اطباق العسل الاشقر ، فتوجه نحوه، وهو يطمئن اهل المريض بلهجة الواثق :

– ارتاحوا ولا تجزعوا.. سيخرج العفريت من جسده صاغراً، وسيشفى حالاً بأذن الله .

***

كان كل ما حشد على المائدة قد «طار» باذن الله، حين جهر الشيخ عبد الغفار بالحمد لمقسم الارزاق ، واعلن اكتفاءه وشبعه، وسروره ايضاً، لان سلمان قد ارتاح إذ لم يعد يسمع له منذ نصف ساعة انة او حركة . ثم التفت الى أم سلمان وقال لها ، وهو يغالب التجشؤ ويشد على كرشه الذي يكاد ينفلق:

– باستطاعتك الآن ان تتحققي من ان المحروس قد ارتاح، وان العفريت الملعون الذي سكنه ، قد طرد شر طردة .

فاندفع الجميع الى غرفة المريض ليشاهدوا المعجزة ، وانحنت امه فوقه تهزه بلهفة وتناديه بحنان :

– سلمان حبيبي ، سلمان ولدي .

ولكن سلمان كان كالخشبة الباردة لا حياة فيه ولا رمق .

... وطغى صوت الشيخ على النحيب والعويل يعظ :

– اذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون . لقد خنقــه العفريت اللعين قبل ان يخرج منه فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

وكانت نظراته تصفع « ابو حسن الهرموش » بغلظة ، وتطالبه بالحاح ان يفهم « الجماعة » ليقدروا تضحيته ، ويقدموه بدل أتعابه ، فهو مستعجل وعليه ان يعود الى منزله قبل غياب الشمس ، فقد يكون هناك زبائن آخرون ينتظرون .

أحمد سويد

برقة العربية

بقلم الدكتور فوزي هنانو

على صعيد بللت ثراه دماء الشهداء من اصحاب عمر المختار ، وفي منبسط من الارض مطل على خليج درنة ، لؤلؤة البحر المتوسط ، وامام قصر الحاكم ، وقف الماريشال بالبو وزير المستعمرات الايطالي قبيل الحرب العالمية الثانية ، تحف به حاشيته ،وعلى مسافة مائتي ياردة اصطف فريق من عربان المنطقة وسكانها يتقدمهم كبيرهم حاملاً بيده عريضة موقعة من مئات الفلاحين الملاكين الذين انتزعت اراضيهم منهم واعطيت الى المستعمرين الايطاليين ، وتقدم مندوبهم فسلم العريضة للحاكم ورفعها هذا بدوره الى الوزير. القى الوزير نظرة عجلى على محتوياتها والتفت الى الحاكم قائلاً : « وماذا يريد هؤلاء ؟ » فاجاب الحاكم قائلاً : « انهم من الفلاحين الذين يزعمون ان اراضيهم اغتصبت منهم واعطيت الى الايطاليين وهم يلتمسون انصافهم برد ما زعموا انه حقهم السليب. » فداعب الماريشال لحيته لحظة ثم التفت وقال مشيراً بيده الواحدة الى المرابع الخضر والى الاراضي الزراعية الممتدة امامه«ان هذه الاراضي هي ملك للأيطاليين يزرعونها ويستثمرونها وينتفعون بخيراتهم وينفعون الوطن الام » « واما هؤلاء » ، واشار بيده الى الفلاحين والاهلين ، « فيزرعون هذا » واشار الى البحر .

هذه قصة رواها لي احد ضباط برقة القدماء الذي كان يحارب مع الفرقة الليبية في معركة العلمين واردف يقول لي: وانت ترى يا سيدي اننا لم نزرع البحر ،ولكننا استرجعنا اراضينا واملاكنا بعد ان انكسرت جيوش المحور وانتصرت جيوش الحلفاء في تلك المعركة الشهيرة التي ابلى خلالها الليبيون والبرقاويون خصوصاً البلاء الحسن فضربوا الجيش الايطالي ومن معه ضربة حاسمة ارتدوا على اثرها خائبين واضاعوا المعركة والحرب برمتها ، وها قد حصلت ليبيا على استقلالها بقرار من الامم المتحدة وغدونا بنعمة الله متمتعين بالحرية ناعمين في ديارنا عاملين على اعلاء شأن دولتنا الفتية وانهاضها لتصبح قادرة على ادارة شئونها دون ما اهمال او تقصير . وقد اثار حديث القائد البرقاوي اهتمامي لدرجة عولت معها ان انتهز اول فرصة ملائمة تسنح لزيارة ولاية برقة والتجول في انحائها ودراسة معالمها وتاريخها وآثارها والاطلاع على ماحدثته الحرب العالمية الاخيرة بها من تخريب ، وما تركته من انطباعات نفسانية لها بلا شك تأثيرها في تحويل مجرى الحياة الاجتماعية والسياسية. ولما كنت في طريقي الى ليبيا كمبعوث ثقافي ادركت بأن الفرصة لن تفوتني لانفاذ هذه الفكرة وعكفت على تدوين ما سمعت في مفكرتي، وعملت مخططاً صغيراً للبلاد الليبية زودته باشارات خاصة للأماكن والمحال الهامة التاريخية والاثرية استهدي به حين اللزوم .

***

تاريخ برقة من الموضوعات التي شملها الغموض والاهمال بين جمهور المؤرخين والباحثين ، بالرغم من ان المصادر التاريخية المختلفة تشير بوضوح الى ما كان لهذا الاقليم من مجد تالد ومدنية عريقة في العصور الغابرة. ويرجع اقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث في حوض البحر الابيض المتوسط الى القرن السابع قبل الميلاد ، حين نزل جماعة من الاغريق من سكان جزيرة « ثيرا » من بحرايجه على سواحل برقة ، واستوطنوا بها ،واسسوا في سنة ٦٤٠ ق . م . مدينة قورينا (الشحات)، وهي اول المدن الخمس التي اشتهرت فيما بعد باسم « بنطابوليس » . بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الاغريقي الشرقي القديم في الوقت الذي يلاحظ فيه ان طرابلس تذهب الى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنه .

وبعدئذ تتوالى الاحداث والغزوات التي تعزز هذا الاتجاه الشرقي في برقة منذ بداءة تاريخها . فغزوة قمبيز لمصر سنة ٥٢٥ ق . م . يتلوها خضوع برقة لسلطانه ، وما حدث في عهد قمبيز يتكرر بشكل اقوى واوضح عند غزوة الاسكندر المقدوني لمصر سنة ٣٣١ ق . م . ، وتظل برقة في ايدي البطالسة الى ان تنتقل هي ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق . م . والحكم الروماني في برقة فاتر في مجمله ، لا يصحبه ذلك النشاط التجاري الزراعي الذي كانت البلاد تمتاز به في العصر السابق. واهم حادث في القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التي اندلع لهيبها في طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين الف يهودي مسلحين يقيمون في برقة ، انتهزوا فرصة غياب الامبراطور تراجان وانشغاله في حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الاهالي الآمنين ، واخذوا في تخريب المدن الاغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً متوالياً لمدة عامين كاملين ، حتى قيل ان برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكانتها من العالم القديم في القرون السابقة ، وفي سنة ٢٩٧ م . عندما قسم «قلديانوس» الامبراطورية الرومانية الى قسميها الشرقي والغربي ذهبت برقة ومعها مصر الى القسم الشرقي البيزنطي ، وبقيت في حكم اباطرة القسطنطينية ، الى ان دخلتها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص في سنة ٦٤٢ م . ولكن الفتح العربي لم يغير كثيراً من عادات الناس وعقائدهم وطرق معاشهم في برقة الى نهاية القرن العاشر الميلادي ، غير ان قبائل البدو المعروفة باسم بني هلال وبني سليم تهاجر من الجزيرة الى مصر فبرقة في القرن الحادي عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه اعظم حادث في تاريخ برقة الوسيط ؛ لان تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هنالك ، وتستأصل العناصر الغريبة عنها من اغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الاصليين من البربر الرحالة وتمتصهم في صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة ، وهو العنصر الذي ظل سائداً في برقة حتى اليوم بالرغم من استيلاء الاتراك عليها عام ١٥١٧ م ، وقيام اسرة القرمنلي التركية التي استقلت بها في سنة ١٧١١. وفي سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثاني لسلطنته . وفي سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان الى حكم الايطاليين . الا ان الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد في مستعمرتهم الافريقية ، ولا يتم استيلاء الايطاليين الفعلي على طرابلس وبرقة الا سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد مع اهل تلك البلاد ،ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الايطاليين من افريقية ، وتغير مجرى تاريخ برقة الى هدف لا يعرفه اليوم الا الله .

من الامور التي تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلاً يكاد يكون تاماً ! واغلب الظن ان هذا الجهل يرجع الى عاملين : الاول وقوف الايطاليين ايام استعمارهم في وجه الاجانب وردهم عن زيارة ذلك القطر . والثاني اعراض الناس انفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بان برقة

ليست الا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذي يرغب في زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القاريء عندما نؤكد له بان نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التي تأخذ بمجامع القلوب والالباب ، ورقة الهواء وصفاءه ، تتجلى في ربوع برقة ، حتى ان المرتحل ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووهادها الى اجمل ما في اوروبا الجنوبية من مرتفعات واودية وسواحل تبهر الانظار . وليس من المبالغة في شيء ما قاله بعض الكتاب الاوروبيين بان طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط ايطاليا وهوائها ، على حين يصرح بعض علماء طبقات الارض بان الجبل الاخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم انما هو امتداد لجبال اوربا الجنوبية وايطاليا على وجه اخص .

ويضاف الى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ، فقد اعتاد الناس على التفكير بان ربوع برقة خالية من شواهد عزها القديم ورخائها التجاري العظيم في العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الامر ان آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الايطاليون فاوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التي اخذت في التنقيب وترميم الابنية الاثرية المتداعية الى آخر عهدهم بها . ومع انهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فما زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة في المستقبل ، اذ لا تزال في برقة مناطق اثرية واسعة لم تمسها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شيء فان برقة اصبحت الآن عامرة بالعاديات التي تستحق العناية والزيارة والبحث العلمي والتنقيب الاثري .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، الا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هي في نظرهم جزء من الصحراء الغربية . وما هذا الا نوع من الشطط الذي كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التي ربطت حتف برقة بطرابلس ايام الحكم الايطالي . ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ، كما ان تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ، فهم انقى عنصراً في عروبتهم من اعراب طرابلس ، واشد تمسكاً ببداوتهم من غيرهم ، ولكنهم اقرب اللهجات الى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتي التي كانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحى وقعة العلمين بالصحراء الغربية التي تمتد آثارها من العامرية الى مرسى مطروح وما وراءها ، ففي كل مكان يشاهد الانسان مناطق الاسلاك الشائكة التي تحد الجهات التي كانت عامرة بالالغام ، وطوابير الدبابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة في الصخر وغير تلك من المشاهد العديدة .

وشوارع طبرق تكاد تكون شبه خاوية ، وبيوتها في جملتها مهدمة الا ما قام باصلاحه رجال الادارة والحكومة لاقامتهم ونفر من السكان الذين ظهر عليهم الجد والرغبة باعادة الحال الطبيعية لما كانت عليه . وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما واد غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالاً الى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ولا يرى فيه الانسان غير المراكب التي كان لا يزال بعضها غارقاً من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف العظيم الذي عبّده الايطاليون من طبرق الى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو الفي كيلومتر . امّا الهضبة الشرقية التي بها محطة طبرق فهي منطقة الحرام التي كان يشغلها الجنود ويعمّها عتاد الحرب . وتقع المدينة او بالأحرى ما بقي منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى اجزاء تافهة من الحائط الروماني ومخزن المياه البيزنطي وهو كبير وعميق في شكل مستطيل منقور في الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحاريق .

واتجهت بعد ذلك صوب مدينة درنة على بعد مائتي كيلو متر من طبرق ، وفي هذه المرحلة من الطريق تكثر آثار موقعة أفريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طوابير مصفحة عاطلة ، الى هياكل طائرات محترقة ، وعربات مقلوبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من ادوات القتال ، ولا تنس مقابر القتلى التي يراها الرائي بين آونة واخرى . واول هذه المقابر واوسعها مقبرة العلمين ، وهي تظهر للمسافر على المرتفعات الشمالية في شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، اولها لقتلى الانجليز ، والثانية للالمان ، والثالثة للايطاليين يرفرف عليها جميعاً في اعلى النقط علم ابيض كبير .

واهم ما لفت نظري في هذا القسم الاوّل من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذي عبّده موسوليني في عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئياً للنشاط الاقتصادي والزراعي في برقة ، فأسّس المزارع الى جانبه ، وابتنى الاستراحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلومتراً ولكنها اصبحت خاوية على عروشها ، اذ انتزع الاعراب الرحل ابوابها ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من اثاث . وبعد مسيرة اربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق

الرئيسية شمالا باتجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية اذا بنا نطل على منظر من ابدع ما رأته العين . يهبط الجبل فجأة الى سهل شديد الخضرة ، ينتهي بخليج شديد الزرقة ، قامت عليه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شُغف الطليان بدرنة في ايامهم ، ووصفوها لجمالها بانها جوهرة البحر الابيض ، وزارها موسوليني في زمانه وآثار الترحيب به شاخصة في اعلى الجبل حيث نقشت في حروف جبارة العبارة VIVA IL DUCE « ليحي الزعيم » . ليس في درنة مخلفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة في منازلها ، وكثرة حدائقها ، ونظافة شوارعها وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الايطاليين في الماضي .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها ، وتتكون من عدة شوارع ضيقة متراصة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامة الاسواق الشرقية في اغلب مدن افريقية الشمالية . وتعد دار الحاكم فيها آية في فن المعمار ، وربما كانت المبالغة في تجميلها راجعة الى اعدادها لاستقبال موسوليني . وقد عملت الحكومة المركزية في برقة على توفير اسباب العلم والثقافة فيها ، وساعدتها المؤسسات الثقافية العالمية والدولية فأرسلت اليها بعثة فنية اشرفت على توسيع مدرستها وتجهيزها بما يلزم من وسائل تربوية كما اسست مدرسة للبنين واخرى للبنات واستقدمت المعلمين والمعلمات للتدريس فيها . وتركنا درنة متجهين نحو قورينا او سيرين او الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم وهي تقع على مسافة تبلغ ثمانين كيلومتراً غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسي ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلومترات حيث توجد ميناؤها ابولونا التي تدعى الآن مرسى سوسه .

وقورينا عاصمة برقة القديمة في العصور اليونانية الرومانية ، كما انها اهم مركز للماديات في تلك البلاد ، وقد تعدل اعظم المدن والعواصم الاثرية مثل الاقصر واثينا وروما الى حد بعيد ، غير ان نصيبها كان ادهى واشد ، نظراً لما انزله اليهود بها في ثورتهم الكاسحة سنة ١١٥ - ١١٧ م . حين ذبحوا سكانها وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الامبراطور هادريان ان يعيد لها مكانتها الأولى ، فبادر ببنائها من جديد ، ولكن جهوده لم تثمر كثيراً ، اذ ان قورينا التي كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة الاغريقية تأخذ بالرغم من ذلك في التدهور السريع ، ويهجرها من بقي من سكانها القلائل ، حتى انك لتجدها وقد اضحت خراباً بلقعاً في غضون القرن السادس الميلادي . من بين الاسماء الخالدة التي انجبتها قورينا في عالم الفلسفة والادب والعلوم الاغريقية ، نذكر على وجه التمثيل اريستيب (٤٣٥ - ٣٦٠ ق.م) Aristippes تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلياق (٣١٠ - ٢٣٥ ق.م) Callimachus ، الشاعر اليوناني وايراتوستين (٢٧٦ - ١٩٥ ق.م) Eratostbenes اول جغرافي قاس محيط الكرة الارضية ، وكارنياد (٢١٣-٦٢٩ ق.م) Carneades مؤسس الاكاديمية الجديدة في اثينا ، والاسقف المسيحي سينيزيوس (٣٨٥ - ٤١٦ م) ، Synesius آخر فلاسفة الافلاطونية الحديثة .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما واد ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التي قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا الى مجموعات ثلاث ، الاولى منها على قلة الجبل الغربي حيث الاكروبول ، واهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق.م) والسوق الكبيرة (الفوروم) التي تضارع في اتساعها ودقة بنيانها اسواق روما القديمة ، ومعبد جوبيتر ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرون) ، وعدد من القصور التي كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم من مؤسسات العهد الميلادي الاول ، ويمتاز الى جانب دقة الفن والمعمار بامثلة نادرة من الفسيفساء التي ازدانت بها ارض حجراته ، فهذه حجرة تتوسطها رأس ميدوسه وتلك اخرى صُورت في اركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الاربعة ، كلها ناطقة في ثوبها القشيب من الالوان الزاهية .

ان جانوس هذا كان كبير كهنة الاله ابوللو ، ويزعم بعضهم انه كان من اثرياء تجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية في قصره ، ويظهر انه عاش في القرن الاول واوائل القرن الثاني الميلادي .

اما المجموعة الثانية فهي على الجبل الشرقي ، وتشمل المعبد العظيم للآله زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحي . غير ان هذا الجانب من المدينة قد عفت اكثر رسومه ، ولم يبذل الاثريون والحفارون للآن جهداً مذكوراً للكشف عن معالمه الدارسة .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادي حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الاغريق معبداً للآله ابوللو على مقربة من مغارة سميت باسم الأله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع اقطار العالم القديم . والى جانب معبد ابوللو يوجد معبد ارتميس وهو صغير . وفي ناحيته الجنوبية حوض السباحة والحمامات العامة ، وفي احد ابهائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للاسكندر المقدوني وهو نادر ، ورأس دقيق الصنع للآله زيوس . وفي الجهة الشمالية وراء المعبد عدة ابنية ، اهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الروماني وهي صغيرة بعض الشيء ولكنها من احسن



تلك كانت ليلة من ليالي تشرين ، وقد هادنت فيها سماء الصيف غيوم الشتاء ، فتغامزت النجوم وتراقصت النسائم ، وغمرت نعومة الليل ارجاء الأثير .

كنت اسير في شوارع مدينة لا اعرفها بسوى انها من معاقل القرن العشرين . مدينة صاخبة رعناء . كلما حاول الليل اغماض اجفانها بأنامله السحريّة ، رفعته بآلاف العيون والمصابيح ، وكلما لفلف اذنيها بسكونه الرقيق زجرته بآلاف الحناجر والأبواق وأصمّت اذنيه بأصوات المعامل والمطارق والدواليب .

كنت اشق طريقي بين آلاف المخلوقات من بني جنسي ممن ضاقت بهم رحابة الارض فأتوا يوسمونها على ارصفة الشوارع . لقد كانت حركاتهم تتراقص امام عيني ، واصواتهم تتزاحم في اذنيّ وانفاسهم تحيطني من كل صوب وتتغلغل في صدري واحشائي الا انني ما كنت لأصغي او ارقب او أتنشّق لان المهمة الغامضة التي كنت اسير وراءها آنذاك ، والتي انتدبتني لها الليلة الفائتة لم تترك لي متسعاً لذلك . فساعتي كانت تشير الى السادسة وتهمّ ان تجتاز نصف الساعة الذي كان يفصل عقربها عن موعدي باسرع ما تستطيع . كان ذلك الموعد يشغل كياني باسره ويطرح علي اسئلة ما كنت استطيع الاجابة حتى على ايسرها ؛ ماذا سيكون شأني مع زاروبة الوطواط يا ترى ؟ وما هي تخشيبة رقم ١٦ في تلك الزاروبة ؟ ومن هو ذلك المجهول الذي يريد مقابلتي في الطابق السفلي تحت ارض تلك التخشيبة ؟.

اسئلة غريبة كانت تجوب مخيلتي فتنتهرها ملامحي بتجاعيد عميقة بين حاجبي وتجيبها قدماي بخطوات سريعة متلاحقة .

الامثلة في هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التي تمثل مدينة الاحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاثة كيلومترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحي ، تقع مدينة الاموات التي تفوق جميع مثيلاتها في العالم اليوناني الروماني القديم من حيث الكم والكيف على السواء . والناظر من الهضبة الغربية الى سطح الجبل الشرقي يرى المئات بل الالوف من المقابر المنقورة في الصخر طبقات فوق طبقات من اعلى الجبل الى اسفل السهل ، اكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير ان محتويات تلك القبور نهبت الا التوابيت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير . ومن الظواهر الغريبة ان عرب تلك المنطقة وضعوا أيديهم على اغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومراحاً لقطعانهم في الليل .

وابولونيا او مرسى سوسه ، وهي كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات الى الشمال الشرقي منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحي البيزنطي ، احداهما ترجع الى القرن الخامس الميلادي ، واغلب الظن ان عمدها الكثيرة قد أخذت من بناء او معهد وثني اقدم عهداً ، وفيها امثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . اما الثانية فقد بناها الامبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء باعمدتها الرخامية من محجره الشهير في برو كونوسوس على شاطيء الدردنيل ، وحالتها اقل جودة من حالة الكنيسة الاولى لطغيان البحر عليها . اما المدينة الحديثة فهي اكبر بكثير من الشحات ، تأنق الطليان في تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالاشجار الباسقة والنوافير الجميلة التي تتفجر منها المياه الجارية ، ولا ادري لماذا نزع الطليان الى طلاء منازلها باللون الاحمر الوردي على خلاف عادتهم في طلاء مساكنهم في بقية المدن باقليم برقة باللون الابيض الناصع .

اذا ذكرتُ قورينا او الشحات فلا اذكر معها آثارها فحسب ، وانما اذكر رحلتي اليها من درنة وزيارتي رأس الهلال ومنزل « بالبو » الصيفي في الطريق ، واذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر في زيارة قرية البيضاء .

اما رأس الهلال فالطريق المؤدية اليها تتفرع من الطريق الرئيسية شمالاً عند مكان يدعى لمودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات اسسها الجنرال بالبو ايام صولته خصيصاً للوصول الى البقعة التي انتقاها لتكون مقره الصيفي . ولا نبالغ اذا قلنا ان المنطقة التي يخترقها المسافر في طريقه الى رأس الهلال لا تقل في جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوروبا ، حتى ان المتأمل في جبالها واوديتها ليسبح به الخيال الى جبال الغابة السوداء او جبال ويلز او منطقة البحيرات الايطالية او ساحل الريفييرا ، اما منزل بالبو — وهو اليوم

(البقية في الصفحة ٧٦)

وما طال بي الوقت حتى رأيتني أدخل الزاوية ، أشق طريقي في منعرجاتها فتلفّ وجهي أسراب البعوض والصراصير وتزدحم في انفي روائح النتن المتصاعدة من كل زاوية ، وتداعب شعري عشرات الخرق المنشورة على الاعمدة والأمراس ، وتساير قدماي نفايا مدينة أبت ان تستودع أسرار امعائها غير سكان الزواريب من ابنائها الكادحين .

وبينما كنت اسأل نفسي عن ذلك الجاذب الخفي الذي كان يشدّني بتلك القوة الى مكان كل شيء فيّ يدفعني الى تركه كانت عيناي تتنقلان من تخشيبة الى تخشيبة ومن سقفية الى سقفية علني احظى على اخشابها المتهرّئة المخلعة بشيء يشبه رقم ١٦ . واخيراً وجدتني انحرف الى ناحية من نواحي الزاروبة ، وأهبط بضع درجات متعرجة وانتصب في وسط قبو عار مهجور قد تبعثرت في ارضه اكياس القنب واندثرت في زواياه قطع من الامراس القذرة والأخشاب المفككة ، وانحدرت من سقفه خيوط العنكبوت فابى الدخان المتراكم الا ان يصبغها بلون السقوف والجدران .

لم اكن اعرف ماذا كان ينتظرني في ذلك القبو الغريب المظلم ، وما كنت اتوقع قط ان ينبعث من تحت اكوام الخيش والقنب في أرضه صوت بشريّ يدعوني باسمي فتستأنس أذناي بنبراته .

– سامحني .. سامحني يا استاذ ، لقد اسأت ظني بالناس هذه الليلة فما حسبتك تهتم لرسالتي فتزعج نفسك بالحضور الي .

وانعمت النظر في وجه مخاطبي وتشبثت اذناي بتهدجات صوته فعرفت فيه ابا محمود بائع الكشة القديم الذي كان لا ينقطع عن الدوران في حينا ، والذي كثيراً ما كانت نبرات صوته « شو كولا علكه دروبس .. شو كولا علكه دروبس » تتخلل نوافذ مكتبي فتفسد علي ما كنت اقرأ او اتأمل . وقبل ان استجمع افكاري المشتتة فاسأله عن حاله وعن سر انقطاعه عن حينا في المدة الأخيرة ، ظل مستطرداً في كلامه قائلاً :

– لا .. لا اريد أن اعتذر اليك يا استاذ ، فذلك لم يعد من شأني الآن . ان كانت هناك ضرورة للاعتذار فليعتذر الموت ولتستغفر عيني الشيخوخة ، فابو محمود هذه الليلة يصفي حسابه مع الايام ان كان مع الايام حساب . وانت ان كنت قد اسأت مني فانا سأهرب من استيائك بعد حين . وعلى كل حال سامحني يا استاذ ..ارجوك سامحني .

– ولماذا الاعتذار يا ابا محمود ،وعمّ تعتذر ؟

– الا يكفي اني قد أزعجت انسانا مثلك برسالتي البارحة ، اذ دعوتك اليّ وجعلتك تنقطع عن كل إعمالك فتهيم في المدينة هذه الليلة مفتشاً عن ياخور يرقد فيه بائع كشة ، وتستتر فيه عن عين هذا الوجود جيفة نتنة ؟

وكأني سمعت غصة في صوته فالتفتّ الى رأسه البارز من تحت الخيش فلم أر فيه الا كومة من الشعر الابيض المتشابك يتخلله تجويفان لمت في اعماق كل منهما ومضة من بريق .

– لا .. لا تقل هذا يا اخي. انا لا اريد ان اسمع منك هذه الكلمات يا ابا محمود ، اليس بائع الكشة واحداً من مخلوقات الله ، فلمَ لا يهتم به واحد آخر من مخلوقات الله مثلي ؟

واقتربت من الرأس الهرم اجسه بلء كفي علني أشعر صاحبه بعطفي واهتمامي لامره ، وافهمه بلغة غير لغة اللسان انني لست متقززاً من اسماله المتهرئة ورائحته النتنة ورأسه القذر ، واني مستعد ان اقوم باية خدمة يطلبها مني لوجه الله . وكأنه فهم ما يجول بخاطري فتململ بين اسماله متمتماً :

– ما شككت يوماً بطيب خميرتك وجودة محتدك . فلقد احببتك قلبي منذ اللحظة الاولى التي لقيتك بها . اذ كان وجهك يفيض دفئاً وحناناً كلما اشتريت من كشتي شيئاً . ولقد كانت ابتساماتك الرفيقة تذكرني دوماً بانسانيتي . لا ... لا تقل اني اتملقك يا استاذ فما عاد تملقي اليوم يجديني . لقد قرأت كل شيء في وجهك ، وليس كالوجه فضاح لما يكتمه اللسان. لذلك قد تمتعت بثقتي ومحبتي فما خيبتني ثقتي هذه الليلة ، ولا جدّفت علي محبتي .

كانت كلمات الرجل تدخل قلبي فتعصره عصراً ، وتجول في مخيلتي فاحار فيما افعل مع انسان يكنّ لي محبة وتقديراً ، كل شيء فيه يعلن اني لااستحقهما. بينا كنت نسيت الرجل منذ ان اختنقت آخر نبرة من نبرات صوته في ارجاء حينا فما عادت تذكرني بوجوده ، أراه قد اصطفاني من بين كل الناس ليستودعني ما يكنه من ثقة وتقدير ومحبة . وعقدت النية على ان اكفر في تلك الليلة عن تقصيري تجاه الرجل ، فجثوت على ركبتي قرب كومة الخيش التي كان يتدثر بها ، وأمررت يدي على شعره ، واستحلفته بأعز ما لديه في الدنيا الا يتورع في طلب اي شيء يحتاجه مما استطيع القيام به ، وان يحسبني كابنه فلا يسمح لحائل ما ان يقوم دون مصارحته اياي بكل ما اتمكن من تقديمه في خدمة شيخوخته . ومددت يدي الى محفظتي محاولاً ان أقدم له بعض ما فيها من النقود فاذا بأبي محمود ينتفض من تحت اسماله فيقبض على يدي بكلتا يديه ثم يستوي جالساً بحركة عصبية ويحدق في وجهي وكأن كل شيء فيه يفيض علي عتباً وتأنيباً :

– لا يا استاذ .. ليس من اجل هذا استدعاك ابو محمود هذه الليلة . لقد ولى ذلك الزمن الذي كنت احتاج فيه اية خدامة من الناس، وتصرمت تلك الايام التي كانت تنفعني فيها حفنة من نقود . لا .. ما استدعيتك لتقدم لي شيئاً من العالم بل لأقدم للعالم آخر شيء تمتلكه يداي. امستعد انت لتقبل ما اعطيك ؟

ووقفت ازاء كلمات الرجل حائراً لا اعرف كيف افكر وبماذا اجيب ، وكأن ابا محمود لاحظ ما بدا على وجهي من حيرة فانبرى يبددها قائلاً :

– لا تعجب من كلامي يا استاذ ، فابو محمود الليلة على سفر ، وسفري هذا سيكون من هذا العالم لا اليه . لذلك ما عاد باستطاعة هذا العالم ان يسدي اليّ أية خدمة . وديار اتوجه اليها هذه الليلة لا تسمح للمسافرين ان يصطحبوا معهم فيها اية حقيبة او محفظة . لذلك تعذر علي ان استعين بما تبرعت بتقديمه الي من امتعة ونقود ، وصممت ان استودعك بنفسي ما لم يعد بوسعي بعد الآن حمله . نعم يا استاذ ، ان ابا محمود يشعر بان هيكله هذا بعد ان اعتذر للكشة منذ سنين لعجزه عن حملها يستعد الليلة لكي يعتذر مرّة ثانية لا للكشة بل للحياة . لذلك ما استدعيتك الليلة لآخذ منك بل لاعطيك . فالخدمة الوحيدة التي تستطيع اسداءها الى هي ان تتقبل ما اعطيك . أمستعد انت لتقبل وصيتي ؟

وضع ابو محمود سؤاله هذا بطريقة ما كنت استطيع معها ان اجيب .

– ولكن لماذا تختارني انا من بين كل الناس لتستودعني وصيتك ؟ أوحيد انت في هذا العالم يا ابا محمود ؟ اين ولدك هذا الذي تكنى باسمه ؟ اوليس لك في هذا الوجود من يلوذ بك اكثر مني؟افلا استطيع ان انطلق فأحضر اليك احداً من اقاربك او محبيك ؟

– وحيد هو ابو محمود في هذه الدنيا يا استاذ ، فاهلي قد غابوا عن ناظري منذ امد بعيد حتى اني ما عدت اعرف لي في هذا الوجود اهلاً .

اما محي فقد تبددوا يوم نزع عن الوجود كل ما كان باستطاعة الناس ان يحبوني من أجله . وحيداً عاش ابو محمود يا استاذ وها هو اليوم يموت وحده والدنيا باسرها لاهية عنه . لقد حاولت مرة ان ابدد وحدتي فاربط حياتي بحياة شيء من الاشياء على وجه الارض ، فعانقت الكشة وعانقتني . الا انها اعتذرت الي يوم بدأت اعتذر للحياة وراحت ترتبط باعناق غيري من الناس . وهكذا ذهبت هي لتحيا وجئت انا لأموت .

– اتعني بأن أهلك باسرهم قد ماتوا يا ابا محمود ؟

– لست ادري يا استاذ . لو كنت متأكداً من ذلك لما كان فيجيئك الي الليلة اي معنى على الاطلاق .

– وأي معنى هذا الذي تعنيه ؟

– اي يا استاذ لو كنت متأكداً ان محموداً قد مات وان آخر رابطة تربط ابا محمود بهذا العالم قد انقطعت لما كان عندي اي اهتام في ان اوصى للأحياء من بعدي بشيء . الا ان املا ضعيفاً لا يزال يراودني وهو انني بتركي هذه الدنيا ، لن امحي من سجلها بل سأترك فيها قطعة من كياني وفلذة من كبدي ونسمة من روحي تتمشى تحت الشمس وتذكر الوجود من بعدي بان ابا محمود ما ذهب هباء منثوراً ، ولا كانت حياته باسرها سخافة وتجديفاً ، وموته هزءاً من القدر وسخرية . اي يا استاذ لولا أملي في ان محموداً لا يزال حياً لكنت الآن أموت وليس في اذني الا ترجيع لقهقهة القدر وليس في نفسي الا حرقة من وجود بذل جهده في ان يخدعني فانطلت علي الخدعة . اجل . ما كنت اوصي لاحد من الاحياء من بعدي بشيء لولا املي في ان يكون محمود في عدادهم ، فأكون بالتفاتتي الى واحدمنهم قد التفت اليه من غير ان يدري ولاادري. ليس من شيء يستطيع ان يؤنسني في ملاقاتي للموت الا التفاتة قصيرة الى الاحياء من بعدي . أوهم بها نفسي اني قد رأيت محموداً في عدادهم .

وتجاهلت دموعاً صافية تترقرق على لحية ابي محمود ورحت احاول ان ازيل من مخيلتي اسئلة ما كنت استطيع كتمها .

– واين هو محمود يا اخي ، وكيف حدث ان افترقتما فما عاد احدكما يعرف عن حال الآخر شيئاً .

– يعود ذلك يا استاذ ، الى الحرب الاخيرة ، يوم كنت في وطني الاصلي . ويوم دعيت الى حمل البندقية فما كان باستطاعتي رد ما دعيت اليه .

ووقفت ذات ليلة من ليالي تشرين الهادئة كهذه ، على درج منزلي ، بندقيتي في كتفي ومحمود على زندي اودعه وداعاً ما كنت متأكداً من لقاء بعده ، وام محمود من ورائي تربط فى عنقي حجاباً دعته « حجاب السلامة » وتوصيني بالا انزعه حتى اعود الى منزلي سالماً اذا سمحت لي المعارك بذلك وتعهد الحجاب بحراستي . ولكم افهمتني ام محمود آنذاك بان هذا الحجاب سيقيني من الموت والرصاص ان حافظت عليه وسيرجعني من الحرب سالماً ان شاء الله . ولقد سر محمود جداً بذلك الحجاب آنذاك فراح يتلهى بسلسلته الذهبية المدلاة من عنقي ساعة كنت اشبع عنقه ضماً وتقبيلا واغسل بدموعي زنده الصغير الممتد الى صدري دون ان يعرف لتقبيلي ذلك اي معنى ، ودون ان يفقه الحكمة في سلسلة ذهبية لماعة تطوق رقبة ابيه ولا تطوق رقبته . لقد قبلته القبلة الاخيرة وذرفت الدمعة الاخيرة على زنده ساعة كان يقبل السلسلة في عنقي ويذرف دمعته الاخيرة على سلسلة لماعة حرمته منها رقبة ابيه .

ووضعت الحرب اوزارها ، واستطاع حجاب ام محمود ان يقيني من رصاص المعارك ومن براثن الموت . وكثيراً ما نجاني من ويلات كان من المستحيل ان ينجو منها انسان سواي . فبتّ اعتقد بقدسيته واؤمن بقدرته وأعرفه لا كحجاب السلامة فقط بل كحجاب الحياة . ولكن حجاب ام محمود هذا استطاع ان يفعل معي كل شيء الا ان يعيد الي منزلي وما ودعت في ذلك المنزل . فلقد رجعت الى دياري بعد الحرب فوجدتها مهدمة وليس بين خرائبها أحد . فهمت على وجهي في العالم احاول ان القى من ودعت فاذا بي القى الموت قبل ان القاهم .

واوقفت الغصات ابا محمود عن الكلام فمدت يسراه الى اكياس القنب تمسح بها دموعه . ورأيت يمناه تمتد ببطء فتتغلغل في صدره وتخرج بسلسلة لماعة تحمل في وسطها حجاباً . ثم رأيت تلك اليد تمتد اليّ بهدوء ثم تضع في حضني ما كانت تحمله . وسمعت ابا محمود يتمتم على الأثر :

– خذه يا استاذ . فهذا الحجاب وصيتي اقدّمه للاحياء من بعدي فلعله يحرس غيري من الناس كما حرسني ، ولعله ان سلّم عنق احدهم من بعدي يسلم عنق محمود ايضاً . خذه يا استاذ خذه . فحجاب السلامة لا يليق الا لاعناق الاحياء . لقد حفظني طيلة ايام كثيرة وقد آن له الساعة ان ينصرف الى رقاب من سأترك لهم الحياة بعد حين . خذه بالله عليك خذه . فهذا ما دعوتك من اجله الليلة ولم تبق لي بعد الآن حاجة معك . فاذهب في سبيلك واتركني والله معك .

*

كنت في طريقي الى مكتبي حين اعترضني احد الصبية من باعة الكشة منغما في اذني كلماته المعهودة :

« شوكولا علكه دروبس ..شوكولا علكه دروبس » اتريد شيئاً يا استاذ ؟

ما كنت اريد ان اشتري شيئاً من الغلام. الا أن الحاحه علي اجبرني ان أنفع كشته . وكعادتي مع غيره من الباعة ابتسمت في وجهه وحاولت ان اجري بيني وبينه حديثاً . فسألته عن بقائه الى ساعة متأخرة من الليل في الشوارع ، اوما حان له الرجوع الى منزله ؟

إلا ان الغلام ضحك من سؤالي هذا ثم التفت الى وجهي التفاتة طويلة قائلا :

– وهل لامثالنا منازل يا استاذ ؟ كل هذه الارصفة منازل لنا متى شئنا استطعنا ان نبيت .

قلت :ليس لك اهل ينتظرونك فتأوي اليهم ؟

فضحك من سؤالي هذا ضحكة اخرى اطول من الاولى ثم قال :

اهل !! واي اهل تعني . اشكر الله اني لا اعرف لنفسي اهلا . اوتريدهم ان يقاسموني نتاج نهاري ؟؟

ولا ادري لماذا او كيف اثرت في كلمات الصبي فاذا بيدي تمتد الى جيبي على مهل ، واذا بي اطوّق رقبته بعد هنيهة « بحجاب السلامة » .

واستغرب الصبي تصرفي هذا فنفر مني اولا ثم التفت الى عنقه فراقه منظر السلسلة ،فضحك ليعلمني انه قد غفر لي تصرفي الغريب ثم انصرف .

وخطر لي ان اسأله عن اسمه ولكنني قبل ان اقوم بذلك كان قد اختفى بين جموع السائرين، فما عدت اسمع منه الا صوته الفتي الرفيق وهو ينادي من بعيد :

« شوكولا علكه دروبس .. شوكولا علكه دروبس» فتركته وسرت في سبيلي . الا ان شيئاً في داخلي أوقفني بغتة ليقول :

« من يدري ... من يدري ، ربما كان اسمه محموداً . »

نديم نعيمه

ميّ المتهمة

بقلم السيدة جهان غزاوي عوني

حول كتاب «ميّ في حياتها المضطربة»

« في سبيل نهضة ادبية صحيحة » قرأت هـــذا العنوان الضخم في اول صفحة من مجلة «الحكمة» في الشهر المنصرم بقلم جميل جبر ، وكدت أمر به مرالكرام لاجتازه الى الصفحة التالية لولم يعلق نظري عفواً بهذه الافتتاحية التي تلته : « حان للكاتب اللبناني ان ينطلق من جوه الضيق فيطل على العالم بنتاج ، إن تُرجم **ما خجل منه ، ولا تنكر له** ، حان ان يطمح لنيل جائزة نوبل للآداب ولو من قبيل **الطموح للطموح** . »

وتلاعبتْ على شفتيّ ابتسامة صغيرة هي اقرب الى الرثاء – لامثال هؤلاء الرسل – منها الى الغيرة على هذا التراث الكبير بعدده ، الفقير بقيمته . هذا التراث الممسوخ، المرتجل، الذي نخلفه للجيل المقبل ،دون ان نراعي في ذلك حرمة الادب الحق ، أو ذمة العطاء الخالص ، فنقدمه لنشء جديد قد يحاسبنا في المستقبل حساباً .. اذا لم يكن عسيراً فهو محسوب علينا في هذه الحقبة الحساسة من الزمن **نخجل به اي خجل ، ويتنكر لنا ايا تنكّر** ، اذا لم نحسن التدقيق فيه ، ونتقن تنقيته من الشوائب كهذه العفوية الصاخبة التي وطئت ساحة فما تركت مجلىً من مجاليه إلا تخطته فافسدت ريحه .

وطافت بخاطري اسماء براقة لكتب عديدة لفظتها المطابع اللبنانية منذ سنوات قلائل حتى يومنا هذا فلم أجد – ما استشهد به – اجدر من كتابيْ ترجمة حياة ميّ (مي وجبران، ومي في حياتها المضطربة) اللذين دبجتهما يراعة الاديب جميل جبر نفسه في انفلاتة من انفلاتات الالهام وطفرة من طفرات سطحية البسيكولوجية ، فاذا هذا التشهير بالاديبة الكبيرة واذا هذا التعريض بكرامتها ؛ واذا بي اقرأ ذينك الكتابين فما اجـد فيهما نفس مي الشماء التي عرفناها في كل ما كتبت حتى في الحزين منها. وما يطالعني وجهها النبيل ذو الطابع الطلـق ، ولا ميزاتها الفذة ولا شخصيتها المستقلة وانما ارى فتاة عادية بل دون العادية بكثير . تبدو لنا منذ النشأة كسيرة القلب محطمة النفس ، ذليلة الوضع ، قد سدّت بوجهها مسالك الحياة، ليس لها من الصفات المميزة والقوى التربوية ما يربأ بها عن الهبوط الى مستوى العوانس – الخامرات المعقدات – في سني اليأس .. اما صفاتها الكمالية الموروثة واما ادبها الرفيع ، ومكانتها ، وثقافتها ، وكبر نفسها ، اما هذه جميعاً فليس لها في اعتبار المترجم من البسيكولوجية الحقة شيء

اجل، لقد قرأت الكتابين في حينهما ، وسكت على مضض كنت أغص به بين الحين والحين . وما ذلك إلا لكي لا أثير ضجة حول الكتابين وهما لما يزالا في السوق قيد البيع ورحت انتظر آراء النقاد فيهما فلم ارجع بطائل ، اللهم إلا ببضعة سطور لبضع صحف كانت غايتها الترويج والدعاية لا اكثر ولا اقل .

واغلب الظن ان الكتابين لم ينتقدا لان صاحبة السيرة امرأة . والمرأة عندنا ما زالت – مع كثير الاسف – نكرة في هذا المضمار في عرف الرجل ، رجلنا المثقف ؛ واما آراء المنتقدات فقد كانت معدومة لان اديباتنا اللبنانيات لا يجشّمن انفسهن مشقة المقارنة بله الدرس والتمحيص ، وقد يجدن في قطعة صغيرة من الآهات الخافقة ما يعوضهن عن السهر الطويل وطلب الحقائق من مظانها. اما الآن وقد مضى على نفاد الكتاب وقت كاف ، وها قد تخطى بعض متأدبينا حدود التأليف الى التفكير لنيل جائزة نوبل للآداب ولو من قبيل **الطموح للطموح**، فلم يعد بالامكان السكوت على مضض، والغصة بالقول الصراح، فــان لادبنا علينا حقاً سنفيه له غير مشكورين ، وان لجيلنا هذا الذي يتخبط بين شدقي هذه الفترة من الانتقال والبلبلة، واجبات تحتم علينا ان نقف حياله موقف النصير او المربي فنعدّ له مكانة مرموقة بين

« يجب ان تصان آثارنا الفكرية – وبصورة خاصة ، تراجمنـا لحياة الادباء – من التشويه والمسخ والخواطر الارتجالية ، وحمى العفوية المستفحلة، والفوضى والسرقة ... بوضع النقاط على الحروف قبل ان يتمكن الداء ويعز البرء ».

امم الارض، لذلك يجب ان تصان اول ما تصان آثارنا الفكرية وبصورة خاصة تراجمنا لحياة الادباء، من التشويه والمسخ والخواطر الارتجالية، وحمى العفوية المستفحلة، والفوضى، والسرقة، بوضع النقاط على الحروف قبل ان يتمكن الداء ويعز البرء.

ولنفتح الان كتاب (مي في حياتها المضطربة) على ضوء النقد الصحيح لنرى هل نهج فيه صاحبه نهج المترجم الحق والكاتب الوفي لأدبه، فجعل من مترجمته صورة حية لها، كما كانت ابان حياتها، ام انه اكتفى بالنزر اليسير مما قيل فيها وقيل عنها ومما خطته في مذكراتها في مستهل نشأتها الادبية وهي لما تزل حدثة السن، فكانت مع ذلك كثيرة الاعتداد بالنفس عميقة التفكير قد اكتملت لها عناصر الاتزان.

قال جميل جبر في معرض الحديث عن كآبة مي التي ردها الى تأثرها العقلي بتأثرها الشعوري متخيلا مرتجلًا :

« وتطلعت الى المرآة ذات صباح تناجي نفسها الشرود فبدت لها غضاضة الصبا في اكمل حلقاتها وابهجها. وتراءى لها في الخيال — كذا — الغد الرهيب — يسم النضارة ساعة فساعة، فالقت بيدها تعبة عند موضع القلب وتمتمت ممتعضة (ما اقسى الزمن) ».

ولماذا يجب ان تتكهن مي بان غدها سيكون رهيباً؟ فهل ثمة عقدة نفسية يعتمدها المؤلف في مي نقطة المحور الذي يدور عليها بحثه واستنتاجه؟ ام انه احتفظ بها لنفسه لئلا يحمّل نفسه مشقة عناء التحليل فيطول الوقت ويتأخر الانتاج؟

ثم يقول: « وماذا اقلق مياً وعذبها إلا وحشتها الجافة التي سعت عبثاً لان تبددها فتستقر، لقد كان اصدقاؤها وخلانها عديدين متنوعين، وكان متذوقو ادبها والمعجبون بها يتزايدون كل ساعة ولكنها لم تجد لا بين اولئك ولا بين هؤلاء من تطمئن الى وجوده دوماً فتنفتح اليه مغبوطة في نشوة الانخطاف ... »

فهل حقاً كانت مي عهدذاك، على هذه الحيرة والاضطراب والتضعضع وعدم الاستقرار، والوحشة المرّة والعذاب؟ هل كانت في حاجة ملحة الى من تطمئن الى وجوده دوماً فتفتح له مغاليق نفسها الثرة في مثل هذه النشوة المستعرة؟

ان شيئاً من هذا لم يقع لمي مطلقاً لاننا لم نقرأ لها شيئاً من هذا لا في مؤلفاتها — على وفرتها — ولا في منشوراتها ولا في رسائلها.. ولان من كان له امكانيات مي، واعتدادها الاصيل، ورسالتها التي اعدّت لها نفسها، ليس له ان يخشى الغد من ان يسم النضارة، فلقد استوفت حقها من الحياة كما لم تستوفه قبلها امرأة؛ وليست مي هي التي يجب ان تلقى بيدها تعبة عند موضع القلب وتتمتم ممتعضة : ما اقسى الزمن! بل ان لمي ان تتيه على الزمن نفسه، لانه لم يضن عليها لا بالذكاء الفذ ولا بالولاء لها، ولا بالحسن الجذاب، ولا بالقلم السيّال. ومع ذلك كان لها في الزمن ذاته فلسفة خاصة، فلسفة عميقة غير محدودة، واسعة الاجواء، — قمينة بالدرس على حدة — لا تمت الى القلب بصلة. وانما تمت الى التفكير فيما وراء الطبيعة (من أين والى أين) بصلات واسباب.

اما انها لم تطمئن الى احد متذوقي ادبها والمعجبين بها فذلك قول مردود من اساسه لان مياً في هذه الآونة — التي تحدث فيها المترجم عن كآبتها الصارخة — كانت منطلقة انطلاقة الربيع الفينان — كما تحدثنا آثارها — جمال صبا في اعتداد اصيل، وخصابة فكر في بيان لا تعوزه الرشاقة ولا تفوته الاناقة، وكانت الى ذلك مصدر الهام ومحجة اعتكاف لنخبة من عباقرة الشعر والادب والعلم، كاسماعيل صبري وشبلي الشميل، وولي الدين يكن، ويعقوب صروف، والجميل. منهم من طلب الود، ومنهم من طلب اليد ومنهم من تعبّد وتهجّد، وهي بين هؤلاء جميعاً، نفحة عبير معطار، وبسمة رجاء أليفة، وومضة فكر دائم النشاط جم الحيوية دائب العطاء والولاء، ولكن بمقدار يحفظ عليها سمتها، ولا يشين السمعة الطيبة، ولا ينال من الانوثة ذات الحفاظ المهيب.

ولنستمع إليها هنا في فقرات من رسالة مطولة الى يعقوب صروف تقول له فيها مدلة حيناً متحدية احياناً، معجبة به الاعجاب كله، نافضة جملة نفسها الحيّرة بين يديه :

«ولكن مالي وللفيلسوفين — تعني فولتير ودالمبير — أغبط الواحد منهما على الآخر — وانا قد اسعدتني الحياة بصديق مثلهما احدثه وأراسله واتلقى تأثيره الفكري العالي.» الى ان تقول :

« تجاهر بانك ناقم ساخط راغب في معاقبتي وتعنيفي ... وما هي ذنوبي؟ ليس من الضروري ان يكون لي ذنوب. في عالم الوجود ما دمت راغباً في إيقافي موقف المتهم، فانك تخلقها من العدم — حتى المقدمة العظيمة — مقدمة كتاب الباحثة — لا تخلو من وخزة هنا ونغزة هناك، ولطمة هنالك. »

الى ان تقول معجبة بنفسها تياهة باختباراتها :

«وتلك المعرفة — معرفتها بالادب الغربي — جعلتني اسائل نفسي كلما قرأت مقالاً لبعض من يدعون اعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء، وماذا وضع هؤلاء من ذاتيتهم فيما كتبوا، بل اين تلك الذاتية التي لا اجد لها اثراً؟

ثم مالي انا اشرح ميولي وابرز سروري؟ إن كان هنالك من يستحق

الملام فانت هو ، انت الذي تنصلت من الاسجاع والحواشي والزوائد يوم كانت هذه روح العصر ، لو اردت ان اقلد احداً لقلدتـك انت . لكني اكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد ، وانا احب ان اكون انا انا في كتابتي .

يا لطيف ما هذه الكبرياء والدعوى ؟ هكذا ستقول انت .. يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد ! وهكذا اجيبك انا .

وهاك تهمة اخرى ، تقول في رسالتك انني انتظر اول اشارة لاعفيك من المقدمة ، كم انت شرير ساعة تقول ما لا تعتقد ! ولكني لا اريد ان اخاصمك ، واغفر لك ما جاء في الرسالة اكراماً للمقدمة .

اكتب اليك والشمس تنزل درجات الافق ، وقد سبحت غيوم المساء كما في بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت . في جميع اطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة .

هل ذهبت اليوم لشم النسيم ، ام اكتفيت بالسير في شارع عماد الدين؟ربما كنت الآن سائراً في الخلاء ، تنظر الى هذا الغروب الساحر وتفكر بي» .

ثم لنستمع الى مي في هذه الطفرة الحلوة الممراح من نقد بارع مطوّل في الدكتور شبلي الشميل نشرته في مجلة سركيس سنة ١٩١٣ أقتطف فيها ما يلي :

«وقد فكرت طويلاً في ان أثأر من الدكتور الشميل فعثرت في كتاباته على سلاح اصوبه نحوه الآن ، وهو قولي انه شاعر »

وتروح مي تستعرض بعض كتاباته فتحلل الشعر وتحلل النثر وتحلل العلم

وتندد بالشميل لانه يقسو على الادباء فلا تتورع من اتهامه بالخلط بين الادباء والمتأدبين ، وبين الشعراء والمشعوذين لانه ينقم على هؤلاء جميعاً في حين : « ان له تعبيرات جميلة وخيالات فخمة تتهادى بين اجرام المادة ، وقوة شعرية في تلك النفس التي تدعي احتقار الفنون ، قوة من القوى الأولية اخفتها الحياة تحت طيات الاختبار الكثيفة ، وحجبتها كبرياء العلم وتعصبه وراء استار المادة غير انها لا تنفك باحثة عن منفذ تطل منه على عالم النور .

« فطبيبنا شاعر رغم ارادته ، وكاتب رغم ارادته ايضـاً ، لانه لا يكتب إلا في ساعات الغضب والتهيّج والاشمئزاز مما يظنه اعوجاجاً وضلالاً .

« وهذه المميزات ترفع الحجاب قليلاً عن شخصية شاعرنا الفيلسوف الدكتور الشميل الذي لا يريد ان يلقب بهذا اللقب ، وينفي الفلسفة عن نفسه بحدة تكاد تكون غضباً ، فهو اذن فيلسوف على رغم منه ، بل هو: هو ، على رغم منه ، ألا ترى في هذا الارغام المتواصل شيئاً من اخلاق الاطفال ؟

« طباع متعاكسة متناقضة ، غريبة في شدتها ولينها : هذا الرجل القاسي الذي يود ان يقبض بيديه على صواعق جوبيتر ليلقيها على رأس الهيئة الاجتماعية مبيداً كل ما فيها من الشرائع والانظمة .. يقف متردداً بين الشفقة والتوسل امام المجرم ويفكر قائلا : ما ذنب هذا المسكين اذا اكسبته الوراثة جرائم الجرائم ؟ ثم لا يلبث ان يئن مع الاوتار منشداً :

فيا نـوح الحمام على هديـل — بكينا معه كل صد شريد
فما احناك من صوت شجي — وما اوفاه من خل ودود !

وتروح مي تنقد ابياتاً شعرية للتمثيل تحس فيها حماسة المأخوذ وبراعة المعجب الى ان تنتهي قائلة :

« طويل صدى هذه الابيات في الروح، طويل عميق يتسرب تموجه في ثنيات المدارك والى خلايا الأفهام بينما اشباح الغناء تمر امام ناظري الخيال ببطء فخم للتلاشي في ابدية القوة الخالدة »

ويحضرني بهذه المناسبة بعض ما قاله الشميل في مي لدن زارها لاول مرة فقابلته غير محتفلة بحكمته ولا مبالية بعدائه للجنس اللطيف كما كان ينسب اليه ، حتى اذا ما قال لها انه قد طالما تشوق الى التعرف بها منذ زمن اجابته ان هذا التشوق متبادل ولكنها تتنكر له – اي للدكتور – لأنه عالم مادي وهي شاعرة روحية الميول . فما اسرع ما يرسل اليها في اليوم الثاني قصيدة نظمها فيها خلال تلك الليلة نفسها يعلق بذهني منها ما يلي :

كأني ليس لي قلب خفوق — محط الوحي او هدف النبال !

الى ان يقول :

اذا ما قـاطري الحب يوماً — ألا تـدرين انك في خيـالي !

ثم لننصت اليه في « الى الساحرة ايزيس » – اي اليها :

تقولين اني اسير الثرى — وانت تحومـين حول السهى
وانك في ذا المحيط تريـن — النفوس واني اريك الصدى
فراعـك مني تصاب فـأنـ — شدت فينا اختلاف الهوى
تظنـين اني فتنت ببـاد — وليس افتناني بهـذي النهى

كـأني نظرت بعينيك فيك   وانت نظرت بعيني انا ..

ثم لنرَ مياً في معرض آخر كيف تتحدث عن ولي الدين يكن ، في مجلة الفجر ، ذلك الشاعر الذي ما أتت على ذكره الا احسست في نفسها غصة المكبر ولهفة الاليف ، قالت :

« وللالحان والالوان تأثير شديد في نفسه . قال لسماع فتاة تغني(وكأني بهذه الفتاة مي نفسها) بصوت خافت « هذهنسمات البوسفور « امـا تلك القطعة الموسيقية المرقصة المعروفة باسم« كارمن سيلفا » فلا يرى البيانو مفتوحاً إلا ويسارع طالباً ان نعزف له .

« وفي احدى زياراته لنا رأيت نظره جامداً بعيد وصوله . واذ سألته ما به قال «هذه» مشيراً الى زهرة ليلكية في ثوبي « يحزنني هـذا اللون الليلكي » فحاولت نزع الزهرة فقال : « لا تفعلي ، ارجوكِ ! يحزنني ان اراها ويحزنني اكثر من ذلك ان تنزع » وانشدنا ذلك المساء ابياتاً من شعره الحزين » .

اما على صورته فقد كتب اليها معاتباً :

كل شيء يا مي عنـدك غال   غير اني وحدي لديك رخيص

فهل حقاً كان لديها ذلك الرخيص الذى تخيّل ؟ انه ليعلم انه لم يكن كذلك ابداً - وانها لتعلم هي ايضاً - أوليس هذا العلم هو بالنسبة اليه الشك الذى يلهب حنايا المحب ، وبالنسبة اليها هي ، عصمة الفتاة التي لا تمنح الا بمقدار لا يتعدى عندها حدود الالهام - إلهامه الشعر - وحدود هذا الودالذي تأنس به وتغتبط مستكينة النفس ؟

اما اسماعيل صبري فهو عندها « ينبوع صغير بـلوري المياه عذبها ، يرشح المرة البيت والبيتين والثلاثة الابيات ، وينتظم مرة اخرى تسلسله المكرر اللماع على انه غير فياض لا يدهش بروعته ولا يرهب بجلاله انما يجذب بحسنه المأنوس ويرضي ببساطته وجلائه ، وهل الطف من الينبوع الصغير في تدفقه الموزون بلا تهور ، وهل اقرب منه الى ارواء الظمأ ؟ » هي هذه الصفات ، يسيطر عليها دوماً الذوق الدقيق المصفى ، التي جعلت من صبرى باشا - على بضاعته الشعرية المحدودة - شاعراً كبيراً ، اذا نظم وقعت شاعريته من نفسك في مكانها الخاص بها وصارت جزءاً من حاستك الغنائية تتناولها حافظتك بلا اجهاد ، ويشربها قلبك كأساً منعشة قد تخالطها مرارة مستحبة غير انها لا تجد منك عطشاً ، ولا تقلق عندك غوراً ولا تبعث فيك هوس الطيران والغوص والمخاطرة .)

هذا هو اسماعيل صبري الذى لم ينتظم في اخريات ايامه الا لمي ، وانه ليترك لها هذه الابيات قبيل موته لتكون لها تعلة ، وذكرى ذات اريج عطري .

يا مقر الغزال قد صح عندي الـ   يوم اني اقتحمت منك عرينا

حسب عيني ما رابها من قلوب   بات يغري بها السواد عيونا

وضلوع جاءتك وهي خوال   ثم عادت ملأى هوى وشجونا

ما الذي يبتغي غزالك مـني   -بعد كوني عبداً له- ان اكونا

كلما قلت قد ابل فؤادي   ساورته الذكرى فزاد جنونا

واذا رافقنا مي خلال جولاتها النقدية - وما اكثرها من جولات محببات - في اصدقائها وخلانها ومتعشقي روحها ومن بينهم جبران الذي لم تخصه في هذا المضمار باكثر مما خصتهم ، نراها واثقة من نفسها ، معتزة بشخصيتها ، عامرة الايمـان بذاتيتها المستقلة فيما تقول وتشير وترتئي . اما روح الصراحة فيها فهي اقرب الى ظهـور السريرة منها الى الكبـت والحرمان .. ذلك الكبت الذى اعتمده جميل جبر في كتابيه العامل الاساسي «لجنونها المزعوم» وذياك الحرمان الذى وصمها به دون رادع او وازع - كما يصم اى انسان اية امرأة من نوع رخيص ، ملتهبة الميول ، جامحة الطبيعة ، جاهلاً او متجاهلاً ان العلم الحديث ينفي مزاعمه هذه ويبطلها لان من كان له مثل امكانيات مي - الملهوسة - ومثل مميزاتها لاستطاع ان يجد منفذاً رحب المجال لطبيعته الملحاح - هذا اذا خالفنا الحقيقة وسلمنا بوجود تلك الطبيعة الجامحة عند مي - ولوجـد منفساً لكآبته العنيفة يمكنه من الاستقرار .

اما نوع التشاؤم الذى اضفى على ادب مي هـذه المسحة الرومانطيقية من التفكير العميق فهو فلسفتها الخاصة في الحياة وحسب ، وليس هذه النزعة الجسمانية ... هذه النزعة التي ما فكرت فيها مرة تتلبس شخصية مي الفذة على هذا النحو المخزي الوقح - وعلى مرأى من الادباء العرب واسماعهم - الا شعرت بالضعة لما يخالطني من اليأس في امكانية وجود ادباء حقيقيين يضعون الحق نصب ناظريهم ، منقبين ، متريثين ، لا تأخذهم حمى العفوية ، ولا تؤثر فيهم شهادة المغرضين ، لان للادب كما الانسان ضميراً حياً يتجنب الاساءة ؛ ولأن ادبنا كذلك محسوب علينا وعلى تاريخه ، فان اخلصنا له احسنّا الى انفسنا والى الجيل المقبل ، وان اسأنا ، فتلك لعمري اساءة موقتة لا تضر الا بفاعليها ، ولئن دقت على افهام نقادنا اليوم ، فلا سبيـل الى فرضها على افهام ادباء الغد القريب .

جهان غزاوي عوني



حضارة الطين

بقلم شاكر مصطفى

منشورات دار الرواد ، دمشق – ١٣٨ ص

•

هناك طائفة من المفكرين الغربيين الرجعيين ، واذكر على سبيل المثال ، اشبنجلر ، لا تؤمن بوحدة الحضارة للجنس البشري .. ، وهكذا على شكل دورات مفرغة ، برأي هذا المفكر ، يتنزل (الروح الحضاري) على امة من الامم ثم يتخلى عنها الى امم اخرى وشعوب ، وقد احتضنت النازية في المانيا هذه النظرية العجيبة ، وعلى اساسها ارتفع عالياً في سماء برلين شعار (الحضارة الآرية) والتي من نتائجها ان صنفت الشعوب في قائمة متسلسلة ، في آخرها يربض الشعب العربي ثم الزنوج !

ان هذه النظرة ، وما تخفي في اطوائها من مضمون سياسي بشع هي التي رفعت اخيراً لواء ما يسمى (بالحضارة الغربية) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه النظرة لا تقف امام الدراسة العلمية لتطور المجتمع البشري ، حيث الحضارة بصورة عامة تراث مشترك ، عام ، لجميع الشعوب ، وهي بذلك من وجهة نظر قومية لا تلائم واقعياً وعلمياً تاريخ الشعب العربي ، الذي ابدع في اكثر عهود اوروبا المظلمة حضارة رفيعة حية ، تجلت في ميادين شتى (رياضيات، فلك ، فلسفة، ادب ، شريعة، زخرفة ، نقل تراث حضارات عريقة ... الخ) والمهم في ذلك بلا شك الاضافات الحيوية ، للعبقرية العربية ، للروائع المنقولة ، وبصورة خاصةعن الاغريق . ومعنى ذلك من وجهة نظر عصرية تمدنيةان الشعب العربي الذي منح اوروبا في عهد نهضتها ذلك التراث الفكري الذي اعانها على التقدم والنهوض ، هو مسؤول بدوره عن مصير الحضارة الانسانية لا كشعب ساهم فيها مساهمة فعالة فحسب ، ولا لان التراث العالمي بكامله قد اصبح التركة الشرعية لقوى التقدم الانساني فحسب ، ولا لان مصيره كشعب كبير يرتبط بمصير العالم الحديث فحسب ، بل وبالاضافة الى ذلك ان كفاحاته المستمرة ضد قوى الاستعمار والتأخر ستؤدي بلا شك ، جنباً الى جنب مع كفاحات الشعوب الاخرى ، الى تعميق الازمة التي تتخبط فيها القوى المهيمنة على (الحضارة الغربية) ومن ثم زحزحتها ، وطردها من اروقة الهياكل١ .

وحضارة الطين ، كتاب شعري الاسلوب ، يهيم فيه الاستاذ شاكر مصطفى في وجود يابس ، عقيم، تجرد من كل معنى ، عودة مستمره تارة، وتراكم في الصور والاحداث لا يومىء الى اي مغزى تارة اخرى . ولهذا كان يتحاشى كل منهج عالمي يعتمد في البحث عن الازمة الحقيقية (للحضارة الغربية) ، وقد اقتصر في كل الاحيان ، لا في اغلبها ، على التقاط شذرات ، واقتباسات من مؤلفين غربيين ، تدعم دوافعه ، وتؤيد شكوكه .

مصباح ديوجين والخطيئة الابدية

وهكذا فهو يبدأ حاملاً مصباح ديوجين باحثا عن انسان ! ومع انه عاد بخفي حنين من هذه الرحلة المملة ، فاني اطمئنه ان مجتمعاً يقوم على الرياء والكذب والمخاتلة واللصوصية والاعتداء والسيطرة ، والاستغلال وبصورة عامة كل ما يؤدي الى ان ينحرف الانسان عن جوهر انسانيته سيكبو فيه مصباح ديوجين في اول خطوة ، وبدون بحث الاسباب الحقيقية التي تحط من الانسان ، وبطريقة واقعية علمية ، فسيظل ديوجين نهب متضارب الشكوك ، وستقتله حيرته ، وسيذهب غير مأسوف عليه . (ان اللعنة التي تلاحق البشر منذ الخطيئة الاولى !!) كما يقول الاستاذ شاكر ، هي لعنة العبودية التي تقف حجرة عثرة امام اي تقدم ، والتي لا بد ان تزول ، وان تحل على منزليها انفسهم . وان (الخطيئة الاولى) هي هذا الشعار القديم الجديد ، الذي يرفعه مفكرو الرجعية في اوروبا ليظل الانسان مشدوداً الى شيء غامض اعلى منه ، وليظل ابداً وعاء لمركب نقص ، ولتهاويل سحرية تحط من قيمته ، ومن قدرته على التطور، وعلى امتلاك زمام اموره سواء ما تعلق منها بالمجال الطبيعي ، او الاجتماعي . ان ديوجين يمثل قمة الانعزال الفردي ، المنطوي عن المجموع . والانعزال في حقيقته ، مهما تجلبب باشراقات صوفية ، او بمخاطبة الارواح الهائمة بتراتيل جميلة ، هو هزيمة وتهرب ، هو سلب لا انساني يحمل في اغواره احتقاراً فظيعاً للمجموع .

كانت العبوديات عبر التاريخ تتلقف الجنس البشري كما يتلقف اللاعبون الكرة ، وفي كل مرة ، كان اللاعبون المهرة ، وخلال عملية تسليم القطيع من لاعب الى لاعب، يتمسكون بتقاليد اللعبة باتقان ، اي بابقاء حالةالقطيع على ما هي عليه من انحطاط وجهل وخضوع للقوى الغريبة عن الارض، شأن كل من يريد دوام السيطرة ، وفي كل مرة كانوا يفتشون عن مخارج ، عن تبريرات لهذه الرغبة، تارة عن طريق الخرافات والاساطير ، وتارة بارجاع القوى التي تعمل عملها في المجتمع والطبيعة الى اسباب غامضة غيبية مجهولة.وبعد

---

١ كثيرون هم اولئك الذين ينعتون الحضارة العربية : بالبلاغية . والحق ان حيوية شعب من الشعوب كثيراً ما تتخذ طريق الفن للتعبير عن ذاتها . واكبر شاهد على ذلك حضارة الاغريق هذه التي قدمت روائع الادب والفلسفة والفن . وقد كدت اثبت لذلك السياسي الذي كتب للصديق الدكتور سهيل ادريس حول العدد الشعري الخاص الذي اصدرته الآداب، بالارقام ، ان انكلترا انتجت من الشعراء ابان فترة الرخاء الاقتصادي العظيم ، والتقدم الصناعي ، ما لم تنتجه في اي فترة اخرى من فترات تاريخها . ومها يكن فعلى ذلك السياسي ان يدرس النشاطات الانسانية كمجموعة في تحولها وتقدمها وعلاقاتها، وعندئذ سيقدر كل نشاط انساني خلاق حقه من التقدير . على ان دراسة كل حضارة يجب ان تكون مشروطة بظروف تاريخية واجتماعية معينة . كما ان الذي لا ينكر ان جمود الحالة الاجتماعية في الفترات المظلمة من تاريخ الشعب العربي ادت الى= ظهور قيم بلاغية شكلية لفظية،فارغة من اي مضمون، منحطة . وبصورة عامة فان بعض جوانب الادب العربي ، وبصورة خاصة شعر الغزل ، يتميز بانحرافات خطيرة عن الجوهر الانساني : تخضع مهين للجنس الآخر ، وسلوك فعلي شائن يحط من قيمة ذلك الكائن الآخر الى مصاف الحيوانات، ولا يزال هذا السلوك سائداً عندنا في جنوب العراق الى حد يبعث على القشعريرة .

ان وعى البشر بعض الشيء ، عن طريق فلسفات منظمة وكهنة انيقين متنعمين توهم الفرد انها تبحث عن الحقيقة ، والتي آخرها الفلسفة الغربية الحديثة التي يستمدمنها بدون روية ، وبدون تمحيص ، مع بالغ الاسف ، الاستاذشاكر مصطفى اكثر محتويات كتابه : حضارة الطين .

لقد كان البشر خلال العصور التاريخية منجمين، ولذلك جهلوا اماما تحت النجوم، جهلوا الصق الاشياء بهم ، وقد عمت تلك الخرافات والاساطير والفلسفات الغيبية ، وصنوف التربية المقصودة التي تصنع من البشر عبيداً ، عملها المسموم في الانسان ، ففتكت بالميزات الانسانية التي يتميز بها عن الاحياء الاخرى، وقتلت فيه كل طموح وكل تمرد، وهبطت به الى احط درجات الانحطاط، ومع ذلك فهناك من يتجاهل كل شيء ويرفع مصباح ديوجين، هذا الافاق اليوناني المشرد، ليبحث عن ذلك الذي انهكته اوضاعه التاريخية، واثخنته بعميق الجراح.

ان الموحد في الطبيعة ، يا اخي الكبير شاكر مصطفى (لا يسلم بشيء غريب عنها ، فاعل فيها، او مفعول عنها ، بل يعتبر ان كل الحوادث التي تحدث فيها منها واليها متحولة بعضها عن بعض، وراجعة بعضها الى بعض لا تستقر على حال، ولا تثبت على صورة، وهذا المبدأ ينفي القول بالقوي المجردة، والارواح المستقلة ١ التي نعمد بسبب جهلنا اليها لتفسير كل ما يبدو لنا غامضاً، ويردنا الى البحث عن اسباب هذا الغامض في الطبيعة نفسها) وما يتحتم انتهاجه في الطبيعة، يتحتم انتهاجه في دراسة المجتمع ومن ثم دراسة الانسان .

واذاً فليست الخطيئة قدر الانسان الابدي ، ولن تكون كذلك. ليس من الصعب ابداً استقراء الاصول الفكرية التي يستمد منها الاستاذ مصطفى افكاره العامة في الكتاب ، لان مجرد عدم الايمان بالعلم كاسلوب وموضوع، ولان مجرد عدم الايمان بالعقل وبالطريقة العقلية في المعرفة ، ولان مجرد دراسة الازمات العامة للحضارة الراهنة بمعزل عن المجال الاجتماعي ، سيضع ايدينا على مفاتيح الاقفال التي لم تعد مغلقة .

إن المؤلف ، وليسمح لي ، هو من الذين يستوحون الثقافة الغربيــة الرجعية اللاعقلية في هذا الكتاب ، وليس من قاريء واحد له ادنى اتصال بالثقافة الغربية لا يدرك ان مضمون هذه الثقافة واحـد : وان اختلفت الاسماء والمسميات والاشياء : القوة الدافعة ، الروح الاعلى ، السوبرمانية ، اللقانة ، المثالية ، الموضوعية الخ ... الخ. انها فلسفة وثقافة الفئة المـالـكة للقوة الاقتصادية منذ منتصف القرن الثامن عشر، لم تتقدم خطوة واحدة الى الامام ، هذا اذا لم ينص الكتاب العلميون على تخلفها المريع ابتـداء من احتقارها « للعلم والعقل» اللذين كانت تمجدهما ايام العز والجاه .

وقد علمنا التاريخ ان افكار البشر سواء كانت متشائمة، ام منشرحة، فهي في واقعها تعبير عن مجموعة مصالح. واذا كان الامر كذلك كان مجموع التفسيرات غرضاً يسعى لصالح تلك المصالح، ومتى ما استعصى على الفئات صاحبة المصلحة، التفسير ، التجأت الى التلفيق والتزوير . والقراء العرب يذكرون جيداً كيف كان (التقدم الانساني) شعار البورجوازية ايام انتصارها عـلى الانظمة الاقطاعية ، والتقاليد التبعية، وكيف ان النظريات، والاختراعات، والافكار استغلت لمصلحتها ، وكيف ان نظرية دارون مثلاً – وهذا مثل من آلاف الامثلة – استغلت ابان التقدم الصناعي والاقتصادي حيث اصبح الفرد الاوروبي الذي تم ذلك التقدم لصالحه ينظر الى ذاته كمرحلة عليا من مراحل التطور ، واذاً فالبقاء للاصلح ، وهو الصالح وحده للبقاء دون بقية الامم : وامم الشرق هي المقصودة ، والتي تملك الاحتياطي الكبـير من الخامات والاسواق!! واذاً فهذا التفجع الحزين على مصير الحضارة (الغربية)

١ التي صبت لعنة الخطيئة على البشر !!

عن طريق استيحاء واستلهام الاسس الفكرية المتخلفة لهذه الحضارة ، ليس له ما يبرره اذا ما صدر عن كاتب شرقي، عربي. وما كان على الاستاذشاكر مصطفى ان يرسل مثل هذه الزفرات المتصلة في مأتم الاعداء، وهو المواطن الذي يعيش في رقعة ارض تناوبت عليها شتى الاطماع الوحشية ، وتعرضت لويلات الاستعمار البربري ، بالوانه ، واساليبه المختلفة ، آخرهـا بلاشك سياسة الافناء وانتهاب الارض كما حدث في فلسطين المظلومة الشهيدة، الجريح.

وكان على الاستاذ شاكر مصطفى ايضاً قبل ان يأخذ الفلسفة الغربية والثقافة الغربية كقواعد واصول مسلم بها أن يدرس علائق هذه الثقافة بالمحيط ، وبمحيطها الخاص ، وعندئذ سيعثر على هذا الانفصال المستمر بين الواقع وبين هذه الثقافة ،فليس هناك من شك من ان المفكرين الغربيين يبحثون عن شؤون العالم بمعزل عن العالم ، والعالم يتحرك وحتى ولو ظلت افكار هؤلاء جامدة، وكما هي، وعندئذ يصبح تفكيرهم حجر عثرة في طريق التفكير السليم الحر. ثمة حقائق جديدة تبرز بصورة متوترة، في كل ظرف او مرحلة، يلح التفكير العلمي على دراستها ضمن اطارها الاجتماعي، ومادامت الثقافة الغربية ، بعيدة عن فهم الواقع ، وعن استلهام الواقع ، فهي بعيدة عن فهم كل حقيقة جديدة وهي بعيدة عن فهم العلائق الانسانية، فاذا ما استعصى عليها ذلك، التجأت الى مبدأ الاستحالة ، واعلنت اللاعقلية كطريقة ومنهج ، وابتداء من هذه النقطة نستطيع ان نفسر سبب انصراف المفكرين الغربيـــين عن الطريق العلمية في البحث والتعليل ، والالتجوء الى اساليب التفسيرات الخرافية والاعتماد على « الالهام » واللقانة Intuition كحل اخير للتفسير ، والذي سيكون في آخر الامر وقفاً على فئة خاصة من الناس وغير محل لبيئتهم ١

ان القلق الذي ينعته شاكر مصطفى بحضارة القلق ، حيث تتلامح امام ناظريه على شاشة الثقافة الغربية ، شخصية هملت ، هو نتيجة حتمية لوقوف الرجعية ضد قوى التقدم الانساني ، هو قلق الطبقة الوسطى ، وليس قلق الرجل العادي الذي تصرفه اهتماماته الآنية ومشاغل حياته المادية عن مثل هذا القلق العقيم الذي سلك الادب الوجودي ، والوجودية متنفساً للتعبير ، على ان الوجودية التي تبدو في بعض مظاهرها كثورة على بعض القيم هي ثورة اليائس الفاقد للصفة الأيجابية ، لم تستطع وقد اغرقتنا في بحران من اليأس والتأملات ، ان تتقدم بشيء علمي يفسر اولى المبادىء بصورة مقنعة: علاقة الوعي بالعالم .

وهكذا فان كل فلسفة فردية بعيدة عن فهم العلائق والاشياء في اطارها الاجتماعي ، وفي الوقت نفسه متأثرة بنفس الواقع الاجتماعي، تخلع على افكارها صفة الشمول ، فكأن مصير كل شيء مرتبط بمصيرها ، واذاً فان قلقها هو قلق العالم ، ونهايتها نهاية للعالم، ولا انبياء من بعد انبيائها .

ان عجزها عن فهم هذه الحقيقة ، هو ان العصر الحديث هو ليس عصر الفردية ، وعجزها عن مواجهة الحقائق الجديدة ، حيث فرخت شكوكها المفزعة ، هو الذي يجرها الى اعلان فشل المعرفة، واعلان فشل العلم، الذي اصبح مجرد احتمال كما يقول الاستاذ شاكر مصطفي ، وهكذا فأن :

$$H_2 + O_2 = H_2O$$

١ وفي وطننا سيكون وقفاً على (العقاد) ومن لف لفه ، ويذكر القراء كيف ان العقاد، شأن كل من يفقد السلاح العلمي في مواجهة الخصوم، اتهم المفكرين العمليين العرب ودعاة الادب للحياة بالجاسوسية، ولا ادري لمن ؟.. تراجع مقالة الكاتب العلمي الاستاذ احمد بهاء الدين في الرد على العقاد في مجله « روز اليوسف » .

مجرد احتيال، وتفجير قنبلةذرية في جوف المحيط الهادي مجرد احتيال ايضاً!

اما فشل الثقافة الغربية في مواجهة الحقائق فسأنتزعه من قول الاستاذ شاكر مصطفى ص ٦٥ (على ان هذا النص نفسه حمل الانسان بدء الفشل والمنطق الجدلي يقضي ان تحمل لحظة النصر في ذاتها عوامل انتحارها ، وهكذا لم يفتح انفجار القنبلة الذرية فراديس الامل بقدر ما اطلق سحب التشاؤم .)

ليس من شأني ان اقول ان السيطرة على المادة معناها السيطرة على القوة ، وليس من شأني الان ان اقول ان السر الرهيب اذا ملكته فئات مجنونة اصبح حقاً مبعث الخطر ، ولكن السؤال الذي اوجهه الى الاستاذ شاكر مصطفي هو : (اذا كانت كل لحظة تحمل النصر ، تحمل عوامل انتحارها) فأين اذاً علائق الاطراف لهذه المرحلة من العملية العقلية؟ انني لا اشك مطلقاً ، مع اعترافي التام بمبدأ حسن النية ، ان المؤلف كان قد قصد ان يقول (ولا تقربوا الصلاة) .. دون بقية الآية . ان عدم خلع صفة نهائية هي من شروط البحث العقلي ، غير ان مواجهة اللاعقلي من المنهج وعدم التسليم الى التركيب ، سيؤدي بكل من يتجنب المنهج العقلي في دراسة الظواهر ، الى التسليم باللاعقلية ، واخيراً الى حقائق مطلقة ، يلتوي على العقل البشري معرفتها ، وهكذا نستطيع بكل بساطة ان نقف على لا عقلية الثقافة الغربية ، وابتعادها عن كل تفسير علمي للحوادث والعلاقات . ثم ما معنى هذه الاستاتيكية ، اليست نتيجة لهذه اللاعقلية الغارقة في دياجي الضباب ، وما معنى هذا التكرار المتشابه ، الذي تعود دائماً ان ينص عليه الادباء والكتاب الغربيون ، فمثل ما قرأت للشاعر ت . س . اليوت في قصيدته (The Waste land) عن ذلك الجندي الفينيقي المسكين ، قرأت لشاكر مصطفى عن (القادة !) الابرار !! . لقد وجد هولاكو السفاح بالفعل ، ووجد ايضاً ترومان مدمر هيروشيما ، والمعترف بقيام دولة غريبة على حساب ابناء البلاد الاصليين (في فلسطين) بعد قيامها بدقائق معدودات ، ولكن وجد بالفعل سقراط وارسطو وافلاطون ، والمسيح ومحمد وبوذا ، ودانتي وفرجيل وشكسبير وما تحويه قائمة مغني البشرية . ووجد غاليلو ونيوتن وباسكال ودارون وباستور واينشتاين وما تحويه قائمة العلماء من جيش عرمرم . ووجد الفنانون الكبار . ووجد قادة الشعوب المتحررة المنتفضة ، ووجد الفلاسفة العلميون . ووجدت اشياء كثيرة ، وكثيرة جداً، وتبدل كل شيء ، ولا يعني تخلف الجزء تخلف الكل ، ولا تنفي الحوادث الشاذة التطور العام . وان العقل البشري بصفته فعلاً مادياً هو الآخر يتطور ، ولا حد له . ومع كل هذا ، وخلال صراع الانسان للسيطرة على الطبيعة ، اثبت تفوقه عليها ، وما زالت شواهد تحسين الانواع بالانتخاب الصناعي تمدنا بعشرات الشواهد والامثلة على قدرة الانسان على عمل ما لا تحققه الطبيعة الا بعد مراحل طويلة . وهكذا فالمشاكل الكثيرة التي تواجه العلم هي في صالحه ، وليس قاعدة لفشله كما يرى الاستاذ مصطفى ، كما ان ايمان البشرية الصاعدة بالعلم كموضوع ومنهج ونتائج يحللها من الحاجة الى اي (توزان) فهي لا تؤمن بالافتراضات الا في حدود المناهج العلمية ، وعلى هذا فان بعض آراء الاستاذ شاكر مصطفى تذكرني برئيس محاكم التفتيش في (كرامازوف) وبعض الفصول في جمهورية افلاطون ، حيث اجاز هذا الفيلسوف الكذب للحكام فقط ، او حيث يجوز اللجوء الى الاساطير والافتراضات البعيدة عن الادراك البشري في كل شيء يفتقد التبرير العلمي . فليست اذاً مسألة الايمان باللانهايات مجرد موعظة يصوغها مفكر او كاتب ، او يلقيها خطيب في كنيسة يتخذها الشباب الامير كي مثلا محلاً للرقص ! واقامة حفلات الخمور[1] ، ما دامت لا تصمد امام العقل والبحث العلمي ، ثم ما جدوى التوزان وكل شيء من عمل الطبيعة وفي الطبيعة ، ولا شيء خارج الطبيعة ، وبصورة عامة يجب ان نبحث انحدار الاخلاق واسفاف القيم ضمن المحيط الاجتماعي .

*

وقصة الحضارة بدأت عندما بدأ الانسان يشعر بضرورة التعاون ، وخلال المراحل الطويلة تحول هذا التعاون الى سيطرة واستعباد من قبل فئة اخذت تستولي على كل شيء ، ولكي تشغل الانسان عن واقعه المرير صاغت له شتيت الخرافات والاساطير وصبت عليه لعنة الخطيئة والشقاء الابدي ، وشيئاً فشيئاً انفصل الانسان عن الام : عن الطبيعة ، وبدأ يخاف ، يخاف كل ظواهرها - وحيث يكون الخوف يكون التقديس ، وهذه حقيقة اعترف بها حتى افلاطون المثالي في محاورة اوطيفرون ، وهكذا ظلت الطبيعة سراً تكتنفه الظلمات ، وليس بعجيب ان ارى الناس وحتى في القرن العشرين في قرى الجنوب من بلادي يقرعون على الطبول كي تهرب (الحوتة) التي ابتلعت (القمر) اثناء الخسوف .

ومع كل هذا فقد قرأت اغرب رأي حتى الآن وهو قول الاستاذ شاكر او قول من قالوا وناقل الكفر كافر في العصر الحديث « ان قدماء البشر الذين حكمهم قانون الحياة وهو ان يعيشوا قبل ان يتفلسفوا توجهت اعينهم الى تفحص الطبيعة ، وافكارهم الى اختراع الآلات ، فلم يكن لهم الوقت الكافي ولا الحاجة والرغبة في النظر الى انفسهم » . كل ما اعرفه ، ويقرره العلم ان تفحص الطبيعية بصورة علمية لم يتم الا قبل مرحلة قريبة جداً ، وكل ما اعرفه ان الانسان لم يزل حتى الآن عاجزاً عن السيطرة على الطبيعة بالرغم من التقدم العلمي الهائل ، وكل ما اعرفه ان تاريخ البشرية حافل بالفلسفات الكلامية الفارغة التي حرمت البشر من العيش الصحيح ، ثم ماذا يريد الاستاذ شاكر (بالنظر الى النفس) هل يعني بذلك ان النفس شيء منفصل وغير خاضع لتأثيرات المحيط ، واذا فهمنا النفس على غير هذه الصورة افلا تصبح مسألة (الطبع) مجرد اسطورة ، او اولا يصبح قول المتنبي : (وتأبى الطباع على الناقل) حديث لغو .

على ان الشيء الغريب الثاني الذي قرأته للاستاذ المؤلف هو قوله (ثم لا مبرر للحرب سوى الوحشية الكامنة وراء جلودنا الناعمة) مدهش وغريب هذا الرأي الذي يخالف ابسط المباديء الاقتصادية! وهكذا تنقلب معارك الخامات والمواد الاولية ، وملاحم الاسواق التجارية والامتيازات الى شرور كامنة في جلودنا وكفى الله المؤمنين شر القتال !

نقد الكتاب من الناحية الشكلية

استطيع ان اقول ان تأثيرات الحضارة الغربية على وطننا تتفرع الى مسألتين : الاولى اقتباس انظمة الحكم والدساتير والقوانين والصناعات والعلوم والمدارس ومناهج التربية والصحافة والطباعة..الخ والثانية مجموعة المساويء وتدخل ضمنها شتى الشرور والآفات والتقاليد العقيمة اللاوطنية التي حملتها الينا الحضارة الغربية ، بحيث فرضت وجودها علينا واصبحنا نعيش مأساتها . غير ان اخطر ما واجهتنا به الحضارة الغربية هو الاستعمار ، واقتطاع بعض

---

١ اعتماداً على رواية الاستاذ سيد قطب بعد عودته من امريكا - مقالاته في مجلة الرسالة المحتجبة - واعتماداً على رواية اكثر القادمين من امريكا .

الاجزاء من ارض الوطن . غير ان دخول الآلة الى المجتمع العربي خلق الواناً من الظواهر الجديدة : لقد تركز الاهتمام على المدينـــة التي جذبت جماهير الفلاحين من القرى كما تشهد بذلك ضواحي بغداد مثلاً ، واندفعت الى الوجود طبقة جديدة لها مشاكلها وآمالها وواقعها . على ان الذي اود التصريح بههو ان الاستاذشاكر بقدرما اعتمد على آراء مفكرين غربيين مثاليين في فهم ازمة الحضارة الغربية ، انسلخ عن واقعنا المرير كعربي ، وابتعد عن الاهتمام بتأثيرات هذه الحضارة التي اوجدت في مجتمعنا حالات ومواقف خاصة .

واخيراً ، وليس بآخر ، اما كان الاولى بالاستاذ شاكر ان يستعرض آراء مفكرين آخرين في ازمة الحضارة الغربية كي يقف القـاريء العربي على شتى الآراء ومختلف التيارات في قضية تعتبر من اخطر المسائل ؟

وبعد فهذه آراء عامةعنّ لي كتابتها اثناء مطالعتي لكتاب«حضارةالطين» وهي آراء شائعة في محافلنا نحن الشباب العربي ، نحن الـذين نعيش في مجتمع متأخر جاهل متفسخ ، بعيد عن العلم ، مستعمر ، ومع ذلك فهنـــاك كتب تكتب لهذا الشعب ، مبادئها الاولى في عدم الايمان بالعلم ، هـــذا السلاح الفعال لكل شعب يريد التحرروالنهوض... ومهما يكن فقد ادركنا ،والفضل في ذلك للنكبات التي المت بشعبنا ، ان طريقاً واحـــداً فقط يؤدي الى روما ... مدينة المستقبل :

« حيث العقل لا يخاف والرأس مرفوع
حيث المعرفة حرة
حيث العالم لم تمزقه جدران التعصب
حيث تخرج الكلمات من اعماق الحقيقة
حيث لا يفقد جدول العقل مجراه
في صحراء التقاليد الميتة
حيث العقل في تقدم دائم نحو ساحات
افسح من الفكر والعمل
تحت هذه السماء من الحرية ، يا ابت ،
دع وطني يصحو – طاغور »

بغداد **كاظم جواد**



المصطلحات العلمية في اللغة العربية

تأليف الامير مصطفى الشهابي

منشورات معهد الدراسات العربية بالقاهرة – ١٤٠ ص

•

لعل اكبر مشكلة تعرض للكتّاب ، ولا سيا الذين يعالجون المسائل العلمية والفنية ، هي مشكلة المصطلحات العلميـــة التي تؤدي المعاني العربية المصطلح عليها ، بل المعاني التي صارت مقبولة على نطاق عالمي . ومعروف ان العلم والفن والثقافة على اطلاقها إنسانية النزعة تتخطى الحواجز المصطنعة التي تقوم في وجهها ومنها حاجز اللغة ، وتعمم خيراتها على الناس جميعاً وإن اختلفت ألوان بشرتهم وتعددت ألسنتهم وتنوعت مشاربهم وميولهم .

واللغة هي الاداة التيتنقل الثقافة إلى الناس وتكون سبيلهم إلى التخاطب والتفاهم والتعاون في جميع مناحي الحياة ، ولا سيا مـــا يتصل منها بالعلم في الصميم ، ولهذا كان عكوف العلماء والباحثين على وضع مصطلحات علمية تحظى بالرضا الاجماعي للقارئين والباحثين أمراً طبيعياً تحدوهم اليه رغبتهم الصادقة في تذليل العقبات الكأداء التي تحول دون شيوع المعرفة بشتى فروعها والتي تجعل التفاهم مستعصياً او على درجة من الاستحالة المادية بين عالم وعالم ، وبين كاتب وقاريء،وبين باحث باللغة العربية وباحث بلغة أوروبية دانت له نواصيها . بل كان انكباب العلماء عـــلى استحداث عبارات قياسية في العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والقانونية والطبية والهندسية والميكانيكية والكيمائية والصناعية والفنية والادبية عملاًضرورياً يسبق انتشارهذه المعارف جميعاً ويمهد السبيل امام غزوها للعقول ، ولا سيا عقول الطلاب ومـــن في حكمهم ممن لم تتح لهم فرص التبحر والتعمق .

وحتى اليوم ، كان عمل وضع المصطلحات العلمية باللغة العربية عملاً يقوم في اغلبه على الاجتهاد الفردي ، دون ان يكون هنـــاك منهاج موضوع يسير الافراد على هدايته عند صوغهم المصطلحات التي يستعملونها في مؤلفاتهم ومصنفاتهم . ولهذا اختلف على كثير من المصطلحات التي سرت على اقلام الكتاب ، فالبعض يخطئها ، والبعض يرى اصوب منها وابلغ في اداء المعنى والمبنى ، والبعض يقبلها بتحفظ ، والبعض ينسب اليها معاني لم يقصد اليهـــا واضعها ، والبعض لا يعترف بها أصلاً فيضـــع مصطلحات غيرها يدأب في استخدامها وتداولها . وكان من نتيجة ذلك ان تباعـــد الكتاب والقراء بدل ان يتقاربوا ، وتعددت مذاهب الفهم عنـــدهم ، وصار من الحتم ان يبادر الساهرون على اللغة إلى وضع حد لهذا التباين الكبير ، والتصدي للمصطلحات السارية وغربلتها لاختيار أصلحها وأبلغها، مع مراعاة يسرها في النطق والكتابة ووضوحها في اداء المعاني وانطباقها على المغزى العلمي انطباقاً كاملاً .

اما المنهاج الذي يعوز العلماء ان يسيروا في دروبه السوية ، فقد وضعه لهم احسن وضع العلامة الكبير والاديب المتمكن المتفقـــه استاذنا الامير الجليل مصطفى الشهابي ، العالم الزراعي الثبت وصاحب المعجم الذي يرجع اليه المشتغلون بعلوم الزراعة فيجدون فيه بغيتهم ومستطابهم . وقـــد رسم الشهابي هذا النهج المستقيم في كتابه الجديد النفيس « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » الذي يعد خير ما كتب بالضاد في هـــذا الموضوع ، لان المبادىء التي اجازها في صوغ المصطلحات العلمية مما لا يختلف عليه نزّاع إلى الحديث او ميّال الى القديم. فقـــد عني الشهابي نفسه عناء مبرحاً في التحويم حول المصطلحات العلمية لمعرفة اصولهـــا وكيفية وضعها ، وأقر بعد ذلك المبادىء التي تتبع في وضع المصطلحات ، ثم حشد طائفة كبيرة من الامثلة استشهد بها ليعين الباحث والقاريء عـــلى متابعة منهاج الصياغة . وأشار في ختام مؤلفه النفيس إلى الخطـــة المثلى التي يحسن بالمجامع اللغوية ولا سيا مجمع مصر ان يأخذ بهـــا ليوحد قدر المستطاع المصطلحات العلمية ويشيعها على الالسنة وفي الكتب والمبـــاحث ويحقق في المستقبل كل مصطلح غربي يراد اغناء اللغة العربية به .

والأمير الشهابي ، شأنه شأن العلماء ذوي السماحة ، لا يعترض على أي وجه من وجوه وضع المصطلحات العلمية ما دام يتبع النهج العلمي القويم. فهو يبيح استحياء العبارات العربيةالفصيحة القديمة ولا سيا في علوم الطب والرياضة والفقه، تلك العبارات التي استخدمها العرب وصارت مألوفة فضلاً عن بلاغتها وسهولتها وحسن أدائها للمعاني المطلوبة ، وهو يجيز النحت، وهو يجيـــز الاشتقاق والتعريب ، وهو – في حالات – يدعو إلى استبقاء اللفظة العلمية

على وضعها اللاتيني دون تحوير في الكتابة، ولا سيا إذا كانت اللفظة منسوبة إلى رائد من رواد العلم او مدينة من مدن العالم جرى فيها كشف علمي هام.

ومع أن المفروض في كتاب كهذا الكتاب أن يحفل بالعموميات أكثر من حفاوته بالتفاصيل والخصوصيات، فان الامير الشهابي - رغبة منه في تقريب البحث إلى أذهان القراء - عالج كثيراً من المسائل الفرعية ليقيم بها البرهان الناصع على جدوى التعاون العلمي لتوحيد المصطلحات العلمية في كل لغة، وفي لغتنا العربية على وجه أخص. فسرد الشهابي طرفاً من المساجلات العلمية التي جرت بين العلماء حول ما صنفوه من مصطلحات تعصب لها اصحابها، وأشاد بجهود الرواد الاوائل الذين تصدوا للغة فأخضعوها لسلطان العلم. وقد فاته ذكر بعض هؤلاء الرواد من امثال الدكتور فارس نمر الذي كان اول من الف كتباً في المستحدث من علوم الطبيعيات والكيمياء والفلك، وفاته كذلك ان يشير الى فضل الاستاذ سلامة موسى الذي لا يكف عن تغـذية الضاد بالمصطلحات الجديدة، وآية ذلك مؤلفاته في علم النفس وفي الداروينية، وفاته أن يشير إلى مباحث جماعة علم النفس التكاملي وعلى رأسها الدكتوران يوسف مراد واسحق رمزي وكذلك الدكتور رمزي جرجس فقد صنفت طائفة كبيرة من مصطلحات علم النفس. وفاته أن يشير إلى فضل كثيرين من الذين خدموا اللغة عن طريق تطويعها لمطالب العلوم السياسية الحديثة، والصحف السيارة بما تنشره كل يوم من مصطلحات سياسية واقتصادية شاهد على ذلك. ومن أعلام رجال السياسة والاجتماع الذين زودوا الضاد بكثير من المصطلحات داود بركات وخليل ثابت ونقولا الحداد وأنطون الجميل. وفاته ان يشيد بمحامد حافظ ابراهيم وخليل مطران ويوسف نحاس الذين خدموا اللغة بما أضافوه اليها من مصطلحات في علم الاقتصاد.

ومع التسليم بأن المنهج الذي رسمه الأمير الجليل مصطفى الشهابي لوضع المصطلحات العلمية منهج حكيم لا يكاد الناس يختلفون عليه، فالرأي عند البعض انه يحسن التوسع في استخدام ألفاظ عربية تقوم مقام الصدور والكواسع في اللغات الغربيه، مثل « لا » فيقال « لا دولارية » و « لا إرادية »، ومثل « شبه » فيقال « شبه مائي » و « شبه غروي » - ولا داعي لأن يقال « شبغراوي » كما دعا الى ذلك الأمير الكبير - ومثل « نصف » فيقال « نصف هيولي » و « نصف إرادي »، ومثل « قابل » فيقال « قابل للكسر » و « قابل للتغيير » بدلاً من أن يقال « شيء يكسر » أو « شيء يتغير »، ومثل « غير » فيقال « غير واقعي » أو « عملة غير استرلينية »، ومثل « قبل » فيقال « قبل تاريخي » و « قبل تشريعي » وهلم جراً، فاستخدام هذه الالفاظ السهلة دون حاجة إلى ادماجها في الكلمات التالية لها مما ييسر الفهم، وهي لسهولتها وبساطتها يستطاع استخدامها على نطـاق واسع في اللغة العلمية.

وقد نعمت بمطالعة كتاب الامير الشهابي، بل درسته وتعلمت منه، ثم عدت إليه أطلب مزيداً من العلم ومزيداً من الادب. ومع أن هذا الموضوع قد يكون على درجة من الجفاف للذين لا صبر لهم على معاناة مشاق العلم، فقد استمان الامير الجليل ببيانه الناصع وأسلوبه الواضح الموجز المباشر الرصين، وكلامه السلس الذى أحسن انتقاءه، ليجعل الكتاب ذا طـلاوة وحلاوة. فضلاً عما حواه من علم غزير تشهد به كل صفحة من صفحاته بل كل سطر من اسطره. وأعجبني من الشهابي عفته في اللفظ ونأيه عن التعقب واعترافه بالقصور وادراكه ان رجل العلم الحق هو الذي يطلب المعرفة دائماً، فأن اكتشف خطأ هجره مقراً بذلك في غير خجل او استحياء. واعجبني من الشهابي كذلك إنصافه جميع الذين وقع على مؤلفاتهم وبحوثهم في وضع المصطلحات، فسرد اسماءهم ونوه بجهد كل منهم وانتقد بعضهم في رفق وكان في كل هذا على دراية بالمشاق التي يكابدها واضعو المصطلحات، وهو أحدهم، بل هو ابرزهم في مصطلحات العلوم الزراعية والمواليد.

والواقع ان كتاب «المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث» كتاب تكسبه اللغة العربية والحركة الفكرية، وقد جاء في اوانه فكان لنا نعم العزاء عن كثير من الكتب السريعة التي تقذف بها المطابع الى السوق لان كتابها في عجلة وقراءها في غفلة.

القاهرة



وديع فلسطين



شعراء الوطنية

للاستاذ عبد الرحمن الرافعي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ٣٠٥ ص

●

الاستاذ عبد الرحمن الرافعي بقية صالحة من الرعيل الذى عاصر فتوة النهضة الوطنية الحديثة، يوم استيقظ الشرق العربي، فألفى نفسه يترنح بين نخاسي السياسة الاستعمارية، والذئاب العادية على حرية الشعوب، يوم فتح عينيه فوجد نفسه ميراثاً تسلمه تركيا الفانية إلى وارث فـاجر مستبد، وأسلاباً مقسمة على مائدة الوفاق، بين عدوين من أعـداء البشرية، وأفاقين من أفاقي الانسانية.

وكان الرافعي حوارياً صالحـاً من تلاميذ مصطفى كامل، رسول الوطنية بمعناها الامثل.. الوطنية المتماسكة الواعية المؤمنة بنفسها، أشربت نفسه المبادىء الصالحة النظيفة المترفعة.. مبادىء الحزب الوطني التي تسامت على الاشخاص والاشياء، وتأبت على اعراض الحكم، وكراسي السلطان.

وعلى النهج الرشيد انبعث الرافعي إلى هدفه، مجنداً قواه ومواهبه، ليبني مع هذه الفئة القليلة صرحاً للوطنية المجيدة، فاتجه نحو ابراز القومية المصرية يسجلها، ويرصد حركاتها، ويؤرخ لها، ويدحض مفتريات المستعمر الذي يود لو يطمر هذا الجوهر المتألق في روح الشعب المجيد، وطلع على الناس يومئذ بآراءهم، فأخذ يكتب عن « حقوق الشعب » وعن « النقابات » ثم عن « الجمعيات الوطنية »، واندفع إلى نهـاية الشوط، لينصف مصر من مستعمريها وحاكميها على سواء. فكتب تاريخه المنصف الدقيق في سلسلة مجلدات بعنوان « الحركة القومية » ممسكا بخيوطها الأولى، منذ برزت في أثر جلاء الحملة الفرنسية حتى ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢.

ولقد اصبح تاريخه هذا مرجعاً دقيقاً مستوعباً نزيهاً لمصر المعاصرة، حتى ليطلق عليه المشتغلون بالتاريخ لقب « الجبرتي الجديد »، فلقد تعامل مع الاحداث والبواعث الحقة، في نزاهة القاضي، وحكمة الفيلسوف، غير مبال بغضب من يغضب ورضا من يرضى، وكان في ذلك عديل « ابن مسكويه » الذي لم يمنعه منصبه السامي في الدولة البويهية أن يذكر كلمة الحق فيها، وأن ينتصف منها للشعب.

من اجل هذا كانت الاسرة الحاكمة تتوارث النقمة على الحزب الوطني عامة من اجل مبادئه التي لم تتزعزع، ولم تفقد ثقتها بنفسها يوماً، وعلى

عبد الرحمن الرافعي خاصة ، إذ دفع هذه الاسرة بكلمة الحق صريحة مدوية مكتوبة مقروءة على الاجيال ، وكان ان حيل بين « تاريخ الحركة القومية » وبين الجيل المثقف في المدارس والجامعات ، وحوربت كتبه واراؤه حرباً خفية مرة ، وسافرة مرة ، وكان من العنت والتوقح أن يصادر كتابه عن « الزعيم الثائر أحمد عرابي » وكأن الله اراد بالكتاب وبصاحبه وبالشعب خيراً فجاءت ثورة الجيش بعد ذلك بشهور فأطاحت بالقيم الرجعية المتسلطة ، ومكنت للخط المستقيم ان يتخذ طريقه إلى الهدف ، وكان أن بعث في نوفمبر سنة ١٩٥٢ كتاب عرابي الذي قبر في مارس من العام نفسه ، ومما هو جدير بالتسجيل أن كتاب احمد عرابي هو اول كتاب تصادره السلطات من سلسلة « كتب الهلال » .

والرافعي سليل اسرة مجيدة ، توارثت الأدب والشعر والصحافة جيلاً بعد جيل ، فهو اديب أصيل ، تلمح ذلك في احتفائه بالأدب ، وإقباله عليه ، وتذوقه لروائعه ، وحدبه على رواده ، كما تتبينه في اسلوبه الناصع الرصين، وحرصه على سلامة الأداء ، وقوة التعبير، وإبراز الفكرة وصفاء الديباجة في كل ما يكتب .

ووضعه في موضع المؤرخ الأول للحركة القومية ، اتاح له ان يتقصى البواعث والدوافع ، ظاهرها وخفيها ، فرأى الأدب يحتل منها مكانة مرموقة، وتلك لفتة موفقة لم تلق أهمية من المؤرخين الذين كفروا بالشعب ، فاتهموه بالأمية والغباء ، ولم يلقوا اليه نظرة الرافعي الواقعية ، ليتيقنوا انه شعب ذواقة ، ذو حس نابض ، يبهره الفن ويستولي على مشاعره الادب ، وخاصة ما اتصل منه بالناحية الشعورية الحساسة المستوفزة المتربصة .. ناحية الوطنية ، التي تجعله ينفعل بالأناشيد الوطنية والأغاني القومية ، فيندفع محققاً مآربه ، مؤكداً ذاته ، ومن قبل وفي عصور سيادة الجهل ، كان يتحلق حول الربابة ، فلا ينتهي السامر إلا والقوم فريقان: متشيع لأبي زيد الهلالي أو متحيز للزناتي .

وعمق نظرة الرافعي هدته إلى أن الأدب يتسرب في هدوء مترفق إلى روح الامة ، يوقظ قوميتها ، ويبعث شخصيتها ، ويجسم آمالها ، ويغني لها امانيها ، فأنصف الادب من جاحديه ، ولم يدع مناسبة في تاريخه لم يشر فيها إلى ما للادب من سمو مكانة في دفع الحركة القومية نحو الهدف .

لكن تقديره للادب لم يقنع بذلك ، ولم يشبع رغبته في إنصاف الجنود البسل ، أدباء الشعب ، وشعراء الوطنية ، فخصهم بآخر كتبه « شعراء الوطنية » ، وقد حشد فيه الصف المختار منذ فجر النهضة ، ومنذ نضج الاتجاه في وعي الجماهير بأمجاد الأدب ، وصيحات الشعر ، وكانت البداية في هذا الصف رفاعة الطهطاوي ، ونهايته - فيما ارتأى - على الغاياتي ، وبينهما جال في الميدان عبدالله النديم ، والبارودي ، وصبري ، وشوقي ، وحافظ ومطران ، ومحرم ، ونسيم ، والكاشف ، وعبد المطلب ، وأبو شادي ، وعبد الحليم المصري ، وعزيز فهمي. ونحن وان وافقنا على أن يسلك هؤلاء في شرف الوطنية إلا أننا لا ننسى ماضي أحمد نسيم الشاعر المحترف الذي وقف نفسه على مدح الانجليز والتغني بنعمائهم المزعومة على الوطن المسكين إلى ما قبل سنة ١٩٠٨ .

فهو الذي يخاطب الانجليز :

صاحب التاج أنت بالقوم أعلم	هم يودون أن تعيش وتسلم
ليس إلا إياك مولى مفدى	يبدأ القول في ثناه ويختم
وإذا قيل أين أعظم منه	لم نجد- للتقى- سوى الله أعظم

ويقول في وداع كرومر :

يا منقذ النيل لا ينسى لك النيل	يدأ لها من فم الاصلاح تقبيل

وبالرغم من ان المؤلف رسم خطة الكتاب ، بأنه تراجم لهؤلاء الشعراء ومختارات من أشعارهم الوطنية ، والمناسبات التي قيلت فيها ، وحدد هدفه بأنه يترجم للطائفة التي غلب عليها شعر الوطنية - بالرغم من هذا فقد اختلف النقاد حول هذا الطريق ، فنفوا كثيراً مما اثبت في سجل الوطنية لسبب أو لآخر ، كما اخذوا عليه اهتمامه بالأموات والأحياء معاً ، وأكثر من هذا أنهم عتبوا عليه انه حين أرخ للأحياء لم يأخذ معه فلاناً وفلاناً ، ولم يعرج على زيد وعمرو ، وحينما ارخ للراحلين تناسى هذا أو ذاك ، وأنه اهتم بالمشاهير دون سواهم ، وانه كان خاطف النظرة فيما كتب ، فلم يؤد واجب النقد ، ولم يوف حق الفن .

لكن له فلسفة ، وله وجهة نظر فيما أخذ وفيما ترك ، يحدثك عنهما حديثاً رصيناً مقنعاً، لكن حياءه الذي عرف به يمنعه أن يسجل ، ولو سجل لاتقى اللوم ، ولاتخذت المسألة اتجاهاً آخر يبرر مسلكه، بقدر ما يحرج كثيراً من مستوى الاحياء ، وينسف كثيراً من قبور الموتى،وليس هذا سبيله ، ولا ينسجم مع طبعه .

ولا أكذب القارىء ان كتابه احنق عليه كثيراً من شباب الشعر هنا، حين غض النظر عنهم،وفيهم الثائرون المتوقدون وطنية، ولكن اتزان المؤرخ الذي يتعمق الأشياء، ويتنظر بالأحداث نتائجها دائماً تجعله يقول عن إخلاص : « ان هؤلاء لم يكتمل اتجاههم بعد، فما زالوا في أول أشواط الحياة، ولا ندري إلى اي الدروب ستفضي بهم ، والمؤرخ المعتدل تأبى عليه أمانته العلمية أن ينزل ميداناً لم ينجل غباره بعد ». هذه جولة حول الكتاب ، ربما دلت على جو الكتاب وبيئته ومولده أكثر مما تتجه الى مادته، اما صميم الكتاب فتروك للقارىء ، وانا لا اشك في انه سيسعد بصحبته ، وسيشاهد بين دفتيه شريطاً تاريخيا مسلسلا لشعرنا القومي لم نظفر به متصل الحلقات من قبل..منذ بدأت نقطة التحول في تاريخ أدبنا بوفود مبعوثنا رفاعة الطهطاوي ، الذي نفخ في شعرنا روحا جديدا وإن أبطأ ، وأيقظ قوميتنا التي طال بها النوم ، وشردت بها الاحلام ، وتأرجحت بين العروبة والاسلام ، وتعثرت لغتنا الحيرى بين التركية الركيكة وبين المحسنات الفارسية السمجة المعقدة .

وسيلمح القاريء في هذا الكتاب تطورا لمدلول الوطنية في شعرنا، تبدأ بمدح الوطن، والتغني بمفاخره ، ثم تربط بين الوطن وحكامه ، حتى لتكون مصر هي الخديو ، والخديو هو مصر ، ثم يهب الشعب هبته المنتفضة في ثورة ١٩١٩ ، فيتجه الشعر الوطني نحو الاستقلال والتحرر ، ثم يحكم الشعب أبناؤه من الكادحين ، فيكون الشعر حمماً ينصب على الاقطاع والاستبداد ، ثم يسرع فيما يشبه الطفرة ليكون شعراً واقعياً يلاحظ ويسجل ثم يوجه ويقود ، ويسبق الى الاهداف يجليها ، ثم يسلط عليها أضواء الشعب ويغريه بها .

لقد جاء الكتاب في ابانه لفتة حكيمة ردت للشعر الوطني اعتباره ، وأصدرت حكماً في الجدل القائم حول الادب ومهمته في الحياة عامة ، وتأثيره في الثورة المصرية بنوع خاص ، فلقد أنكر الكثيرون فضل الأدب في هذه الفورات التي تفجر الالغام ، وتمهد الطريق امام تحرير الشعوب العربية ، حتى جاء هذا الكتاب يفصل في المشكلة بروح القاضي العادل ، كما جاء ليؤكد مع أمثاله وجهات النظر الفنية في مشكلات الحياة العامة للشعوب المكافحة ، ولقد ولد معه في هذا الموسم زميله « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » للدكتور محمد حسين ليكونا نواة لدراسات واسعة عميقة حول هذا اللون من الأدب الممتاز الذي يحتل مكان الهواء النقي في رئات الوطنية الثائرة في الشعوب العربية المتطلعة الى الحرية العزيزة.

القاهرة

رضوان ابراهيم

في ظلام الدرب

اذا الدربُ القى عليه المساء   ظلال الشكوك وهمس الريب
وعشش في جانبيه السكون   فنام الضجيج ونام الصخب
ولمت يد الله ثوب النهار   فأجفل في خطوه المضطرب

*

ولم يبق الا صياح السقاة   بمقهى هنالك في المنحنى
ومسرجة ذاب فيها الحنين   فأذهل إشراقها الواهنا
ولم يرها تحت كف الظلام   يعابثها الموت الا .. انا

*

وفي شرفة شاغلتها الرياح   فصرّت نوافذها في خجل
وقفت أدندن عبر المساء   لابعد عنيَ روح الملل
فيوقظني من خلال السكون   صغير بكى او كبير سعل

*

وطرقة باب عتيّ الصرير   كصوت عجوز عتيّ الكلام
تثاءب عن شبه إنسانة   تلقفها في يديه الظلام
فألقى عليها ظلال الخفاء   وألقت الى قبضتيه الزمام

*

وراحت بكفّ عريق المران   تلف ملاءتها العاريه
فتسدل في هذه الناحيه   وتحسر عن هذه الناحيه
وتقبضها حولها مرة   لتنشرها مرة ثانيه

*

وتلمس منديلها في دلال   لتبرز فتنته الاسره
فيجلب إيماضه التائهين   وتجثو لها الرغبة الثائره
ويحدو بها موكب الجائعين   وترنو لها الاعين الحائره

*

وفي فمها « لادن » حائر   يردد آهاته الضارعه
فتحنو عليه وتقسو عليه   وتشمت في بسمة رائعه
تُراها تمثل ما يصنعون   بها ؟ فهي في جسمه صانعه

*

وسارت وفي عينها رغبة   تُدل بها الخطوات الثقال
وفي الجسد اللدن انشودة   على ضفتيها يذوب الخيال
عجبت لابليس كم أحسنت   يداه وكم أبدعت من مثال

*

وفي جانب من زوايا الطريق   تراءى لها الامل المشتهى
تعقّبها آدمي الحنين   فأثنى عليها وغنى لها
وشق الظلام صغيرٌ غويّ   تبدّد مرتعشاً تائهاً

*

وزاحمها في خضم الفراغ   وكان حديثٌ قصير قصير
تحسس في جيبه ما تبقّى   من الليل. ذاك النهوم الكبير
وكانت مساومة حرة .   ولكنْ كلا طرفيها اسير

*

وفي غمرة الانتصار الضئيل   تلاقت عيونهما الجائعه
فضمت على سرها نفسها   وضم على شوقه اضلعه
وراحا وكلٌ له غاية ..   يحث اليها خطى مسرعه

*

وكان الذي كان من قصة   هنالك في الحجرة المظلمه
هنالك في حلقات الدخان   وفي عبق الشهوة الفاغمه
هنالك حيث السرير الجريح   يئن عسى الأرض ان ترحمه

*

هنالك والزور صدق نبيل   كأجمل ما رددته شفه
فكم من غرام بلا امنيات   تجود به القبلة الزائفه
وكم آهة ذوبتها الشفاه   وتنقصها الخفقة الراجفه

*

وكان وداعاً ذليل الخطى   بغير دلال ولا كبرياء
وكان وداعاً بغير كلام   بغير ابتسام بغير اشتهاء
فاين المساومة المدعاة   واين الهوى، يا عبيد الاماء ؟

*

وعادت ملاءتها من جديد   تلملم ما خلفته الوحوش
كأن اهتزازاتها المغريات   تحدث: من اين لي أن أعيش ؟
وعادت الى الدرب في بطنها   صراع. وفي راحتيها قروش

*

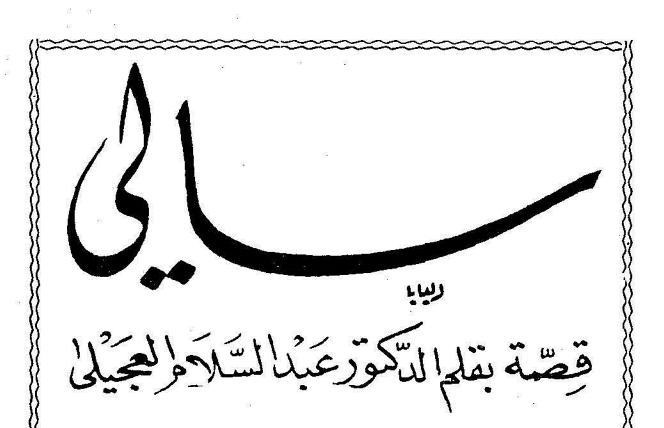
تلفتُ يا للخطى الحائرات   أأنتِ ؟ أأنتِ التي اعرف ؟
أأنت التي جئت من اجلها   أرود الحياة وأستشرف ؟
أأنت إذن قصة البائسات   يلذ بها القانص المترف ؟

*

وفي الدرب. في كل درب تراها   إذا اقبل الليل قامت تسير
تسير الى غاية ... مثلما   يسير على الارض خلق كثير
ألم ينم الكون من اجلها   ليحدث في الليل .. شيء صغير ؟

القاهرة

محمد اسماعيل هاني



كنت واقفاً عـلى رصيف شارع كونغسغاتان اتطلع الى الأنوار المتلألئة فيواجهات الحوانيت الأنيقةوعلى نواصي البنايات الفخمة في هذا الشارع الرئيسي من شوارع ستوكهولم،حين لمحت فتاتين تقفان الى جانبي تتطلعان الي في الحاح وتتحدثان كأنهما تتحدثان في شأني . قالت احداهما لرفيقتها — ولم اكن افهم حديثهما ولكن سالي روته لي فيا بعد — قالت احداهماوهي الحمراء الشعر لرفيقتها:

— الا ترين الى هذا الفتى الاسمر الوجه الأسود العينين ؟ انـه يعجبني واشتهي ان احدثه .

فقالت صاحبتها :

— انـه غريب ، فجربي ان تحدثيه بالانكليزية ... ولكن كيف تبدأينه بالكلام ؟

فلم تجبها ذات الشعر الأحمر . على اني كفيتها مؤونة الاجابة ، فقـد لحظت تطلعهما اليّ وحديثهما فبدأتهما انا بالسؤال عما اذا كانتا من ستوكهولم ام انهما غريبتان عنها مثلي . فقالت الأولى :

— انني من لوند واعمل هنا موظفة في البريد ، وصاحبتي هـذه من غوتنبرغ وهي تعمل سكرتيرة لطبيب . ونحن نسكن غرفة واحدة سينتهي ايجارها بعد اسبوع ، ولذلك فاننا في سبيل البحث عن غرفة غيرها .

فضحكت وانا ارى اليسر والبراءة اللذين نفضت بهما كل هذه المعلومات اليّ ، وقلت :

— آسف على اني لست بالكبير الفائدة لكما في هذا . فأنا قليل المعرفة بهذه المدينة ، حللت بها اول امس قادماً من باريس . ولكني استطيع ان ادعوكما الى تناول قدح من القهوة في « ريغن بيغ » ، المقهى الذي أرى من هنا واجهته مضاءة بالوان قوس قزح ، كاسمه .

فقالت حمراء الشعر ، دون ان تغيب لهجة البراءة من حديثها :

— ان ميربيت ، رفيقتي ، عـلى موعد . اما انا فيسرني ان اجيب دعوتك .

وقرنت قولها بالفعل فتقدمتني الى مقهى الريغن بيغ بينا ودعتنا ميربيت ، رفيقتها ، ذاهبة الى موعدها .

وهكذا عرفت سالي اريكسون في تلك الامسية في ستوكهولم . كانت سالي ، كما قلت ، حمراء الشعر وكانت فوق ذلك وردية البشرة ، لها شفتان مضمومتان لم تكن تصبغهما فكانتا تبدوان بحمرتهما الطبيعية لفتاة تنفجر صحة وشبابا ، حمرة غريبة اقرب ما تكون الى لون النار كأنما انعكس على اديمها لون شعرها الملتهب . وكان قدها الملفوف رشيقاً على ملاءة ، تتكفأ في مشيتها كلما اسرعت كأنها تلميذة مدرسة حديثة عهد بلبس الحذاء ذي الكعب المرتفع . ولقد طوقت خصرها بذراعي وقبلت شفتيها تلك الليلة بعـد ان خرجنا من ملهى « شينا » في ساحـة نيبرو بلان ، وفي الزاوية التي كنا ننتظر فيها مرور عربة الترام ، فلم تبعد ذراعي عن خصرها ولا مانعت في تقبيلي شفتيها . ولكنها ، حين اخذت بين يدي محياها لأرى في عينيها مدى ما اثرته في نفسها فعلتي ، قالت لي في هدوء :

— نحن لم نتعارف الا هذا المساء !

فشعرت بان عتبها الهادىء هذا قد سكب الماء البارد في عروقي واطفـأ الرغبة العارمة في جوانحي ، واخجلني . وبعد ان سكتت سالي قليلاً قالت :

— انك قادم من باريس . يقولون ان الناس يقبل بعضهم بعضاً في الشوارع هناك . ولكنك قل ان ترى هذا هنا .

فتطلعت حولي وانا احسب ان كل من في الساحة كان ينظر الينا ، ولكني لم ار احداً . ولما التفت الى سالي رأيتها تحدق فيّ بعينيها الرماديتين البريئتين ، ثم ترفع كفها الرخصة الدقيقة الاصابع فتمسح بها خدي ...

وكانت سالي تعمل في دائرة البريد اثناء النهار . اما انا فقـد كنت في تلك الاثناء اتنقل بين المتاحف والحدائق والمعالم القديمة للجزر القائمة عليها مدينة ستوكهولم . فاذا حل المساء حل معه موعدي مع سالي ، فالتقينا على اريكة من ارائك الريغن بيغ ثم خرجنـا نطوف بين كهوف المدينة العتيقة التي حورت لتصبح مطاعم على طراز ايام القرصان ، او على الارصفة المقفرة على ساحل البحر الذي يتخلل المدينة من كل جانب ، او في ملاعب سكانسن ، حديقة الملاهي ، الساطعة بالانوار . وفي بعض الاحيان كانت سالي تصعد معي الى غرفتي في الفندق ، فتتلهى بتقليب مجموعـة الصور التي احتفظ فيها بذكرياتي من باريس ومن ايام دراستي في دمشق او من عهود صباي في بلدي وباديته على الحدود في شمال سوريا ، بينا اتكىء انا الى جانبها ارقب الاهتمام الشديد الذي يبدو على محياها كلما وقعت عيناها على صور اهلي واصحابي في ملابسهم البدوية وعلى ظهور خيولهم . وبين الحين والحين كنت اخلل يدي في شعرها او اصرفها عن الاهتمام بالصور بضمها الى صدري وتقبيل ثغرها . حينذاك كانت سالي تلقي الصور من بين يديها وتضع رأسها على صدري مستسلمة في وداعة لمداعباتي ما دامت رقيقة ، فاذا آنست مني الحاحاً او احست من نفسها ضعفاً عرتها انتفاضة ثم جذبت نفسها من بين ذراعي وامسكت بكفيها اصابعي وتطلعت في عيني بتلـك النظرة الهادئة فاحس من جديد بذلك الشعور الذي تملكني حين عاتبتني عتابهـا الرقيق اول ليلة . وما اعجب ما تتبدل بـه حالي بعد تلك النظرة . كل رغبة تلهب عروقي في هذا الجسد الصبي الشهي تتبخر وتصبح رفقاً وحناناً . أرفع عندئذ كفي سالي الى شفتي ثم آخذ بيدها لأوصلها الى موقف الترام قبل فوات الوقت ، لتستيقظ صباح اليوم التالي وتستأنف عملها فياضة بالحيوية بريئة من كل شائبة .

الى ان رحلنا معاً ، انا وسالي ، الى ابسالا . وكانت رحلتنا معاً نتيجة لطردنا من غرفتينا في ستوكهولم ، انا من غرفتي في الفندق وهي من غرفتها في النزل الذي كانت تسكنه مع ميربيت . وكان طردي انا مفاجأة لي. فحين مررت بمكتب الفندق ذلك الصباح وجدت في الكوة الخاصة بي في لوحة النزلاء ورقة بحسابي مع رجاء بتسديده قبل مغادرة الفندق . ودهشت من تلك الفتاة التي كانت تحتل مكتب الادارة والتي قلت لها اني لست انوي



مغادرة الفندق ، دهشت منها حين قالت لي انها آسفة كل الاسف، فلقد كنت انبأتهم يوم قدومي ان اقامتي لن تطول الى ابعد من هذا اليوم، ولذا فانهم حجزوا غرفتي لنزيل جديد ، وانها آسفة ايضاً على انها لن تستطيع اعطائي غرفة اخرى اذ ان كل غرف الفندق محجوزة لاسبوعين، فنحن مقبلون على مهرجانات سانت اريك ماسان ، وهي موسم من مواسم ستوكهولم يقبل عليها فيه الزوار من كل حدب وصوب . وكانت فتاة الفندق جد مهذبة في الفاظها الحازمة، كما كانت جد لطيفة حين اتصلت بكل فندق في المدينة فلم تجد في واحد منها غرفة شاغرة، وكل ما قدرت عليه هو ان تجد بوساطة ادارة السياحة غرفة عند سيدة وحيدة في ضاحية كونغسهولمن قبلت ان تستضيفني بأجر يومي قدره عشرة كورونات . ولم يكن امامي غير الامر الواقع ، فحزمت امتعتي واستقللت سيارة اجرة الى ضاحية كونغسهولمن الحديثة البناء الفسيحة الارجاء . وبعد ان رتبت امري هناك عدت الى مقهى الريغن بيغ وموعدي مع سالي .

اما سالي فقد كان طردها من غرفتها متوقعاً ، فهذا آخر يوم لها من ايجارها . ولكنها كانت تأمل ان تصل صديقتها ميربيت الى حل لأزمتها في هذا اليوم بينما كانت هي ، اعني سالي ، تعمل في مكتبها في دائرة البريد. فلما التقينا في المساء امام الريغن بيغ عرفت انها قادمة لتوها من المحطة الرئيسية في ستوكهولم حيث اودعت امتعتها في ردهة الامانات في تلك المحطة . ذلك ان ميربيت عجزت عن أن تجد، في موسم سانت اريك ماسان ، غرفة خالية، فالتجأت الى ضيافة قريبة لها وتركت سالي الى امرها تتدبره. ولحظت الضيق الشديد الذي كانت سالي فريسة له والغيظ الذي لم يألفه طبعها الوديع ولا نفسها الرقيقة حتى لتكاد ان تنفجر منه عيناها دمعاً ، فأخذت بيدها واجتزنا ساحة نورماستورغ والشوارع الضيقة التي تليها حتى انتهينا الى الرصيف المقفر على لسان البحر الذي يفصل بين دار الاوبرا والقصر الملكي . وبينما كنا نقف مستندين الى سياج جسر فازا نتأمل في انعكاسات اضواء الزينة في القصر الملكي على مياه الترعة ، صاحت سالي في نزق :

– تأمل! عشرات الحجر في القلعة الملكية مقفرة لا يتنفس فيها انسان، وانا ابحث عن سرير خال في كل ستوكهولم فلا اجد .. سأكتب الى الملك بهذا.

وسكتت لحظة ثم قالت كالمستدركة :

– سيكون ذلك بعد فوات الوقت. اين انام يا ربي هذه الليلة ? سألقي بنفسي في مياه هذه الترعة .

وتقدمت نحو حافة الجسر في خطوات ثابتة حتى لقد حسبت انها ملقية نفسها حقاً ، فأمسكت بها وانا اقول متضاحكاً :

– ماذا تفعلين ? سألقي بنفسي في اثرك .

قالت :

– انت ستنام الليلة في سريرك في كنغسهولمن ، اما انا فليس لي إلا مياه الترعة . قل لي ، ألم تكن تريد الذهاب الى ابسالا ?

قلت :

– بلى ، وقد اقترحت ذلك عليك منذ ايام.

قالت :

– غداً يوم احد ، فلماذا لا نذهب هذا المساء?

فعجبت كيف لم يخطر ذلك ببالي قبل ان اذهب بامتعتي الى غرفة السيدة الوحيدة في كنغسهولمن. وتطلعت الى ساعتي ، وكانت حوالى الثامنة مساء، وقلت لسالي:

– هل هناك قطار الى ابسالا في هذه الساعة? وهل تحسبين اننا واجدون فندقاً يؤوينا ام ان سانت اريك ينتظرنا هناك ليعاملنا في ابسالا معاملته لنا في ستوكهولم ?

فاخذت سالي بيدي وجرتني وهي تسرع بمشيتها المتكفئة وتقول :

– تعال معي الى غرفة التلفون . سنتصل بفنادق ابسالا فلا بد من ان نجد من يعطف علينا فيها .

ولم يكن الأمر هيناً على ما بدا لي . فبينما كنت في ردهة الانتـــظار اتلهى بتقليب مجلدات دليل الهاتف كانت سالي تطلب، بالتلفون، فنادق ابسالا فندقاً بعد فندق . وكنت الحظها من خلال زجاج غرفة المخابرة وهي تقلب الدليل وتضع في ثقوب الآلة الاوتوماتيكية قطعة نقد معدنية في اثر قطعة. ورأيت وجهها ينبسط بعد طول تقطيب ثم خرجت اليّ وهي تقول :

– وجدتها... امامنا ساعة وعشر دقائق لنلحق بقطار ابسالا المقبل. فعلينا ان نعجل بالذهاب الى كنغسهولمن ، وعليك انت ان تجد عذراً لائقاً لتبرر تركك غرفتك هناك قبل ان تمضي فيها ليلة واحدة . هيا فالوقت ضيق .

فتبعت سالي دون ان اسألها ايضاحاً. وبينما كنت احزم امتعتي للمرة الثانية في يوم واحد واضعها في حقيبتي كانت سالي تثرثر مع صاحبة الدار ، وهي عجوز طاعنة في السن نحيلة القد يحمل رأسها اكليلاً ناصع البياض من الشعر الاشيب. ولما خرجت من الغرفة احمل حقيبتي بادرتني العجوز بسيل من الكلام فهمت منه انها آسفة لمفارقتي اياها ، واشارت الى مجموعة من الكتب كانت ملقاة على مائدة الردهة. فلما قلبت تلك الكتب لحظت انها كتب باللغة السويدية تبحث عن الشرق الادنى والبلاد العربية وسوريا، ففهمت انها قد نفضت الغبار عن هذه الكتب من مكتبتها لتعرف شيئاً عن نزيل غرفتها هذه الليلة، هذا العربي . وبينما كنت اتأهب لتوديعها لفتت نظري بين الكتب مجموعة تشبه ان تكون كتاباً مخطوطاً . فلما قلبتها وجدت بين اوراقها المكتوبة باليد عدداً من الصور الشمسية القديمة لاعراب على خيولهم بجانب بيوت من الشعر وخيام منصوبة . وكم كانت دهشتي عظيمة حين رأيت بين تلك الصور صورة للخان ، وهو بناء اثري يقع قرب بلدتي في بادية العشيرة التي انا منها ، لا يزال رسمه منقوشاً في ذاكرتي من ايام صباي حينما كنـــا ننزل سفحه ايام الربيع ونرعى اغنامنا في سهوله المعشبة . ولم يكن لديّ وقت اضيعه في تأمل الصور والاستفهام عن الكتاب المخطوط فقد كانت سالي تستحثني للحاق بالقطار قبل فوات الوقت . فهززت يد السيدة العجوز معتذراً وانطلقت مع سالي الى سيارة التاكسي التي كانت تنتظرنا .

ولما انطلقت بنا السيارة الى المحطة قالت لي سالي :

– نسيت ان اخبرك . سننام في ابسالا في غرفة واحدة. لم اجد في كل فنادقها غير هذه الغرفة لهذه الليلة .

فتطلعت اليها لأرى التعبير المرتسم على وجهها وهي تقول لي هذه الكلمات، ولكن الظلام كان يلف محياها. وبينما كانت السيارة تدور في احد المنعطفات التصقت سالي بي ، فطوقت حينئذ جسمها بذراعيّ واغرقت في شعرها العطر شفتي ...

٢

في مضافة الربعة ، وهي جناح الضيوف في بيت الشعر الرحيب الذي كان لنا في مقامنا على بئر الأكحل قرب الخان ، كنت اقص في همس على لداتي من الشباب المحيطين بالنار الموقدة بعض قصتي مع سالي . وكان الوقت آخر ليل من ليالي الربيع والضيوف يغطون في نومهم في جوانب المضافة . وكان دحام، وهو خادم بيتنا العجوز ، ينام قريباً منا ملتفاً بفروته متوسداً ذراعه. فلما وصلت الى وصف مفاتن سالي ، سالي التي ما كان ابعدها عني في هـــذا الليل وهذا المكان ، سمعت من ورائي صوت دحام وهو يقول :

– اني اعرف هذه البُنيّة .

فالتفتنا جميعاً اليه دهشين من ان يسمع نجوانا هـــذا الشيخ ونحن نظنه غارقاً في رقاده . وتسلل نور لسان من اللهب الى وجهه ، فرأيناه يرفـــع رأسه من مرقده وسمعناه يقول مؤكداً :

– نعم اني اعرفها .

فصاح به احدنا :

– من هذه التي تعرفها ؟

قال :

– البنت التي تتحدثون عنهـــا . فتاة حمراء الشعر وجنتاها بلون الورد وعيناها زرقاوان .

قلت انا ضاحكاً :

– اخطأت في هذا يا عم دحام ، فان عينيها رماديتان .

فصاح كالمغضب .

– بل هما زرقاوان . زرقاوان بلون الفيروز الباهت ، او بلون سماء الربيع اذا تقشع عنها الغيم بعد هطول مزنة عارضة . اني اعرفها جيداً .

وخيل الينا جميعاً ان دحام كان يهذي من حلم راه في نومه . فلم تكن لهجة المزاح بادية في حديثه . وكان قد نهض من مرقده وأخذ مكانه بيننا على النار يمد يديه اليها ليستدفىء من قر آخر الليل . فقلت له :

– واين عرفتها يا عم دحام ؟

فلم يجب ، وانما عبّ نفساً عميقاً من اللفافة التي قدمها اليه واحد منا وهو ساكت . وكان سكوته ادعى الى ان نركز انتباهنا فيه وان نثبت انظارنا عليه . ولعله شعر بأنه اثار من فضولنا ما فيه كفايته فلم يلبث ان قال :

– عرفتها هنا عند بئر الأكحل في سفح تلعة الخان . وكان ذلك منذ... منذ خمسين عاماً .

فضحك بعضنا وقال واحد من الشباب :

– ارجع يا دحام الى مكانك ونم ، فانك تهذي ...

ولكنني اردته على ان يتكلم لأرى الى اين ينتهي بهذيانه وقلت له :

– لا تسمع لما يقولون يا عم دحام وقل لي كيف عرفتها .

فأحكم العجوز جلسته على حافة حفرة الموقد وتطلع اليّ بعينيه المختفيتين وراء تجاعيد وجهه ، ثم قال :

– نعم يا بني كان ذلك منذ خمسين عاماً ، وفي منزلنا هـــذا وفي ربيع مثل ربيع هذا العام .

وسكت قليلا كأنما كان يستجمع ذكرياته ثم انطلق يتحدث ، موجهاً اليّ حديثه :

– منذ خمسين عاماً لم تكن الدنيا مثلها اليوم ، وكانت مثلها اليوم . لم تكن الأرض ضيقة ولا الناس كثيرين يتزاحمون تزاحمنـــا نحن وعشيرة الصفرات على ارض الخان وبئر الأكحل . بل ان عشيرة الصفـــرات في الايام ما كانت تجسر على ان ترد بئر الأكحل الا بعد ان يقبل جـــدك فياض ذبائحها وبعد ان يصدر كل رعـــاة البادية عن هذه البئر . ولكن الايام تغيرت يا بني وجاء يوم نضطر فيه ان ننزل الربيع كله على البـــئر وايدينا على سلاحنا لنمنع الصفرات من ورودها وفلاحة هذه الارض .

لم تكن الدنيا منذ خمسين عاماً مثلها اليوم جرأة من الضعيف على القوي ومن الباطل على الحق . ولكنها كانت مثلها اليوم خصباً وريف بادية . وانتم الذين تعلمتم في المدارس تعرفون اشياء كثيرة عن الارض والسماء ، ولكني شيخ عاش عمراً طويلا وسمع الروايات من آبائه واجداده . اظن ان الدنيا تجدد شبابها مرة كل اربع وعشرين عاماً . في صباي كنت انحني من على ظهور حماري لأقطف ورد البادية في الربيع واخوض في العشب الى ما دون ركبتيّ . ثم ضاعت البركة من الارض فسفت عليها الرمال وشققت صفحتها الأخاديد واهلكها القيظ في الصيف والصقيع في الشتاء ، وها هي اليوم تعود سيرتها الأولى . يا صلاة النبي على ربيع هذا العام . ما اشبهـه بذلك الربيع حين نزلنا منزلنا في سفح قلعة الخان وزارنا فيه اولئـــك الاروام وبينهم تلك الصبية ذات الشعر الأحمر الملتهب والعينين الزرقاوين كأنهما فيروزتان في محيا من الورد الندي .

نعم كان ذلك منذ خمسين عاماً ... كان اولئك الأروام يحملون فرماناً من السلطان ويتنقلون على خيول مطهمة وعربات ذات لوالب . وكانوا ستة من الرجال وفتاة ، تلك الفتاة ، وهي ابنة واحد منهم وخطيبة آخر . ضربوا خيامهم قرب الخان واستأجروا رجالاً منا يحفرون في هذا البنـاء الخرب ليبحثوا ، على قولهم ، عن آثار قوم مضوا . اما نحن شباب تلك الايام فما كان يهمنا من امرهم الا رؤية تلك الدمية ذات الوجه الضاحك وهي تطلع علينا في كل صباح بقدها الأهيف او تجلس معنا في كل مساء على النار مجلسنا هذا ، بينا نحن نتسابق على خدمتها ونمتع اسماعنا بصوتها وهي تلثغ بلسانها الرومي كلما حاولت ان تقلد واحداً منا في كلامه او تجاريه في غنائه .

وهنا سكت العجوز ومضى يحرك بعود في يده اطراف جذوع الطرفاء الملتهبة ويلم بعضها الى بعض وكأنه بذلك كان يلم بقايا ذكريات رسبت في اعماق خاطره الهرم . ثم لم يلبث ان عاد الى حديثه ونحن حوله نصغي اليه فقال :

– كان اثنان من تلك الجماعة يتكلمان بلساننا العربي افصح كلام . ولكم حدثانا في عشايا ذلك الربيع احاديث عجيبة عن بلادهم تلك البعيدة حيث تغمر الثلوج مراعيهم في معظم ايام السنة وحيث القطعان ليست ابلا ولا شياهاً بل وعول من ذوات القرون المشتجرة . في تلك البلاد ، على ما كانا يرويان لنا ، تغيب الشمس عليهم ولا تغيب . فهم في منتصف الليـــل في نور يستطيع خائطهم فيه ان يسلك الخيط في سم الابرة دون ان يستعين بنور المصباح . كلهم هناك مثل هؤلاء الستة طول قامة وزرقة عيون وشقرة شعر . الا ان الفتيات هناك لسن كلهن مثل هذه الصبية في حمرة الشعر . حمرة غريبة كحمرة جمر الرمث في نار عظيمة . فلا بد ان هذه الفتاة بدع بين لداتها هناك ، بل هي ولا شك بدع بين صبايا العالم اجمع . كنا كلنا على إيمان وطيد بهـــذا ولا سيا ، رحمة الله عليه ، زين شباب تلك الأيام عمك – والكلام موجه اليّ – عمك حمود .

عمك حمود ... لقد كان اوحدنا وفارسنا منذ خمسين عاماً . انت اليوم يا بني حين يضيق صدرك تمتطي سيارتك الزرقاء وتدير رأسها نحو القرية او الى المدينة الكبيرة او الى البلاد التي وراء البحر لتسري عنك همك . اما عمك حمود فقد كانت عنده فرسه الهدباء ، شقراء ذهبية في لون الافق اذا كان الافق غائماً وكانت الشمس تخفي ذروتها دونه عند المغيب . فلو انك يا بني امتطيت هدباء مثل تلك الفرس الكحيلة ونظرت الى نفسك في مرآة لرأيت عمك حمود على ظهر فرسه ، فانك مثله طول قامة وسمرة وجه وكثافـــة حاجبين . فلا عجب اذا وقعت في هوى صاحبتك ذات الشعر الاحمر التي كنت تروي رواياتها لاصحابك ، فعمك قبلك وقع في هوى تلك البنية . ولا عجب كذلك اذا غرقت صاحبتك الى اذنيها في هواك فكذلك فعلت تلك في هوى عمك . ولو نطقت مواطىء حوافر الخيل في هذا السهل الذي ننزله اليوم لحدثتنا عن جولات ذلك الفتى وتلك الفتاة على ظهر فرسيهما في سفوح التلال المعشبة واغوار الوهاد الندية . اما النجوم ، نجوم هذه البادية الفسيحة

فكم رأتها ممددين على ظهريهما يستطلعان اليها في هذه الربعة ، دون ان يتكلما . وانّى كان لهما ان يتكلما وما كان احدهما يفهم من حديث الآخر لفظة واحدة ...

وسكت دحام ليجذب نفساً عميقاً من لفافته ، وليستريح . وكان رفاقي يصغون اليه غير مصدقين كأنهم كانوا يرون انه لا يزال يهذي. فقلت له انا:

– غريب ما تقصه علينا ياعم دحام هذه الليلة.لم اسمع بهذا من احد غيرك قبلاً . اولم تزعم ان خطيب تلك الفتاة وأباها كانا معها ؟

فقال دحام :

– انك لم تسمع هذا الحديث لأن جدك فياض رحمه الله حرّم ، بعدان جرى ما جرى ، حرم ان يذكر احد من الناس تلك الفتاة في مجلسه . اما في تلك الأيام فقد تحدثبها الركبان وغنى بها الشعراء على ربابتهم.وانا لا ادري يا بني ما الذي دفعني الى ان اتحدثاليكم بهذا الحديث فيهذه الليلة، لعل ذلك لأني سمعتكم وانا بين النوم واليقظة تتحدثون احاديث الصبا،والليل كما ترون ليل ربيع في آخره وصوت احتراق هذه الأعواد في الموقد يهيج الذكريات ، والنجوم ، تلك النجوم التي اراها من هنا فوق كاسر الربعة ، هي نجوم تلك الليالي منذ خمسين عاماً بذاتها ... لعل هذا كله هو الذي دفعني الى ان اهجر مضجعي لأحدثكم حديث تلك الفتاة المحرم . لو علم ابوك بحديثي هذا لما كان عني راضياً .

قلت :

– وماذا يهم ابي من هذا ؟

قال دحام وهو يتلفت وراءه الى حيث جناح العيال من الخباء ، كأنه يخاف ان يسمع ابي حديثه :

– لأن ذلك يحيي جرحاً قديماً من جروح قلبه ...

فصاح احد الفتيان :

– ماذا ، هل وقعت الأسرة جميعها في غرام تلك الفتاة الرومية ؟ وانت ايها الشيخ العجوز ، ألم تكن تحبها ؟

فلم يرفع دحام رأسه ، ولم يجب على سؤال السائل . وانما عبّ آخر نفس من لفافته ثم أخذ يتشاغل باطفاء عقبها على حافة حفرة الموقد ثم في دفنه في قلب رماد حطب الطرفاء . ولما استأنف حديثه استأنفه هامساً ، فقال :

– ان سهل الخان والبادية التي تحيط ببئر الأكحل هي منزلكم ومنازل آبائكم واجدادكم قبلكم . ومنذ خمسين عاماً سال ، او كادت تسيل ، في هذا السهل دماء أخوين تنازعا في هوى فتاة رومية حمراء ، ويشهد الله انه كان هوىٍ كهوى مجنون ليلى وبني عذرة ، لاشين فيه . ولكن عشيرة الصفرات تقف اليوم على حد هذه البادية من الشمال وتريد ان تتجاوزه الى بئر الاكحل . فاذا رغبتم بهذا فأنتم ، يا شباب ، ابناء رعاة غنم اهلكم ولستم ابناء آبائكم ...

وسكت دحّام ، فخيم السكوت علينا في الربعة . الا اني مزقته بقولي:

– لا تحاول ان تتهرب من القصة يا عم دحام . انك ترانا نسهر الليل حتى الصباح في مناجزة الصفرات وننتظر اليوم الذي يتصافح فيه رصاص بنادقنا برصاص بنادقهم . ولكن قل لنا ، تلك الحمراء هل احببتها انت ام لا ؟ وقل لنا كذلك من الذي كان اقرب الى قلبها ، على قرب خطيبها منها ، ابي ام عمي حمود ؟

فتضاحك دحام وهو يقول :

– آه من الشباب ! انتم في واد وانا في واد يا ابن اخي . ألم اقل لك انك شبيه عمك كأنك شقيقه التوأم . ؟ . ام تريدني ان انال اباك بالمذمة وانا اقرنه بأخيه ؟ .. دعوني من هذا .

ودوت ، ودحام في حديثه هذا ، طلقتان بعيدتان ارتفع لهما نباح الكلاب فثرنا من اماكننا وتناولنا بنادقنا ، كما ارتفعت من جانب العيال نحنحة ابي المألوفة تعلن انه استيقظ وانه قادم. الا ان آتياً من جانب النزل هدأ الضجة بأن ليس هناك ما يشغل البال ، فعدنا الى حيث كان دحام نريد الاستزادة من حديثه . غير ان دحام لم يكن يهوى الافاضة في الحديث اذ انه اشار الى حيث ارتفعت نحنحة ابي وقال كالمحذر :

– انه قادم ، فهيا تفرقوا الى مضاجعكم واياكم وان تنكأوا الجراحات الملتئمة !

فتفرقنا ، ذهب من كان ذاهباً الى خباء اهله واندسست انا في جانب من المضافة في فراشي .

لم يكن النوم بعيداً عن عيني ، فلقد سهرت طويلاً حول ربابات ابناء عمي في اول الليل وعلى حديث دحام في آخره . ولكن سالي خطرت لعيني كما رأيتها في آخر ليلة لنا في ابسالا ، خطرت بكل جمالها وفتنتها ، الا ان عينيها لم تكونا رماديتين بل كانتا زرقاوين بلون الفيروز الباهت او بلون سماء الربيع بعد هطول مزنة عارضة . لقد عدت من ابسالا منذ زمن بعيد ، ومن اوروبا كلها منذ اربعة اعوام ، وها أنا الآن في البادية حول بئر الأكحل قرب الخان احيا حياة لا تمتّ بصلة الى حياتي كطالب حقوق مزمن في الحي اللاتيني في باريس . دراستي هناك لم اتمها لأن ابي استدعاني اليه حين رآها لا تميل الى الانتهاء ، ورأى ان كل فضائل البدوية مهددة بالتلاشي في جو البلاد الغربية . ومنذ قدمت بلادي ألقى بي في خضم الحياة التى عاشها هو والتي اعدني لها لأحل ، ذات يوم ، محله من العشيرة في الحفاظ على حقها من الأرض والمنعة ومن المكانة بين العشائر . اربعة اعوام قضيتها اتنقل بين القرية والمدينة الكبيرة بقربها ، وبين البادية ومزارعنا في اطرافها . احسبني في هذه الأعوام الاربعة قد جزت الامتحان وحققت لأبي كل ما تمنى فيّ الا شيئاً واحداً ، وهو ان اتزوج واعقبه حفيداً . فانا لم اعقب ولداً ولا تزوجت . اما فيما عدا ذلك فقد ثبت لأبي انني ابنه ومن صميم قومي ، ولا سيا في مقامي كل هذا الربيع في سفح قلعة الخان عند بئر الأكحل اناجز عشيرة الصفرات العداء واحول بينهم وبين التسلل الى ارضنا .

الخلاف بيننا وبين عشيرة الصفرات على بادية بئر الأكحل هو الخلاف على كل ارض في هذه الأيام . كل من حفر بئراً في البادية فهي له وماحولها من الارض . ومن نزل منزلاً في السنين المتعاقبة في هذه السهول الشاسعة فهو له . ما أعجب شريعة القبائل في التملك . فقبيلة الطوالع ذهبت ببادية الخبرات حين جاءت بمن شهدلها الشهادة الثابتة المقبولة ان جداً من اجدادها طرد ثعلباً على فرسه فصرعه بعصاه ثم دفن تلك العصا في قاع خبرة من تلك الخبرات . اما بادية بئر الأكحل فان عشيرة الصفرات تنازعنا الحق فيها ونحن الذين حفرنا بئرها وضربنا السنين الطوال اوتاد اخبيتنا في سفح خانها الأثري ، بل وعشقنا الصبايا الروميات في ارجائها ، اولئك الصبايا الزرق العيون الوردية الوجنات الحمر الذوائب .

كنغسهولمن ، والخان ، وابسالا، وسالي ، وعمي حمود...احسست وانا بين اليقظة والنوم بان ثمة روابط تربط بين كل هذه المعاني والصور . ألمار صورة الخان بين صفحات ذلك الكتاب المخطوط الملقى على منضدة العجوز في كنغسهولمن في ستوكهلم ؟... والصورة التي اورتنيها سالي في تلك الليلة ، تلك الليلة في ابسالا ؟...

تلك الليلة ...

اغلق الخادم وراءه باب الغرفة بعد ان تمنى لنا ليلة سعيدة ، وانصرف .

وكنا قد بلغنا ابسالا بعد منتصف الليل بعد رحلة في القطار استغرقت نحواً من الساعتين قضتها سالي متكئة على كتفي، لا تتكلم ، غافية . اما انا فلم اغمض اجفاني على عيني طوال تلك الرحلة ، ولكني كنت فيها ساكتاً ساكناً احاذر ان آتي بحركة فازعج بها الرأس الجميل المتكيء على عضدي. اما خاطري فكان يعيش بالذكريات والأفكار ، ذكريـات وافكار لم تبارحني حتى في هذه الآونة وانا منطرح بكل ثيابي على احد سريري هذه الغرفة الصغيرة الآنيقة في ملحق الفندق الذي نزلنا فيه في ابسالا، اتطلع الى سالي وهي ترتب امتعتي وامتعتها في هدوء وتسدل الستائر على النوافـذ في تباطؤ كأنها تتعمد ان تطيل بيني وبينها شقة السكون قبل ان تمزق بيننا الحجب ، كل الحجب .

كنت منطرحاً ، بكل ثيابي ، على احد سريري الغرفة . انا في ابسالا، من انا ؟ فتى من الشرق ، طالب حقوق في باريس يقضي اسبوعين من عطلة الصيف في بلاد السويد . ما ابعد ما بين تلك القرية الصغيرة الملتهبـة الجو المغبرة الأفق الغارقة في البداوة والضائعة في سهول شمال سوريا وبين هذه القرية في ضواحي ستوكهولم . قرية ليست ضائعة بين مدن اوروبا الكبرى فان تاريخها وجمالها وجامعتها ، جامعة ابسالا الشهيرة ، قد احاطت اسمها بهالة من الشهرة حببت زيارتها الى كل الناس حتى اليّ ، انا الذي برمت بجامعة باريس وبدروسي الفاشلة فيها . ان الساعة التي تتناهى اليّ دقاتها قد تكون ساعة جامعة ابسالا في واجهة بنائها الرئيسي او ساعة القلعة الجبارة التي بناها ملوك سفيا ، او ساعة الكاتدرائية الرائعة التي ترجع الى خمسة قرون مضت. والاضواء التي تلوح لي من خلال فرج الستائر في نوافذ المدينة النائمة قد تكون الاضواء التي تنير مجلدات الكتب التي يقلبها احد العلماء الاعلام، او اضواء باحث في مختبر ، او اضواء الحب في خلوة عاشقين . ما اروع الليل في هذه البلدة الصغيرة وما اجمل ابسالا ! ولكن اجمل من كل ما في ابسالا سالي ... سالي الحمراء الشعر الناهدة الصدر النارية الشفتين . سالي التي ستنضو عما قليل هذا الثوب الأزرق الذي يلف مفاتن قدهـا ثم تلقي بنفسها ، جسداً فاتناً وروحاً جميلة ، بين ذراعيّ وعلى صدري...

عجيب ما تأتي به الايام ! هل كنت ، حين مرت الرحلة الى السويد في بالي ، افكر بأني سأقضي ايامي هنا مع فتاة مثل سالي؟ كنت حينذاك افكر في فيرا وغرترود وماريان من صديقاتي وصديقات رفـاقي في باريس ، في اولئك النورديات الجميلات اللواتي كن يقبلن على اللذة بين احضاننا دون تردد ، ودون تهالك ، كأنهن باحثات يسعين وراء مجهول ليتعرفن عليه ، فهن لا يتورعن ولا يندفعن.ولكن سالي فتاة غير ذلك ، فتاة عرفت كيف توقفني عند حدي دون ان تزهدني بنفسها، وان تسلب لبي بسحر من براءتها ما كنت احسبني انقاد اليه في ذات يوم وانا الذي اضاع ايامه ، بل سنيّ دراسته ونجاحه في تلك الدراسة ، في باريس ينقل هواه من فتاة الى فتاة ليكتشف ان وراء كل علاقة بالروح شهوة جسدية عارمة او غاية مادية محسوبة بالارقام . كنت اعد نفسي لتلقي دهشة اصدقائي وسخرية صديقاتي في حلقات مقاهي الحي اللاتيني حين اعود اليهم في باريس فأقص عليهم كيف قضيت اسبوعيّ في بلاد السويد في هوى عذري بريء وعلاقة افلاطونية نقية.وكان ذلك حسبي من سالي . ولكن هذه سالي نفسها هي التي تختار لي ولها ان تضمنا غرفة واحدة في هذا الركن الهادىء المنعزل في اقصى بلاد الدنيا في ابسالا .. فاذا احبت سالي ذلك فاني لست بالآسف ابداً على القهقهات الساخرة لن تتعالى حولي حين اعود الى صديقاتي واصدقائي في باريس ، ولكني في نشوة، في نشوة مسكرة حين افكر ان سالي ستكون لي، بعد كل ذلك التمنع ، وفي هذه الليلة البديعة ...

كنت لا أزال مضطجعاً بثيابي على احد سريري الغرفة حين ألتفتت سالي اليّ وقالت ، ويدها على زر الكهرباء :

- هل تسمح ؟

وكانت وجنتاها مضطرمتين وشفتاها في حمرة الجمر المتقد، ممسكة بيدها غلالة نوم رقيقة في لون السحاب الوردي.ولم تنتظر سالي جوابي بل اطفأت النور فساد ظلام كثيف كانت تتخلله خيوط ضوء نحيلة تتسلل من شقوق الستائر من مصباح في ناصية الشارع . وخيم صمت لم يكن يسمع فيـه إلا حفيف الثياب التي كانت سالي تنضوها عن جسدها وتلقي بها على اريكة في الغرفة. وتوهمت اني كنت اراها ، ارى سالي ، في عريها البديع، دونما ضوء، ملفوفة بغلالة من ظلام الغرفة قبل ان تضفي على بدنها غلالة نومها الوردية وتوهمت كذلك اني كنت اسمع تردد انفاسها ونبضات قلبها واني احس حرارة جسدها تلهب جسدي . كان الصمت الذي بيننا افصح من الكلام ، والظلام الذي يلفنا اصرح من النور . وفجأة امتلأت الغرفة ضوءاً، وتكلمت سالي:

— لقد اعددت لك مفاجأة .

فتطلعت اليها في غلالتها الشفافة التي اصبحت في لون الماس بما تخللها من لون جسدها الوردي ، فسحرتني رؤيتها . لم يكن جسدها عارياً بتلـك الغلالة بل كانت كأنما تدثرت بالغمام او غرقت في كومة من ورق الورد . وعجيب ان يثير الظلام في نفسي الشهوة العـارمة فاذا رأيتها في وضح النور بادية خطوط الجسد عارية الزندين متلعة الجيد امتلأ قلبي حناناً عليها كأني ارى بها طفلة تسبح عارية في حوض ماء .

قالت سالي :

— لقد اعددت لك مفاجأة .

وكان حرياً بي ان اقول لها : ليس بعد هذه مفاجأة ، ان نكون وحدنا هذه الليلة في حجرة واحدة ! ولكني قلت :

اي مفاجأة يا سالي ؟

فمدت يدها الي بصورة وهي تقول :

— انظر .

فتطلعت في الصورة فرأيت صورة شمسية يبدو انها اخذت منذ عهد بعيد ، صورة فارس عربي على صهوة جواده . قالت سالي :

— هل تعرفه ؟

لم اكن اعرف الفارس ، وانما خيّل الي ان ملامحه ليست غريبـة عني . قلت لساني :

— هذا فارس من بلادي . ولكن هل تحسبين انني اعرف كل عربي تحت الشمس ؟ ؟ يبدو لي ان هذه الصورة اخذت في ايام اختـراع الفوتوغرافيا ، منذ عشرات السنين اعني ، فكم تحسبين لي من العمر ؟ فضحكت وقالت :

- تطلـع في الصورة جيداً وانظر هناك الى المرآة ...

فأمعنت النظر في وجه الفارس الذي كان يبدو في مقتبل العمر واسع العينين دقيق الوجه طويل الأنف ، ولم البث ان صحت :

- يقينا ان هذه مفاجأة . تكاد أن تكون صورتي !

وكان الفارس يشبهني حقاً شبهاً عجيباً . فقلت :

- ولكن من اين جئت بهذه الصورة يا سالي ؟

قالت :

- من تلك السيدة في كنفسهولمن . بينما كنت انت مشغولاً بحزم الأمتعة كنت احادثها واقلب صفحات ذلك الكتاب المخطوط ، فرأيت هذه الصورة بين صور كثيرة فاستوهبتها منها .

قلت وانا لا ازال في دهشة من هذا الشبه العجيب الذي تشبهني به الصورة :

- ترى من يكون هذا الفارس ؟ ومن اين انتهت صورته الى تلك السيدة ؟

قالت سالي :

- لقد حدثتني ان زوجها كان عالماً اثرياً ورحالة كتب كثيراً عن رحلاته ، وانه كان يعد كتاباً عن رحلة له في بلاد الشرق الأدنى مع بعثة تنقيب عن الآثار حين مات في ريعان شبابه منذ اكثر من اربعين عاماً . وهذه الصورة من ذلك الكتاب ...

فرفعت عيني عن الصورة الى سالي لأسألها من جديد ، ولكن بصري زلّ فوقع على مزلق حمالة الغلالة من منكب صديقتي ، حيث بدا ظل بنفسجي ناعم في الثنية التي تفصل منبت الذراع عن منهد الثدي . فوضعت الصورة من يدي جانباً ، وامسكت كف الحورية الساحرة التي كانت امامي وجذبتها الي مغمغما :

- سالي !

فتراجعت،لدهشتي ، سالي الى حيث كان سريرها بعيداً قدر خطوتين عن سريري ، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة غريبة :

- ليست الصورة وحدها التي رأيت عند تلك السيدة العجوز . بل اني قرأت جزءاً من فصل من ذلك الكتاب المخطوط .

وكان تمنع سالي قد دفع الدم فائراً في عروقي ، فلعنت في سري الكتب والصور وتلك العجوز ، وهمست :

- ما لنا ولذاك يا سالي ، تعالي الي ...

ولكن سالي استمرت في حديثها :

- هل تعرف ماذا كان عنوان ذلك الفصل ؟ كان عنوانه : اخلاق اهل البادية !

قلت ، وقد فرغ صبري :

- اني اعرف اخلاقهم جيداً ، فأنا منهم .

فقالت :

- لم يكن غريباً عليّ ما قرأته في ذلك الكتاب المخطوط لقد عرفتك قبل ذلك فعرفت كرم اخلاقك . اتراك ستكذّب هذه الليلة معرفتي بك وما كتبه مواطني ذاك الذي عاشر اهلك وبني قومك ؟

وسكتت سالي ، بينما ظللت انا صامتاً لا اتبين ، لثورة الرغبة في دمائي، معنى ما تقول صديقتي . غير انها لم تلبث ان افصحت بقولها :

- اني احبك . ليس سهلاً على فتاة مثلي ان تقول هذا لأنسان . فماذا كنت تجنبني مثل حبي لك فلا تحطم في نفسي صورتك . كنت اعلم ان هذا سيكون قاسياً علينا نحن الأثنين،ان نكون جد قريبين احدنا من الآخر وجد بعيدين في آن واحد . ولكني كنت واثقة من نفسي، وشجعتني انت على ان اثق بك . وتلك الصفحات في ذلك الكتاب المخطوط ؟ لقد علّمتني ان ثقتي بك في محلّها ... قل لي اني لم اكن مخطئة .. قل لي !

فلم اقل شيئاً . ولكني كنت احس اني في حلم . لم اكن اصدق ماتسمعه اذني ، فلما وعيت ما قالته سالي شعرت اني غصصت بريقي وتحولت كل الشهوة الثائرة في دمي الى غيظ اكال . غير اني لم انبس ببنت شفة وانما قمت في هدوء متصنع ، بينما ايقظ الغيظ في نفسي جذور كبرياء عمياء ، ودون ان القي بنظرة الى جسد سالي الملفوف بغلالته الوردية ، قمت الى زر النور في اقصى الغرفة فأدرته ، فغمرنا الظلام الأسود ، ثم عدت الى فراشي .

وخيم صمت طويل قلت لنفسي في اثنائه: كل النساء سواء . ما كان اسخفني حين تعلقت بهذه الفتاة الحمقاء . سأكتب غداً الى فيرا فنلتقي في ستوكهولم. الى جهنم بكل هوى عذري ومحبة افلاطونية ! وبينما كنت احدث نفسي بهذا سمعت سالي تقول ، بعد ان اندست في فراشها :

- اما تقبلني ؟

فلم اجب . ولكني ، في فراشي ، حولت ضجعتي من جنب الى جنب. وسمعت صوتاً مكتوماً متقطعاً ، تبينته بعد قليل : تنهدات خفيفة تحولت الى جهشات . لقد كانت سالي تبكي ، وتبكي بشدة . وكنت اعرف النساء الا اني لم اخط الخطوتين اللتين كانتا تفصلان سريري عن سرير سالي ، بل شعرت في اعماقي بلذة كبرى في ان ادع هذه الفتاة الجميلة تبكي . ولست اذكر كيف قفز بي الخاطر الى قمر ، جارتي الصبية الحلوة التي كنت اغازلها في تلك السنة من سني دراستي الأولى في دمشق . ففي احدى الأمسيات ، حين كان اهل قمر يحتفلون بعرس ابنهم الكبير سمعت صوت الحبيبة تحت نافذة الشرفة . كانت تضحك وتقهقه وتكلم رفيقتها بصوت عال لتوقظني وتعلمني انها تحت الشرفة ، واني استطيع ان افتح لها الباب فنقضي دقائق حلوة في خلوة ما دام القوم في عيد. ولكني ذكرت المشاحنة الأخيرة بيننا ، ففضلت على لذة ضمها الى صدري وتقبيل ثغرها الدقيق ان اتمتع بحسرتها على رؤيتي واذلها بالانتظار تحت النافذة وبالتعرض الى عيون الأهل والجيران شوقاً الي". آه من كبريائنا نحن الرجال ... كانت سالي في فراشها في زاوية هذه الحجرة الأنيقة في ابسالا من بلاد السويد تجهش وتنشج ، بينما كنت انا احلم بدمشق وبقمر تحت نافذة الشرفة هناك ...

ان رجم جاسم ، وهو هضبة وسط بادية . سمي باسم جاسم ثم ملكا والارض التي حوله جاسم وابناؤه بعده ،لان جاسماً ، حينما اعرس باهله ، بنى صيوان عرسه على قمة ذلك الرجم . وكذلك امر الطوالسع وبادية الخبرات ، ثبت حق الطوالع فيها حين ثبت ان جدهم دفن عصاه التي صرع بها الثعلب في قاع احدى تلك الخبرات . اما نحن فاننـا نزلنا ارض بئر الاكحل وبادية الخـان منذ خمسين عاماً . واذا كانت عشيرة الصفرات ترد شهودنا فاني اعرف شاهداً لا يرد ، شاهـداً سجل شهادته في كتاب مخطوط وايد ذلك الكتـاب بصور شمسية حين كان التصوير الشمسي في اول عهده منذ خمسين عاماً . واذا كان الشاهد قد قضى فان كتابه لا يزال ملقى على منضدة امرأة عجوز في حي كنغسهولمن في عاصمة السويد..

كان ذلك حديثي الى ابي في صبحة الليلة التي قص علينا فيهـا دحام قصته فعرفت منها ان ذلك الفارس الذي رأيت صورته والذي كان يشبهني كل الشبه ما كان غير عمي حمود . ولكن ابي كان زاهـداً في سفري الى ستوكهولم ، راغباً في تزويجي ليرى بعينه وهو حي اولاد ابنه الوحيد . وكان يلقي على اقامتي الطويلة في ديار الغرب ذنب هذا الزهد الذي يراه مني في الزواج، ويخشى ان ترجيء رحلة جديدة الى تلك الديار الملعونة تفكيري في اختيـار رفيقة لي اربع سنين اخرى . غير ان شيوخ العشيرة لم يكونوا من رأيه ، وكان عداؤهم للصفرات شغلهم الشاغل . فلما استعنت بأولئك الشيوخ عليه لانت عريكته ورضي بسفري . وهكذا طرت ذات صباح من دمشق ميمماً تلك الديار التي حفظت لهـا في اعماق نفسي ذكريات لم تقو الايـام على ان تمحو من نفسي طيبها وعذوبتها وبردها الندي .

بروما ، سلوسن، ستورتورغ، ريدارفيردن، جزر ستوكهولم المبعثرة في البحر المحيط بها ، وكل تلك الاماكن الساحرة التي شهدت ليالينا انا وسالي ... وسالي ، سالي التي دأبت على ان ترسل الي ، كلما غيرت مسكناً لها ، كلمة واحدة هي عنوان مسكنهـا الجديد . كل ذلك كان ينتظرني في نهاية هذه السفرة التي ابحث فيها عن اثر عجوز تملك كتابـاً مخطوطاً في احد احياء ستوكهولم القصية . ولكني لم اعثر على تلك العجوز الوحيدة في بيتها ذاك في كنغسهولمن . ذلك ان خمسة اعوام لم تكن بالشيء الهين في حياة امرأة مسنة على حافة قبرها. لم اجد تلك العجوز ولا اثراً لذلك الكتاب المخطوط ، ولا دليلاً جديداً على حق عشيرتنا في بادية بئر الاكحل وسهل الخان . ولذا فقد عدت الى ابي بخيبة الرجاء .

ولكن هل خاب رجاء ابي حقاً ؟ ذلك كان ظني ... الا أني ما كنت في قلب ابي لأعرف ماذا يحب ويفضل في ايامه اللواتي بقين له . ما كان اهون بادية بئر الأكحل عليه ، بقيت او ذهبت . ولكن ما كان احرصه على ان يرى بضعة حية منه تدرج امامه على هذه الأرض التي يعيش عليها اليوم والتي كان يحس بقرب فراقه لها . وما كنت اظنه بعد خيبتي الأخيرة هذه يرضى علي حتى رأيت نظرته . نظرة الطمأنينة والراحة كأنمـا هو الذي آب الى داره بعد طول غيبة لا أنـا ، نظرته التي القاها على تلك التي اخذت بيدها اعينها على النزول من سيارتي الزرقاء لاول مرة على باب بيتنا الكبير في قريتنا الصغيرة ، اعني سالي ... زوجتي سالي .

هذه هي سالي ...

الرقة - سوريا **عبد السلام العجيلي**

الهاربون من اسرائيل

كبلادة الثيران ، كالحمر الهزيلة ، كالبغال ..
على نواعير الحزانى الكادحين ،
كنا ككو كبنا ندور ، — وما نزال ...
ايامنا البلهاء تضحك ، وهي تحلم بالزوال ؛ —
وكبؤرة الديدان .. كنا في ظلام ،
كنا نصول على الحدود الآمنات .. على الرعاة ،
وملاغم الاحقاد تنزو ، والثغور ...
صفر ، مفتحة كأفواه القبور ،
كالموت ، تهزأ بالنظام ..
وتدوس قانون الحياة بكل شوق وابتسام

***

... وهناك في الشرق القريب
حيث الملاجيء ، والمغاور ، والخيام ،
الشرق والدم والخيام
ونداء عملاق الارادة باسم عالمه الجديد
كم رددت خلف الحدود :—
«قسماً باغنية الجهادِ
أفديك بالدم يا بلادي ..
يا غابة الزيتون ، يا أرض البطولة والجهاد ،
يا امنا .. يا ارض لن يحيا اليهود
في ارضنا أرض الجدود»

***

ولكم أطلت في الظلام هناك .. أشباح رهيبه
في الشرق ... أشباح رهيبه ،
حمراء ، تحتضن الربى ، وتقبل الارض الخضيبه
فتفوح من فمها صلاة :
« رباه ... لن يحيا الطغاة
في ارضنا ، ارض العروبه »

***

... وسئمت مهزلة « المعاد » وهالني اني غريب
لا الارض أرضي يا رفاق ، وليس لي فيها قريب
وطني ليدعوني ؟ وما شأني لتحيا « تلسبيب ؟؟ »
عبر البحار ... هناك اهلي ، امتي ، وطني الحبيب .
« برلين ..
هيا يا رفاق .. فنحن في بلد غريب !!

***

ورجعت ادراجي كسير القلب يوخزني الضمير
استغفر القدس الجريح ، وغضبة الوطن الشهيد
وألم آثامي لادفنها وراء البحر .. في وطني البعيد

***

« تُفٍ يا زمان
ما هكذا يمشي الهوان ..
في امة صنعت وجودك يا زمان ،
تف يا زمان ... »
وبصقتُ في وجه الحياة ، وفي جبين البندقية
وحشوت فوهتها تراباً ، وانسحبت مع الرفاق
نتلمس الدرب الغريب ،
ونعانق الامواج عبر البحر .. للوطن الحبيب ،
« تُف يا زمان البربرية .. —
وصرخت اذ صرخ الرفاق : — تحطمي يا بندقيه
نامي هنا يا بندقيه ،
نامي بأعماق البحار فكم جنيتِ على بريئه
نامي ..
فلستِ من ابن آدم ..
لستِ من ارض الخطيئة . »

العراق — الكويت

محمد جميل شلش

النشاط الثقافي في الغرب

انكلترا

تحقيق ادبي هام

اذا كان صحيحاً ما يذهب اليه « هيغل » من ان « الكمية » تتحول في نقطة معينة الى « كيفية » ، فما لا شك فيه ان وضع الادب البريطاني في هذه الايام وضع ممتاز . ففي العام الماضي نشرت المطابع البريطانية زهاء عشرين الف كتاب ، مقابل ثمانية عشر الفاً في العام الذي سبقه . ولعل أهم ما في هذا الاحصاء ان عدد الروايات (٤٢٠٠ رواية) قد تدنى بما يقارب تسعمئة رواية عن عام ١٩٣٧ ... وقد يكون سابقاً للاوان التعليق على ذلك بشيء حاسم ، ولكن من الصعب الذهاب الى ان احدى هذه الروايات ستظل تقرأ بعد عشر سنوات .

وقد حلل الملحق الادبي للتايمس ، وهو أهم مجلة اسبوعية بريطانية ، هذه النزعة . فتوجه الى ثلاثين من خيرة الروائيين والنقاد الانكليز طالباً اليهم ان يختاروا كتابهم المفضل بين جميع الكتب التي نشرت منذ الحرب ، مع ذكر الاسباب والتفاصيل في مقال خاص .

ومما يلفت النظر ان بين هذه الثلاثين كتاباً ثلاث روايات فقط .. وهذه الروايات تعالج موضوعات فلسفية ودينية واجتماعية معالجة قد تبعدها عن الفن القصصي بمفهومه الحديث . وهذه الروايات هي « حب » Loving بقلم هنري غرين H. Green وقد اختارتها الروائية روساموند ليهمان ؛ و « الملك يسوع » King Jesus بقلم روبرت غريفز R. Graves الذي اختارته ادبية اخرى هي « ستيفي سميث » واخيراً « نصيب العالم » A Shore of the World بقلم هيغو شارتوريس H. Charteris الذي اختاره الناقد « فرنسيس ويندهام » .

ولكن هذا لا يعني ان البلد الذي يكتب فيه سومرست موم وافلين ووغ وبريستلي وغراهام غرين وجويس كاري وهارتلي وكثيرون غيرهم قد أفلس من الناحية الروائية ، وانما يعني هذا ان الجمهور الانكليزي ، بعد تجربة حرب كان فيها على قاب قوسين من افظع كارثة في تاريخه ، يلتمس الدروس والعظات في الوقائع اكثر مما يلتمسها في الآثار الخيالية .

ومما لا يخلو من مغزى ، في هذا الصدد ، ان تشارلز مورغان Morgan الذي يعتبر من اكبر ادباء الجيل ، قد اختار سيرة « نلسون » الكبيرة بقلم كارولا اومان C. Oman . فان هذا البطل الذي لا يهاب والذي حقق عملياً نظرية دانتون « الجرأة والجرأة والجرأة ابداً » ليس هو في نظر الانكليزي المفكر اميرالاً مجيداً ، بل هو يرمز الى الفكر الذي أسهم في خلق عظمة بلاده .

اوبرا ترويلوس وكريسيدا

يشاهد مسرح « كوفانت غاردن » منذ بضعة أشهر الاوبرا الاولى التي ألفها السير وليم والتون W. Walton والتي هي بعنوان « ترويلس وكريسيدا » Troilus and Cressida . وليست هذه الاوبرا مقتبسة من مسرحية شكسبير بل من الخرافة التي رواها – اول من رواها – الشاعر التروبادور بنوا دو سانت مور حوالى ١١٦٠ . ولا شك ان هذه الاوبرا من خير ما وضع في الموسيقى الغنائية المعاصرة ، ولم يتردد والتون في الافادة من بعض الحان بوتشيني وشتراوس حين وجد ذلك مناسباً ، على ان هذا لم يمنعه من ان يضع اثراً موسيقياً مبتكراً . وقد وفق والتون توفيقاً كبيراً في التعبير عن شخصية « بانداروس » ، وابداعه لا يضعف الا في نقطة واحدة ، ومن المؤسف ان ذلك يحصل في الخاتمة ، حين تنتحر كريسيدا . وقد كان المستمع يفضل ان يستمع عند هذه النقطة الى تحليقة غنائية تتوج الاوبرا ، كما توجت « اللايبستود » نهاية « تريستان وايزولت » . وقد لا يكون من المستبعد ان يعود السير وليم والتون الى قطعته بحماسة الخلاّق ، فيعزز هذه النهاية الضعيفة .

اما التمثيل فقد كان رائعاً ، وقد لوحظت « ماجدا لاسلو » Magda Laszlo في جمالها الاخاذ وصوتها المدهش وهي تمثل الدور الرئيسي ، في حين ان بيتر بيرس Pears قد وجد خير ادواره في تمثيل شخصية « بانداروس » .

الولايات المتحدة

نظرة الى المسرح الاميركي المعاصر

كانت اول مسرحية عرفها العالم الجديدة هي مأساة « امير بارت » التي كتبها توماس غودفري T. Godfrey عام ١٧٦٧ . ولكن الانتاج المسرحي الغزير لم يبدأ الا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين . على ان الاميركيين لم يهتموا به قبل الحرب الكبرى ، بخلاف موقفهم الآن ؛ فهم يحلونه من ادبهم محل الصدارة ؛ ويمكن للمرء ان يقتنع بانه سيعرف كثيراً عن احوال الاميركيين وطرق معيشتهم ومشاكلهم الخاصة حين يشاهد مسرحية كمسرحية « قطار يدعى رغبة » او « موت وكيل سفر » .

ولا شك في ان اوجين اونيل Eugene O'Neil هو من اكبر المؤلفين الدراماتيين الذين قدمهم الادب الاميركي ؛ وهو قد حاز على جائزة نوبل عام ١٩٢٦ تقديراً لفنه الرائع . وقد اعتاد النقاد على تصنيف مؤلفاته

النشاط الثقافي في الغرب

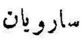
عـدة اصناف : الفترة الواقعية ، او فترة الشباب التي انتج فيها « قمر الكرايب » والفترة التعبيرية او المسرحية الفكرية مع « الامبراطور جونس » و«العلامة المكسوة بالشعر » ؛ وفترة السير الدراماتيـة ذات النزعة الشعرية مع « تسلية غريبة » ، وفترة العودة الى الواقعية مع« حامل الثلج يأتي » الخ ..وفي معظم هذه المسرحيات يعطف اونيل نحو «الانسان» فيحفر روحه « ليكتشف جذور المرض الذي اصيب به عصره » . والواقع ان مسرح اونيل مسرح نفسي قبل كل شيء تنزع وسائله الى « إرضاء الفرد الذي يطلب سبباً لتبرير حياته وحداً للخوف الطبيعي من الموت » . ومن هنا نجد في آثار اونيل ، بالرغم من لهجة التشاؤم ، حساً للنقاوة يجسده جميع ابطاله تقريباً والمؤلف الاميركي يشبه في ذلك المؤلف الايطالي العظيـم بيراندللو .

وقد اشتهر في هذه الفترة (١٩٢٠ - ١٩٤٠) عدة مؤلفين آخرين اهمهم ماكسويل اندرسن صاحب « الصحراء البيضاء » و « شحـاذي الحياة » و « آلهة النور » ولكن يؤخذ على اندرسن انه شاعر اكثر منه مسرحياً . وفيليب باري Barri صاحب « الاجنحة البيضاء » وليليـان هلمان Hellman مؤلفة « ساحة الاولاد » و « الثعالب الصغيرة » .

وابتداء من عام ١٩٢٨ ، وهو عام الازمة الاقتصادية الكبرى، بدأت المسرحية الاميركية تعنى بشؤون الواقع الراهن، ويؤلفها شبان متطرفون ثوريون، كان على رأسهم جورج كلي Kelly وألمر رايس Rice وشتاينبك وكالدويل وكليفورد اودتس Odets . فان هؤلاء الادباء كانوا «شاهدين» وقضاة على عصرهم .

وينبغي أخيراً ان نخصص مكاناً لوجهين كبيرين لا يزالان يمارسـان تأثيرهما علـى المسرح الاميركي المعاصر كله ، هما ساروبان وتنيسي وليامز.

اما ساروبان الذي انتقل من كتابة الرواية والاقصوصة الى كتابة المسرحية فقد قدم تمثيليته الاولى عام ١٩٣٩ وهي بعنوان « قلبي في الهايلاند » وبعد ذلك بقليل قدم « زمن حياتك » التي وصفت بانها « قصيدة كتبت بلغة الجاز » لفرط ما فيها من نزعة شاعرية موسيقية .



ساروبان

اما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد اشتهر تنيسي وليامز الذي وصف بانه « شاعر الفروق والظلال». وان الرموز التي يستعملها في كل مسرحية من مسرحياته تبدو عناصر ترتفع بدراما الشخصيات الداخليـة الى مرتبة الشاعرية . واشهر مسرحياته « قطار يدعـى رغبة »و« صيف ودخان». وفيها مزيـج من نقاوة الطفولة باحلامها وامانيها ، ومن واقع الحياة القاسي ومتطلباته . وأشخاص تنيسي وليامز اناس حقيقيـون يتنفسون الحياة ، وبالامكان مقارنة مسرحياته بمسرحيات ارثر ميللر A. Miller الذي يهتم اكثر ما يهتم بشخصيات النساء . وآخر مسرحيـة قدمها ميلر ،ولا تزال تتحدث بها الاوساط،هي مسرحية « ساحرات سالم».

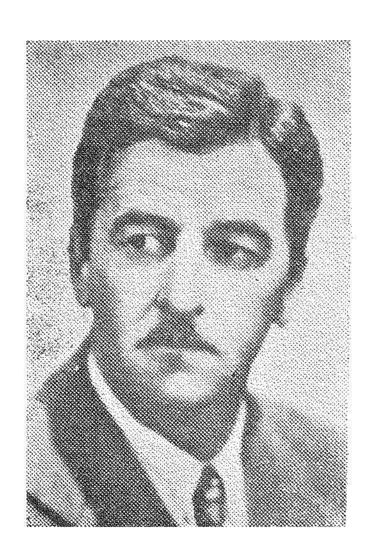


تنيسي وليامز

ولا بد اخيراً من ذكر اسماء ثلاثة مؤلفين يكتسبون يوماً بعد يوم رضى المشاهدين واقبالهم هم وليم انج Inge وترومان كابوت Capote وكارسون ماكيلرز Mccullers .

جوائز « بوليتزر » الادبية

وزعت في نيويورك في اوائل هذا الشهر جوائز بوليتزر الادبية لهذا


فولكنر

العام ، فنال وليم فولكنر جائزة الأدب على روايته « اسطورة » التي نشرت منذ بضعة اشهر . اما جائزة المسرحية فقد نالها المؤلف الدرامائي الشهير تنيسي وليامز عن مسرحيته الأخيرة « قطة على سطح من تنك » .. واما جائزة الشعر فقد كانت من نصيب والاس ستيفانس Wallace Stephens . ونال جائزة التاريخ بول هورفان Horvan ، واخيراً نال جائزة الموسيقى جيان كارلو مينوتي Menofti على اوبرا « قديسة شارع بليكر » .

فرنسا

اروج الكتب الفرنسية

قامت مجلة « الانباء الادبية » Les Nouvelles Littéraires بالاشتراك مع دور النشر الفرنسية بتحقيق ادبي هام عن اروج الكتب الفرنسية التي صدرت منذ عشر سنوات في فرنسا . وقد كان لهذا التحقيق صدى كبير في الاوساط الفكرية وتناقلته صحف كثيرة وعلقت عليه مختلف التعليقات ونشر هنا لائحة مقتضبة باروج هذه الكتب :

عالم دون كاميلو الصغير	لغاريشي	٧٩٨ الف نسخة
السيرك الكبير	لكلوستيرمان	٥٢٧ « «
اخترت الحرية	لكرافشنكو	٥٠٣ « «
الصفر واللانهاية	لكوستلر	٤٥٠ « «
صمت البحر	لفيركور	٤٢٠ « «
الامير الصغير	لسانتكزيبوري	٤٠٠ « «
الطاعون	لألبير كامو	٣٦٠ « «
عنبر	لكاتلين وندسور	٣٠٠ « «
لمن تقرع الاجراس	لهمنغواي	٢٥٥ « «
الساعة الخامسة والعشرون	لجورجيو	٢٤٩ « «
مرحباً ايها الحزن	لفرانسواز ساغان	٢٤٠ « «
القديسون يذهبون الى الجحيم	لسيسبرون	٢٢٠ « «
الشيخ والبحر	لهمنغواي	٢٠٥ « «
القوة والمجد	لغراهام غرين	٢٠٠ « «
المثقفون	لسيمون دوبوفوار	١٨٥ « «
الايدي القذرة	لسارتر	١٤٠ « «
اصوات الصمت	لمالرو	١١٠ « «

الادباء الفرنسيون في اميركا

كتب موريس بيشوب ، الاستاذ في جامعة كورنل ، مقالاً في « لينوفيل ليتريز » (العدد ١٤٤٤) يتحدث فيه عن الادباء الفرنسيين الذين يقبل عليهم القراء الاميركيون ، فذكر ان احب هؤلاء الادباء الى قراء الولايات المتحدة كانوا في هذا العام : مرغريت يورستر ، في كتابها « مذكرات هادريان » . واندريه سوبيران في كتابه « ليل الرقص » وزوبه اولندبرغ في كتابه « الحجر المثلث » وفرانسواز ساغان في « مرحباً ايها الحزن » واندريه سوبيران ايضاً في « الرجال البيض » . والملاحظ ان جميع هذه الكتب روايات ، اي من الفن القصصي ، وفي هذا ما ينفي زعم الذين يقولون إن قراءة القصة في خطر .

وأنهى بيشوب مقاله بأنه قد أصبح من الضمانات الأكيدة لرواج كتاب ما ، في الولايات المتحدة وفي غيرها من بلاد العالم ، ان يكون المؤلف... امرأة !

اشتات ادبية

- منحت جائزة موناكو هذا العام الى لويز دو فيلمورين Louise de Vilmorin وكانت هذه الجائزة قد منحت في السنوات الماضية الى هنري تروايا وجوليان غرين وجول روي .
- صدرت هذا الاسبوع رواية « نجوم مارس » لبول فيالار . ومما يجدر ذكره ان هذه هي الرواية الثامنة والاربعون لفيالار ، منذ عام ١٩٣٨ ، وهذا يعني ان فيالار يصدر اكثر من ثلاث روايات كل عام !
- يشاهد مسرح « الاتوليه » في هذه الايام مسرحية تشيخوف « زمّج الماء » La Mouette ، وهي ثالث مسرحية تعرض للاديب الروسي الكبير على مسارح باريس هذا العام بعد « بستان الكرز » و « الشقيقات الثلاث » ، ويذهب غابرييل مرسيل الى ان هذه المسرحية خير من اختيها .
- لا تزال الصحف الفرنسية تخصص مقالات طويلة للعالم انشتاين الذي مات في الشهر الماضي . وقد ذكرت احدى الصحف رأي انشتاين في « الصدفة » و « الحظ » فقد قال : « انني لا اؤمن بالصدفة ، لأني لم استطع يوماً ان أصدق ان الله قد تسلى بلعب الطاولة مع الكون ! »

قرأتُ العددَ الماضي من «الآداب»

بقلم
عبدالله عبد الدائم

١ . الكلمات

المناظرة بين الدكتور طه حسين والاستاذ رئيف خوري

(اقرأ رأي الكاتب في هذه المناظرة ، في الصفحات الاولى من هذا العدد) .

مسئولية الناقد – بقلم رجاء النقاش

تجري هذه الكلمة في سياق المناظرة التي أشرنا اليها ، وهي تفصيل لكثير من الأمور التي عرضت لها تلك المناظرة ، كأن بينهما اتفاقاً وموعداً . وتدور الكلمة في البداية حول الموازنة بين الناقد اليوناني القديم والناقد العربي القديم . وهي تبيّن ان الشعر الجاهلي كان تعبيراً فنياً عضوياً ، لا يعي صاحبه ما فيه ، ولا يصطنع فيه نظرية في الحياة ، بينما كان الشعر اليوناني يعبر عن مثل هذه النظرية . ثم تعرض الكلمة لارتباط الناقد الحديث ، ناقد القرن العشرين ، بالحياة ارتباطاً عميقاً ، فيه مجاوزة لما نجده لدى الناقد اليوناني نفسه . كما تقف وقفة خاصة عند ضرورة الالتزام في الأدب ، وتربط ربطاً صحيحاً بين حرية الأديب ومسؤوليته . ويرى صاحبها أن الالتزام والمسؤولية يتضمنان التزام الاديب لنزعاته الخاصة اولا والتزامه لواقع الشعب ثانياً . وهو يقدم النوع الثاني من الالتزام على النوع الأول حين يكون الشعب في «حالة حضارية متخلفة» ، اذ تصبح قضية الشعب وحاجاته هي القضية الاولى للناقد والكاتب . ويلخص رأيه كله حين يبين ان عمل الناقد والكاتب يتحدد بأمور ثلاثة : ضرورة التعبير الفني في الحياة الانسانية ، وضرورة الاستجابة لحاجات الواقع الانساني الذي ينتسب إليه الأديب ، وضرورة الملاءمة بين المفهوم الذي التزمه الناقد للتعبير كفن وبين حاجات هذا الواقع .

والكلمة كما نرى ايضاح دقيق واعٍ لمهمة الناقد والأديب ، ودعوة حصيفة الى ادب الالتزام ، وتحديد صحيح لمعنى هذا الالتزام . على أن في الموازنة التي تعقدها بين الشعر القديم والشعر الجاهلي شيئاً من التعميم في الأحكام .. والأمر في نظرنا يحتاج الى فضل من الدقة . فليس من الصحيح أن الاديب اليوناني كان يلتزم دوماً نظرية في الحياة يقدمها بين يدي أدبه ، والنظريات الادبية التي أتى بها أمثال أرسطو وأفلاطون جاءت متأخرة على ظهور أكثر أدباء الاغريق .

أدباء وأدباتيون – بقلم نجيب سرور

وهذه أيضاً كلمة تنجر في سياق المناظرة ، وتساعد على توضيح بعض الامور التى تمسها من قرب . فهي تبين ما تبينه المناظرة من ان الدعوة إلى جعل الادب للحياة لا تعني الهبوط الى مستوى الشعب ، وإنما تعني رفع الشعب الى مستوى الادب . وهي تهتم بوصف نوعين من الادب سيطرا في شتى العصور ويسيطران اليوم : الادب الرسمي أو ادب السلطة او الادب المحترف – وهو ادب هابط من القمة الى القاع كما يقول الاستاذ نجيب – وادب متمرد على السلطة مبشّر بقضية الشعب – وهو ادب صاعد من القاع الى القمة مخرباً متمرداً – ويبين ان النوع الاول من الادب هو ادب حياة معينة ، حياة السادة . وهذا الادب المجعول في خدمة الانسان السيد هو الذي يطلق عليه احياناً اسم الادب للادب ، وما هو كذلك . فلا ادب للادب ، وكل ادب هو ادب حياة معينة ، فان لم يكن ادب حياة الشعب كان ادب حياة السادة . والمشكلة ليست ان يلتزم الاديب او لا يلتزم ، فكل اديب ملتزم وإنما المشكلة اي شيء يلتزم . « والحيادية في الادب اكذوبة كبرى يجب فضحها » .

وهو في هذا كله يضع النقاط على الحروف في جرأة وصراحة تزيد في عنفها تلك القسمة الصارخة التي يقيمها بين طبقتين في المجتمع ، طبقة السادة وطبقة الشعب . غير ان هذه القسمة في نظرنا صارمة اكثر مما ينبغي ، وقسمة الادب ايضاً تلك القسمة المقابلة لها ، على ما فيها من حظ كبير من الصحة في بعض العصور ، ليست دقيقة إلا اذا أخذناها جملة لا تفصيلا . فالكاتب يعممها على جميع العصور ، الا عصور ما قبل التاريخ

حيث كان الادب في رأيه تعبيراً تلقائياً عن جريان شعوري دفاق . ولا ندري كيف وصل إلى هذا الحكم على ادب ما قبل التاريخ !

ومهما يكن من أمر ففي الكلمة ايضاح لحقائق جديرة بالتوضيح ، وبحث عميق وقوي عن معنى الالتزام .

الفنان المعاصر والاخرون – بقلم شاكر حسن سعيد

بحث عميق جميل في فلسفة الفن ، يسوقه فنان موهوب ، يملك الى جانب فنه نظرات فلسفية غنية . ومن قراءته نطل على كثير من المشكلات التي تذكرنا بما يكتبه فنانو الغرب وفلاسفة الفن فيه . حتى ان اسلوب الكتابة اقرب الى العجمة منه الى الاسلوب العربي الخالص . أما الشطحات الروحية والفنية فيه فتبلغ الذروة في بعض الاحيان . ومحور الكلمة يدور حول تجربة الفنان حين يرسم ، وحول الصلة بينه وبين الآخرين ، وحول ما يعانيه الناظر الى الآثار الفنية من مشاعر واحكام . وجملة ما في هذا الرأي ان ما يرسمه الرسام هو « الانسان معكوساً على ذاته » وانه « يستدعي معاصرة الناظر في استيعابه للعمل الفني » ، وان الاسلوب الشعبي هو طريق وصول الفنان الى انسانيته .

والكلمة في جملتها من الكلمات النادرة التي قلما نجد امثالها عند فنانينا .

٢ القصة

حامل الاثقال – بقلم محمود تيمور

انها حقاً ومضة ناعمة من ومضات الكاتب الكبير محمود تيمور ، اديب القصة الصغيرة غير منازع ، رشيقة المذاق ، سهلة ممتنعة ، تجمع ، كسائر ما يكتبه الاديب الكبير ، بين جزالة اللفظ وقوته ورشاقة الاسلوب وحرارته . وهي فوق هذا كله تطل على أفق انساني رحيب ، فيه اشراف على جمال الطبيعة ، وفيه اشراف على جمال الحياة وعلى قسوة الحياة في آن واحد ، من خلال مصير الانسان وقدره . حمّال جرى منذ فجر شبابه على أن يجلب لاهل قريته ما يحتاجون اليه من بلد ساحلي ، فيفارق القرية منذ الصباح ليعود اليها مع الاصيل . حتى اذا كان يوم تعطل فيه عن العمل ، وجد نفسه مضطراً الى ان يعاود سيرته هذه ولو بدون هدف ، فمضى الى المدينة الساحلية وحمل سفطاً من الحجارة فوق ظهره وعاد ادراجه في المساء كعادته ، مقوس الظهر يرقى الجبال . لقد اصبح حمله « من مقتضيات حياته » وغدا « وسيلة من وسائل التوافق والتوازن » عنده لا يستطيع مجانبته .

تذكرنا هذه القصة بقصة أخرى واقعية رواها لنا صديق عن منشيء في محكمة ، احيل على التقاعد بعد انتهاء سني خدمته فلم يدر ماذا يصنع ، وما كان منه الا ان رجا اهل المحكمة ان يبقوه حيث كان ، يجلس وراء منضدته المألوفة ، وينشيء ما يشاء ان ينشيء ، دون ان يتقاضى على ذلك راتباً . وهي تذكرنا كذلك بما يحكى عن ضابط خرج من الخدمة ، فعزّ عليه أن يفارق عادات الامر والنهي التي جرى عليها ، فجلس أمام داره ووضع كؤوساً من الماء يسقي منها المارة ، حتى اذا اقبل احدهم يرتاد احدى هذه الكؤوس رده وامره ان يتناول كأساً أخرى غيرها ...

اليست مثل هذه اذن قصة الانسان حقاً ؟ السنا جميعاً « نحيا بأثقالنا وان كانت ترهقنا » ؟ اليس فيها تحليل نفسي عميق للنفس البشرية العجيبة ؟ « اذا شكا لك احدهم عمله فاتركه بلا عمل » ، هذا ما يقرره « باسكال » في حكمه ، وهذا ما تقرره الطبيعة البشرية القائمة على ازدواج عجيب في كل شيء : ففيها ، ضمن ما فيها ، ضيق بالعمل وضيق بالراحة ، ضيق بالاثقال وحنين اليها ، رغبة في تعذيب الذات (مازوشيه) ممزوجة برغبة الترويح عنها وتخليصها من اعبائها ، حنين الى الجنة وحنين الى الجحيم ، شوق الى البرد والسلام وشوق الى اللهيب العاصف ..

الغشاوة – بقلم الدكتور سهيل ادريس

قصة صراع بين اخلاص المرء لذاته ومثله واروائه لرغبات المال والثراء . قصة الضمير المستقل الذي يأبى ان يشرى ، والذي يحرص على قيمته الانسانية قبل القيمة المادية . صراع فيها بين الواجب والحب ، يذكرنا بالصدام التقليدي الذي نقرأه في روايات « كورنيي » مثلاً . سوى ان ذلك الصراع وهذا الصدام يجريان خلال عرض روائي بسيط ، ليس فيه اثارة للعقد او اختلاق للمشكلات . فالقصة سهلة العرض ، تكاد من سهولتها تبلغ حد الابتذال . غير انها ما تكاد تقاربه حتى تسمو عنه . اما الفن القصصي فيها فعاديّ ، لولا ما في المطلع من اثارة للانتباه تكشف عن براعة قصصية . وهي في جملتها وصف لحادث واقعي ، أحب الكاتب فيما يبدو ان يخلص لعرضه كما وقع ، دون ان يضفي عليه من خيال القصاص

وبراعته . ولو قد فعل لكانت القصة في رأينا اجمع لخصائص الفن القصصي . ثم ان الخاتمة فيها لا تتفق مع جملة القصة . فكل ما في القصة يحدثنا عن النزعة المادية التي تتصف بها الفتاة . ولا ندري كيف استطاعت هذه النزعة المادية المغرقة ان تذوب في خاتمة المطاف ، فاذا بنا نرى الفتاة تكافيء الفتى على مثاليته بأن تمنحه حبها ورضاها ، واذا بنا نجد رعشة النبل تعروها امام ما رأت من صدق فتاها !

لم تخسر شيئاً – بقلم الدكتور اسحق موسى الحسيني

تلك قصة جمعت حقاً بين البساطة والواقعية وبين السمو الفني . سهلة لينة ، تمر مروراً رفيقاً بموضوع من الحياة اليومية ومن اعرق ما فيها ، غير انها تعرف كيف تحمله الى مستوى الفن الرفيع . الاحاسيس فيها احاسيس فنان ، والعرض عرض قصصي بارع ، والاسلوب يتسع لكل هذه الخصائص فيسعد الاحاسيس ويمد العرض القصصي . فهل نقول اذاً ان نحن قرنا ان مذاقها في فم القاريء يغنيه عن « القطائف » التي افتقدها صاحب القصة ؟ ثم من منا لا تذكره « فطنة » هذه الخادم بفطنة مثيلاتها ممن تعاني البيوتات من منطقهن كل يوم ما يفوق منطق صاحبتنا في القصة ؟

حريق القاهرة – بقلم يوسف الشاروني

مجموعة من الرسائل ارسلتها اسرة الاستاذ لطيف بالقاهرة الى ابنها توفيق الموظف بأسوان . محورها الحديث عن حريق القاهرة ، وعن شاكر اخي توفيق الذي اتهم زوراً بالاشتراك في ذلك الحريق . وهي تمتاز ببساطتها واقترابها من الاسلوب الواقعي الذي تكتب به الرسائل عادة . غير اننا ، نحن الذين عرفنا براعة الاستاذ يوسف في ميدان القصة واعجبنا باسلوبه غير مرة ، لا نجد في قصته هذه ما يبلغ شأو قريناتها . ولعل امعانه في الواقعية قد جعل القصة عادية لا ترتفع الى مصاف العمل الفني . حتى ان الاسلوب فيها لا يخلو من ضعف . ولعل الاهمال فيه مقصود ، لتكون الرسائل اقرب ما تكون الى الواقع . ولكن الا يمكن التوفيق بين سلامة الاسلوب والامانة للواقع ؟ اوليست هذه المهمة هي مهمة الكاتب الصناع ؟

ستائر وردية – بقلم سميرة عزام

قصة من صميم الواقع ، تحمل من روح التهكم الشيء الكثير ، وتفصح عن حس فني مرهف . تاجر عطارة مزواج مطلاق ، وزوجات له متعاقبات ، وجارات يتلقفن الاخبار في فضول ، متهامسات بالدعابات . ثم عطر وحناء ، وستائر وفرش ، ومرض وارتقاب ارث ، وجو من الحريم في مباذله .

وتعتقد ان صاحبة الكلمة تحسن الى القصة العربية كثيراً ان هي مضت في هذا النوع من الوصف الواقعي الساخر . فهي موهوبة لهذا الطراز من الاسلوب دون شك ، وهذا الطراز من الاسلوب من اقوى عناصر النجاح في كتابة القصة . ولعلها متأثرة فيها خطوات « برنارد شو » الذي تحبه ، واغلب الظن انها متأثرة فيها نفسها التي عرفنا فيها الشيء الكثير من قهقهات الروح الفنية .

في الرابعة صباحاً – بقلم نزار سعيد

فتى يجتر حياته الداخلية ويعيش في محرابها دون ان يبلغ غورها . إنه ينظر الى نفسه ، « كما لو كان ينظر في قرارة بئر عميقة » . يخافها ، ويشقى بها ، ويود ان يفهم ما بها ، ولكن دون جدوى . فلا التحليل النفسي يجديه ، ولا الشكاة تنفعه ، في الساعة الرابعة من كل صباح يستيقظ على عذاب نفسه ، بعد ليلة مترعة بالخمرة ، وتتراءى له تلك النفس عارية مخيفة ، وتفرض وجودها عليه ، ككابوس أو مس .

خطرات اشبه باليوميات ، تتحدث حديثاً منمقاً عميقاً عن حياة سكير يشقى بنفسه وتزدحم في حياته الصور والأخيلة والطيوف ، ويصب اللعنة على وجوده حيناً وعلى من حوله حيناً آخر . وهي عامرة بالاحاسيس العميقة المتعبة ، أحاسيس تلك الفئة التي تظل في حلم دائم لا تبرحه (وهي فئة يُطلق على اصحابها أحياناً اسم « الحالمين الايقاظ ») . وصياغتها تكشف عن عمق في فهم النفس وبراعة فنية . سوى ان الكاتب

يكتفي فيها بأن يعرض أمامنا صورة هذه النفس المضطربة ، دون ان يعرفنا تماماً على بواعث اضطرابها وعـلى نمط ذلك الاضطراب . صحيح انه يجرب في النهاية ان يفعل شيئاً من هذا حين يتحدث عن أخٍ لصاحب الخطرات ، يحبه هـذا ويخافه،ويكرهه ويتشبه به في الوقت نفسه في أعماقه،منكراً له في ظاهره . ولكنه لا يكمل هذا التحليل ويشير اليه إشارة خاطفة فقط . ومهما يكن من أمر ، فالقصة (او المذكرات بتعبير اصح) تفصح عن قدرة على التحليل فذّة ، وعن معاناة لاجواء نفسية عامرة ، وعن اسلوب معبر شفاف .

٣. الشعر

مات غداً ـ لمحمد الفيتوري

بكاء مرير تجففه « دموع الآخرين » . ابن واخوة وام يرجون عودة أبيهم المصفّد بالحديد كي لا « يسموا يتامى فقراء » . وأب سجين « يرجو شمة ثوب ابنه » ابنـه وهو في شبابه القشيب « كأنما يمشي على كل عواطف القلوب » . ويطرق الباب ذات ليلة فتلقى جثة الاب البريء :

كم مرة سألت كل الناس في حزن شديد
أبي بريء فلـماذا صفدوه في الحديد
فـاطرقوا كأنهم جميعهم سجنـاء

لقد مات الاب على اعواد المشنقة ، وملء روحه المحترقة صرخات الثائرين واوجه العجائز المعروقة المشققة .

نعم باكٍ حقاً ، وكلمات تقفز الى الاعين من فرط اساها وفن رفيع أخاذ ، وقافية حرة متلوية ، تلتف مع الاسى والحزن .

طفولتي ـ لسليمان العيسى

طفولة صيغت من لهب الفقر والحرمان « في قرية ان قلت جرداء فلست اكذب » في فسحة بيت مهمل ، في الطين ، وتحت ظلال التين ، هناك حيث « راحت بالهوى اولى القوافي تهمس » . واتراب اغترب عنهم الشاعر بعد نزوحه القسري عن قريته بعد ان اختطفه فجر اسود ، ولم يغترب عن معاني الثورة التي يحملونها في نفوسهم. وامتدت تلك الطفولةفوصلت اذيالها بالشباب ، وكان الشباب لحناً مكملاً لها ، فيه ما فيها من حرمان واسىً ونضال . لقد « اتصل الكفـاح والغربة والتمرد » وظلت طفولة الشاعر تحيا معه « في كل نبض » .

نعم،انها قصة تلك النخبة النازحة عن لواء اسكندرون، فهي حقاً تحمل معها طفولتها ، واطياف تلك الطفولة تراودها دوماً وتبعث فيها الاسى والنضال . طفولة نلمس وراءها نحن الذين نجلس الى هذه النخبة ، أحاسيس فنية سقيت من افياء تلك الديار وثورة خالطت النفوس منذ الصغر ، منذ ان دعا الداعي الى النضال العربي ضد الاتراك . فلا عجب ان لمسنا في روح تلك النخبة طابعاً مشتركاً بينها ، فيه الاهتزاز للفن وفيه التحرق للنضال .

وشاعر هذه النخبة هو خير من يصف هذه الروح وينثها بين الفينة والفينة في اشعاره التي تحمل معهـا ، مهما تكن الوانها ، لوناً واحداً ونغماً خالداً : نغم الطفولة التي خالطت الشباب .

مشيئة الجبار ـ ليوسف الخطيب

وهذا شاعر آخر يحمل معه طفولته ويحمل معه ذكرياته ويحتضن أساه ، أسى نكبة فلسطين . انه يدور أبداً ليلفي نفسه الضائعة في جنان الخلد الذي طرد منه . انه حاقد ابداً ، « مجرم سيء » حتى يعود الى دياره . انه نار لا تخمد ولظى أحمر يخفق،ومشيئة وقدرلاخيرة لهفيهما،امتزج في نفسه الشوق الى الحياة والشوق الى الفناء :

لم لا يعود ، ومن تراه يخط اقدار الرجال ؟
وفيم السلم ؟ « ان اللاجئين اليوم اعداء السلام » !

انه يفقد وجوده فلا يجده الا في مشيئة تعزم على استرجاع الارض السليب من « طغمة قاءت بها الآفاق والامصار » . يجده في مشيئة جبار تتمسح على اقدامه الايام والاقدار .

والقصيدة كلها دوار ، ينتقل فيهـا الشاعر بين اليأس والرجاء ، بين الاسى والثأر ، بين كهوف اللاجئين وخيامهم وبين عودتهم الى الديار . والشاعر موفق جداً في التعبير عن هذا الدوار ، عن هـذا العود السرمدي والحنين الابدي ، حنين اللاجيء الى وكره الذي خلّفه .

عودة البطل ـ لكمال نشأت

قصيدة تحمل على جناحيها الرشيقين ، بل عـلى أزغابها الرقيقة ، عودة البطل مكللاً بالجراح ، يومض وجهه بالامل . تحمله القصيدة الى بيته وتحمل معه ذكرياته المعتمات كنوافذ الدير القديم ، وتحمل اليه الفرح بلقياه ، فرح وجوه اربعـة وصدر حنون ارضعه .

همسة ناعمة حقاً . خطوات مليئة بالظرف ، لينة الوقع ، خفيفة على السمع . انها من الفن الرفيع .

رحلة في الليل – لصلاح الدين عبد الصبور

همسات ليل مثقل بالذكريات ، بل مثقل بأطياف الأحلام المختلطة التي تسفح بعضها على بعض ، رفاق وسمر ، وشطرنج ، وتائهون يظلعون ، وشتاء ونساء ، وخمر وأسرار ، وشعار ودثار . ثم اغنية صغيرة حزينة عن اليفين اختطف احدهما اجدل منهوم . وبعدها طارق مجهول ملثم شرير ، يروع الحبيبين وقد تواعدا بنزهة على الجبل . وشاعرنا « يريد ان يعيش كي يشم نفحة الجبل » . فينغص الطارق موعده ، ويجعل موعده المصير . ويعود الشاعر الى السمر ، الى الورق ، الى الدخان والندامى ، ويولد الفجر فتولد معه نفسه من جديد وتولد معه ادخنة الصور ، ويثور حشيش الذكريات .

انها رحلة في الليل ، رحلة مليئة بأطياف الليل واحلامه ومخاطره . مذاقها مذاق ما في الليل من سمّار وندامى ولقاء . صاغتها الفاظ عادية وانغام خاطفة وايماء واشارة . ونحن نشفق عليها ان نفسرها : فجمالها شيء من الضباب .

الذرى البيضاء – لخليل حاوي

اما هذه القصيدة فمعذرة ان قلنا اننا لم نفهم كل ما فيها . أهي حديث عن اولئك الذين تشع في أعينهم رؤى المثل العليا ، ام هي فوق هذا شيء آخر ، لا ندري ؟ لقد حاولنا ان نربط بينها وبين « هوغو » في الايدي القذرة كما اراد الشاعر فلم نجد الا خيوطاً واهية . ومع ذلك فما نظنها الا نغمة تلوح بمعنى غني . اما جمالها الغني فيجأر رغم كل شيء .

الخاطئة لمحمد فوزي العنتيل

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه الخاطئة بحجر » !

عبيد يعيشون « فوق حقول الطغاة كشاة تعيش لجزارها » ، ويمزقهم الغاصب المستبد ، فلا يزدادون الا عبودية له وتمجيداً لسناه . ويلهب ايامهم بالسياط فيسألون الزيادة من الذلة ، ثم تراهم بعد ذلك يطاردون بلعنات شفاههم خاطئة تبيع جسداً عارياً « تغطيه قصتها الدامعة » . وتراهم يهزأون منها ، ويبسمون لاوجاعها ، وهم العبيد المسخرون .

ولكنها في رجسها لأطهر منكم لو تعلمون

غمزة انسانية مرهفة يوجهها الشاعر الى كل اولئك الذين يرون القذى في عين اخيهم ولا يرون الوتد في عينهم ، الى كل اولئك الذين يبنون كرامة مزعومة من دماء البائسين ، وهم غارقون في الصغار .

دمشق **عبد الله عبد الدائم**

الجدار الصامد

إلى اخي : رجاء النقاش

بوابة البيت القديمة ، والجدار ..
والكوة الخرساء في أعلى الجدار ..
ما زال منسكباً خلال هدوئها ، لهب النار ..
ينساب عبر سكونها ، شلال نار ..
والشمس تجمع ذيل مئزرها ، وتلقي قبلة فوق الجدار ..
فالشمس تعشق بيتنا ، من يوم أن كنا صغار ..
وأخي نزار ..
ما آلم الذكرى ، أجل ، وأخي نزار
يخطّ صورته على جصّ الجدار ..
ليثاً تمنطق خنجراً ، ومن العيون تشعّ نار ..
متحفزاً للوثبة الكبرى ، يصدّ عن الديار ..
عدوان شرذمة القراصنة الكبار ..
ليموت ، من أجل الديار ..
ويعيش سكان الديار ..

***

« ماذا تقول لها ؟ » ، ويشملني دوار ..
أأقول مات اخي نزار ..
لا ، لم يمت ، هو لن يموت أخي نزار ..
لا ، لم تمزقه الكلاب الحمر ، فاغرة السعار ..
إلا ليحيا في الديار ..
في غور وجدان الديار ..
أوَ لم يكن أقوى جدار ..
أوَ لم يصدّ عن الديار ..
عدوان شرذمة القراصنة الكبار ..
وخلا الجدار ..
من قده العملاق ، كي يحيا بأعماق الذين على الجدار ..

***

وأروح أرنو للجدار ..
جدار منزلنا العتيق ، المستحمّ ببركةٍ من ذوب اضواء [النهار ..
« ماذا تقول لها ؟ » ، ويشملني دوار ..
أنا عائد يا أم ، فانتظري رجوعي في النهار ..
ومعي نزار ..
لا ، لن أهادنهم ، كما فعل الكبار ..
سأعود يا أمي ، لأبقى حارساً هذا الجدار ..
وغداً ، أعود مع النهار ..
ومعي نزار ..
وعلى ذراعي باقة ، رويت من الدم والنضار ..
دم هؤلاء القائمين على الجدار ..
وأخي نزار ..
وترفّ حولي كل ارواح الذين استشهدوا عند الجدار .
وبلادنا العذراء راقصة على ضوء النهار ..
ترنو إلى ابنائها المتوشحين بباقة ، من تاج غار ..
وتبعثر القبلات فوق وجوههم ، قُبَلَ الفخار ..

***

أما الذين استشهدوا عند الجدار ..
كأخي نزار ..
فسيبعثون غداً ، مع الفجر المنار ..
في زهرة تزهو على الغدران ، راقصة النضار ..
في بلبل يشدو على الأغصان ، حرّكه انتظار ..
في نسمة عذراء ، ترقص فوق أجنحة النهار ..
في بسمة ، كالفجر ، قد رفّت على شفة الصغار ..
في غنوة المتدافعين ، من الحقول ، مع الثمار ..
في صيحة الوطن الحبيب ، تهزّه أفراح آمال كبار ..
يا فتيتي ، طلع النهار ..
يا فتيتي ، طلع النهار ..

القاهرة — **عبد المنعم عواد يوسف**



٢٥ سبتمبر ١٨٩٣ .

حبيبي لويس

وهكذا انتهى حبنا .. ولن يرى احدنا الآخر بعد اليوم. ثق بهذا ثقتي انا به. ما كنت تريد هذا.. بل كنت تريد ان تقبل كل شيء لنبقى معاً. ولكن كان يجب ان نفترق حتى تبني حياتك من جديد ... ولست آسفة اني قاومت في اصرار هذه الاشياء جميعاً : انت ، انا ، نحن ... وكنت تبكي وما اكثر ما بكيت وانت تدفن رأسك في فراشنا ثم وانت ترفع وجهك.. مرتين .. وجهك المضيء في ظلام الليل وحين لم اعد ارى دموعك وانما كنت احسها تدمي يدي .. نحن نتألم الآن ألماً هائلاً .. رائعاً .. وان هذا ليبدو لي وكأنه كابوس .. وربما استغرق الانسان اياماً ليست بالقليلة لكي يفتقد شيئاً كهذا .. وربما ظل المرء حزيناً متألماً شهوراً ليست بالقليلة .. ولكن بعد هذه الشهور .. وهذه الايام .. يأتي دور النقاهة ، وعندئذ.. وعندئذ فقط ابدأ الكتابة اليك ما دمنا قد قررنا ان اكتب اليك بين الحين والآخر وعزمنا على ذلك عزماً وثيقاً ، وان هذه الرابطة التي تربطني بك ولا تربطك بي - اذ انك لن تعرف عنواني... ابداً - هذه الرابطة ستكون الشيء الوحيد الذي لا يحمل وداعنا اليماً مدمراً .

اقبلك قبلة اخيرة . اقبلك بكل ما في كياني من رقة وعذوبة .. اقبلك من بعد شاسع .. هادىء.. ملائكي !

*

٢٥ سبتمبر ١٨٩٤

حبيبي لويس

اعود اليك لاحدثك كما وعدت.

ها قد مضى عام منذ افترقنا .. اني اعرف جيداً انك لم تنسني ، فما زلنا متآلفين متحدين حتى اني لاعجز عن مقاومة الالم والحزن اللذين يتملكاني ساعة افكر وساعة اذكر .

على ان هذه الشهور المديدة لم تذهب هباء... فهي قد اسدلت ستاراً من الأسف الحزين على الماضي الذي ولى ... انه مجرد ستار لا اكثر ... هي اشياء صغيرة بهتت واختفت مع تفاصيل كثيرة ... نعم ... اننا نلمس حين تبعث احدى هذه الاشياء لمحض الصدفة والاتفاق .. لقد حاولت ان اذكر ما ارتسم على وجهك من تعبيرات حين رأيتك لاول مرة .. ولكن لم اقدر تماماً على استعادتها ... فحاول انت مثلاً ان تذكر نظرتي الاولى... ستعرف حقاً كيف يطمس كل شيء في الوجود .

ذات يوم ابتسمت ... علام ؟ لمن ؟ ابتسمت ولكن لم ابتسم لواحد بعينه ولا لشيء بعينه ... انه شعاع مضيء لاح لي وانا في الطريق سائرة دفعني برغم شفتي الى الابتسام . لقد حاولت منذ وقت طويل ان ابتسم قليلا ولكن اتضح لي انها محاولة يستحيل اعادتها ... الا اني ابتسمت يوما .. كما قلت .. ابتسمت برغمي ... واني اريدك ان تذكر هذا الماضي الذي اسعدنا او الى المستقبل .. ثم ترفع رأسك وتبتسم .

*

١٧ ديسمبر ١٨٩٩

ها أنذا من جديد بالقرب منك ... يا حبيبي لويس ... الست كالحلم في ظهوري حين يسرني الظهور . ولكني اظهر دائماً في اللحظة المناسبة ... وسط الظلام والفراغ ... اذهب واجيء بالقرب منك ولكن احداً لا يستطيع ان يلمسني ... ألست اذن حلماً من الاحلام !

ليس بي من التعاسة شيء .. لقد استمدت شجاعتي بفضل هذه الاصبحة الجديدة وهذه الفصول الجديدة وهذه الشمس تنشر الثقة والصداقة .. وحتى هذا الضوء الخافت الذي يملأ النهار يلوح لعيني ممتعاً جميلاً .

رقصت مرة .. ضحكت كثيراً .. كنت - اول الامر - اعد المرات التي كنت اضحك فيها .. ولكن زادت المرات حتى عجزت عن عدها .. وبالامس شاهدت عند المغيب حفلا .. كان الجمع يتمد .. ويتمد .. كحديقة جميلة ناضرة .. ورأيتني سعيدة وسط الجمع الباسم المرح السعيد .

اني اكتب اليك لاحدثك عن هذا كله ولأنهي اليك اني اعتنقت من اجلك دينا جديداً هو « الحنان » .. لقد كنا نتكلم عنه فيما مضى دون ان ندري عنه شيئاً ذا بال .. ذا خطر .

فلنصل معاً حتى نعتقد ونؤمن بهذا الدين .

لنصل من اعماق قلوبنا ...

٦ يوليو ١٩٠٤

الاعوام تمر ... احد عشر عاماً ! لقد رحلت انا الى بعيد .. ولقد عدت .. وسارحل مرة اخرى .

لا شك انه قد اصبح لك منزل يا لويس ، يا من تقدم بـه العمر .. منزل يضم عائـلة ... وان حياتك اصبحت من اجل هذه العائلة .. على جانب كبير من الاهمية .

كيف انـت الآن ؟ اني اراك بعين الخيال .. ممتلىء الوجه .. عريض المنكبين .. قد اشتعل رأسك شيباً .. الا اني واثقة من ان وجهك ما زال - كعهدي به - يضيء لحظة الابتسام .. أليس كذلك يا لويس .. يا من تقدم العمر به ..

اما انا فلن اصف لك كيف تحولت الى عجوز .. نعم عجوز .. ان النساء يهرمن بسرعة .. اسرع من الرجال .. ولو قد قدّر ان اكون بجانبك الآن لبدوت بالنسبة لك كأم .. كان يعلن هذا ذلك المظهر الذي اضفته الشيخوخة على وجهي كما كان يؤكده ما يملأ عيني وانا انظر اليك .

انك ترى كم كنا محقين في ان يترك احدنا الآخر هكذا .. ما دام قد عاد الهدوء ، وما دمت - وقد امسكت بهذا الخطاب في يدك قبل ان تفضه قد عرفت خطي بعد شيء من التفكير ..

*

٢٥ سبتمبر ١٨٩٤

حبيبي لويس

ها عشرون عاماً تمضي على فراقنا ... ها عشرون عاماً تمضي وانا من التراب ... وان عشت حتى تقرأ هذا الخطاب الذي ارسلته لك تلك الايدي الامينة النقية التي ارسلت لك - خلال هذه الاعوام الطوال - الخطابات الاخرى ... فسوف تكون قد سلوتني... وحينئذ تغفر لي اني قتلت نفسي غداة فراقنا ... اذ لم اعرف كيف احتمل الحياة بدونك .. بعيدة عنك ! انه امس.. امس حين افترقنا.. انظر جيداً الى التاريخ الذي لا بد وانك لم تتمكن من قراءته جيداً على رأس هـذا الخطاب .. انه

ليل ولاجئة

لا .. لا تنامي
ولتوصدي باب الخيام
وتحفّزي للريح تلطم جبهة الخيمات ثائرة الصدام
الليل اوغل لا تنامي
خلف الخيام قطيع ذؤبان ظوامي
فهناك ثدي نازفٌ وهناك أثداء دوامي
وهناك جمجمة تطل ... تنزّ ما بين الركام
وهنا بقايا حشرجات لم تزل بين الحطام
صفراء قد يبستْ على شفة الظلام

*

لا .. لا تنامي
الريح اطفأت السراج وقهقهت خلف الخيام
وفراخك الزغب الصغار تراعشت مثل الحمام
وتكوّمت فوق الحصير .. تكوّمت مثل الحطام..
ناموا على جوع فما عرفوا هنا طيف ابتسام
وعلى خدودهمُ بقايا ادمع .. ورؤى قتام

*

لا .. لا تنامي
الليل أوغل لا تنامي
ضجّت مزاريب السماء وأعولت ملء الظلام
ومضى النهار السمح ذو الوجه الغلامي
وهناك في قبو الحياة هناك في دنيا الخيام
تمضي الحياة بلا ابتسام
تمضي كزفرة مومس ضاعتْ باهواء الظلام

*

نام الوجود ولم تنامي
وتوقفتْ في ناظريك دميعتان من الغمام
وهمست ثائرة الضرام :
يافا الجميلة لم تزل دنياك ماثلة امامي !
ولمحت ابراج الحمام
ومغارس الزيتون ملء غصونها الخضراء اسراب اليمام
وبكيت ثائرة الضرام ..
فمتى نعود الى الديار .. نعود من هذا الزحام ؟

القاهرة

محي الدين فارس

بالامس.. في غرفتنا .. حين كنت تبكي ورأسك مدفون في الفراش .. غارقاً في ضعفك وفي المك . وكنت اراك خلالها .. طفلاً كبيراً ..

انه بالامس.. والليل مسدل استاره على الكون .. ونحن بالقرب من تلك النافذة التي كانت تطل على الفناء .. نصف مفتوحة .. حين انحدرت دموعك في غزارة .. على يدي. انه بالامس.. حين كنت تصرخ .. وحين لم اقل انا شيئاً .. ولقد كافني موقفي هذا كل ما بي من قوة ..

واليوم .. كتبت على مائدتنا .. وسط اشيائنا جميعاً .. وسط هذا الاطار الرائع الذي كان يضمنا .. كتبت الخطابات الاربعة التي استلمتها في فترات متباعدة ..وانتهيت من هذا الخطاب الذي به انتهى كل شيء...

وهذا المساء..ساعد كل شيء حتى تصلك هذه الخطابات في مواعيدها.. وساعد كل شيء حتى لا تراني ثانية ..

ثم اختفى من الحياة .. ومن العبث ان أقص عليك كيف سيكون اختفائي .. ان الحديث في هذه الاشياء الاليمة ربما يحز في نفسك .. حتى بعد هذه الاعوام الطوال ..

المهم بالنسبة لي هو اني افلحت في ان افصلك عني دون جراح او آلام.. وانما في حرص وفي حيطة وفي حنو وفي رقة .

انني اريد ان اعيش حتى ارعاك واعنى بك .

ليس هناك مجهود يعادل ما يبذله الانسان عند افتراقه عمن يحب . وانت برهافة حسك لا تحتمل هذا المجهود .

سوف امثل هكذا بالقرب منك مرات متباعدة . قليلة.. . وسانطفيء شيئاً فشيئاً امام عينيك دون ان اؤلم قلبك الرقيق .. وحين اعلن لــك الحقيقة .. اكون قد كسبت وقتاً كافياً حتى لا تفهم فتحس فتتألم

يا الهي ! اني احس يا حبيبي لويس ما يعنيه موتي .

ان في هذا الحديث السامي معجزة رائعة . حديث اليوم .. حيــث نتحدث هذا الحديث الخافت الهامس من هذا البعد البعيد.. اتحدث وتصغي.. انا ولم اعد الا انت .. وانت لا تذكر من كنت .. انا .. وحيث كلمة « الان » تختلف اختلافاً هائلاً لمن كتبتها ولمن يقرأها ..

والآن خلال هذا الامتداد الهائل من الزمان .. خلال الابدية .. ولو أن هذا يكاد يبدو سقيما .. عقيما . اقبلك قبلة صادقة . ثم اقف .. اذ لا اجرؤ .. خوف ان يكون الحزن ما برح يرهقني فاؤلمك اذ ذاك .. لا اجرؤ ان اعترف لك بكل ما يمكن ان يوحي الحب به من جنــون الحب العظيم وما يوحي به الحنان .. الذي هو اعظم .

القاهرة — نقلهـــا الى العربية

توفيق حنا

مُناقشَات

الأدب والقومية

بقلم سامي عطفه

عندما أخذت عدد — الأدب والحياة — الذي صدرت به « الآداب » في مطلع ايار ، لاحظت اشارتها الى مناظرة الدكتور طه حسين والاستاذ رئيف خوري « لمن يكتب الاديب » كما اشارت الى ان « .. للآداب كلمة في الموضوع ، وسيكون لقرائها ، من غير شك ، كلمات وكلمات .» ويحسن بي أن اشير في اوانه الى أنني لست ناقداً ضليعاً ، فهذه اذن كلمة، مجرد رأي في دفاع الاستاذ رئيف خوري « الأديب يكتب للكافة ».

لقد قرأت في تقديم العدد بتوقيع « الآداب » هذه الفقرة « ..وينسى هؤلاء من غير شك أننا نمر في فترة هي اخطر فترات وجودنا الكياني . وأن خير ما يستطيع انسان أن يعمله ، هو ان يسعى الى ارسال بعض اضواء هادية يتلمس فيها السائر طريقه ، ليعرف انه متجه الى غايته . » . وانني اذ اثبت هذه الفقرة من تقديم « الآداب » فانما افعل هذا لصلتها بالحقيقة القاسية لواقع الامة العربية في العصر الحديث ، ولتحديدها تحديداً كافياً دور الأديب العربي في حياة أمته . إن طبيعة هذا الدور تصل ببحثنا الى الحكاية الدائرة حول الادب الملتزم الذي نلاحظ انه نشأ في وطننا ، على نحو أوضح ، مع نشوء هذه المجلة الكريمة . واذا كنت ساتحدث عن الالتزام في الادب ، فليس علي ان اسوق الحديث الى الاسس النظرية التي طال بحثها . لكنني سأتحدث عن الفرق بين نوعين من الالتزام تحدد كل منهما في ادبنا العربي ، وان لم يكن هذا التحديد ظاهراً جلياً، فانما يعود ذلك الى ضعف الآثار الادبية التي تصدر عن هذين النوعين . فاذا كانت الآثار الادبية ضعيفة الى درجة لا نستطيع معها التمييز بينها ، فلنعد الى المنابع ، الى اتجاهات الادباء ولنناقش هذه الاتجاهات ، واعتقد عندئذ ان سيكون بوسعنا التمييز والتوضيح الى درجة بعيدة .

هنالك نوعان من الالتزام في ادبنا العربي . وربما اكثر . والاستاذ رئيف خوري يعد احد دعاة الالتزام في الادب ، ونفهم ذلك من حديثه « الاديب يكتب للكافة » حيث أنه يجرح رأي توماس مان في تأثير الادب بالمجتمع ، فيقول بان الادب يستطيع ان يقضي على الشرور ويظهر جانب الحق والخير ويستشهد بالقرآن والانجيل وآثار روسو وتوم باين وغوركي ، كدليل على ان الادب يخلق الحياة خلقاً جديداً . ثم يقول معلناً عن رأيه في الادب بأن على الاديب أن يكتب للعامة الذين يعانون وحدهم التجربة الانسانية ، لا للخاصة المتخمة بالروح البورجوازية والتي لا تمس التجربة حياتها . فهو يكتب آخذاً من الشعب معطياً إياه وبعبارة اوضح موجَّهاً موجِّهاً . واحياناً يمضي الاستاذ رئيف في دفاعه عن نظريته وأحياناً يأتي بالامثلة ، ويحمل على الادب المترف الموشى من الخارج الفارغ من الصميم ؛ يحمل عليه لانعدام صلته بحياة الجماعة ، بتجربتها الانسانية . ويحمل عليه لانه صنع خصيصاً لارضاء الاذواق المترفة البورجوازية ، الاذواق التي هي بحاجة الى تسلية ، الى نكتة ، الى اشياء مضحكة ، تطالعها بذهنية متخدرة قبل النوم بعد وجبة الظهيرة . وبعد أن يتوسع في الشرح يعين للاديب محاور أربعة عليه ان يدور حولها في أدبه لان هذه المحاور — سنأتي على مناقشتها — هي اسس القضايا العصرية المتشابكة للشعوب . وبعد ان يفصل ويشرح هذه المحاور ، يعود مرة اخرى الى القول بأن على الاديب ان يوجه شعبه وان يكون بدوره موجهاً من شعبه . ومادام التفصيل قد وصل الى التوجيه ، فانه يسارع الى القول بصراحة بأن مذهبه يختلف عن مذهب الادب السوفياتي ، وينتقده بصراحة قائلاً : « اني انكر اشد انكار ان يكون معنى التوجيه للأديب بقسر او باغراء من الدولة والحزب الحاكم ، انكر اشد الانكار ان يكون معنى التوجيه للأدب تلقيننا « من الدولة والحزب الحاكم . » ثم يعود الى هذا الانتقاد فيقول ساخراً : « يولع الماركسيون السوفياتيون الرسميون بترديد هذه الكلمة : « الادباء مهندسو الاروح البشرية . » صحيح . ولكن شرط ان لا يكون هؤلاء المهندسون قد هندس لهم سلفاً كل شيء ! » . وبعد أن يعيد المحاضر هذه العبارة مؤكداً خطر توجيه الدولة على الادب يقول بصراحة ووضوح : « هكذا تقول الاشتراكية الحرة التي اعتقدها . » وبكل وضوح وصراحة نفهم ان الاستاذ رئيف خوري ليس شيوعياً ، وليس تابعاً لسياستهم الادبية . فهو قد فصل نفسه عن هذه السياسة واتخذ لنفسه موقفاً شخصياً مستقلاً عن موقفهم . انه يدين بالادب الموجَّه والموجِّه بوعي من الاديب نفسه . فهو يقول : « ولكني اصر اقوى اصرار على ان يكون هذا التوجيه بفعل ارادي اختياري من الاديب حصل له بعد اقتناع داخلي أقامه على الحقيقة بعدما تسنى له ان يعرفها بالشروط التي تُعرف بها الحقيقة .» إن هذا الامتناع الداخلي المقام على تفهم الحقيقة الموضوعية لا يرتبط في نظرية الاستاذ رئيف خوري ، بالقضايا الداخلية الخطيرة التي هي حاجة الامة العربية الحيوية ، بل ان الاستاذ رئيف يعمم نظريته حتى تشمل جميع قضايا العالم ومشاكله في العصر الحديث ، صارفاً النظر عن حقيقة كونه فرداً من امة لها ظروفها الخاصة وقضاياها الخاصة . واننا نلمس هذه الحقيقة في نظرية المحاور الاربعة لقضايا الكافة : « وهكذا كان لا بد لأدب كل عصر من ان يتعلق بمواضيع مشتقة من قضايا ذلك العصر ومشاكله ، مواضيع هي همّ جماهير ذلك العصر وبالتالي لا معدى للاديب عنها فهو يكتب فيها وهدفه الجماهير او الكافة فيما يكتب ، منفعلاً وفاعلاً متأثراً ومؤثراً . »

« وعصرنا هذا يا سيدي الدكتور قد برزت فيه قضايا ومشاكل معينة اشتدت والحت الحاحاً حتى اصبحت هي قضايا الكافة ومشاكلهم . وهي في رأيي تدور على اربعة محاور : الاستقلال الوطني والحرية الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسلم بين الشعوب ، او على تعبير ادق بين الدول ولاسيا كبراها . ومرجع هذه المحاور الاربعة كلها الى زيادة تحقيق الانسان لانسانيته او الى تمكينه من تخطي طور انسانيته الراهنة الى طور أرقى ، مع ما ينطوي عليه ذلك من نفي الاستعمار والاستثمار والقبح والفقر والمرض واقرار الاخاء والامن والحرية والتراحم بين البشر وخلق نفس بشرية اسمى واصفى واقرب الى الله ، وتقوية سلطان اليد والذهن البشريين على الطبيعة لتسخر كل طاقتها لسعادة الانسان واشاعة الجمال في حياته . »

من الثابت هنا ان تفكير الاستاذ رئيف قد انطلق ، عندما فكر بمحاوره الاربعة ، على نحو عالمي . فهو لم يرض بأن يقف من القضية الانسانية موقف الشيوعيين منها . لقد تبرأ من اتجاه الماركسيين السوفياتيين على نحو ملحوظ ، وكذلك فاننا لم نلحظ ثمة اتجاهاً قومياً ، قومياً عربياً ، في خطوط فكرته . وهكذا فانه إذا انفلت من النظرية الشيوعية السوفياتية فانه لم يتقيد بالنظرة

القومية . مما لا شك فيه أن الاستاذ رئيف خوري فرد من افراد الأمة العربية الذين يحيون حياتها بكل قسوتها ، وانحرافها ، بكل آلامها ومآسيها ، هو الذي قد اختار الوقوف الى جانب الشعب في قضيتـــه . ولو أن رأي الاستاذ مجرد رأي شعوري يرتبط بنظرية الفن الجميـــل المريش المذهب لقلنا عنه ، عن رأيه انه نزوة من نزوات الشعراء . ولكنه هو الذي دافع ضد الاباطيل في الادب ، الاباطيل البورجوازية الطبقية ، قد اصر عـــلى الوقوف الى جانب الشعب ، وليس هذا فحسب بـــل انه ربط هذا الموقف بنظرية علمية فكرية هي اشتراكية الحرية التي يعتقدها . وما دامت هذه النظرية تتصل بالشعب من جانب وبالعلم من جانب حق لنا ان نتأمل قليلاً موقفه وان نناقش ولو قليلاً هذا الموقف ، لأن لهذا الشعب ، لهذه الكافة ، التي وقف الى جانبها الاستاذ رئيف ، قضية صريحه متميزة ، ولأن حقيقة العلم لا يجوز ان تضل في جانب منها ، ويجدر بنـــا القول أولاً ان الشعب هنا هو الشعب العربي ، لكن الاستاذ رئيف لم يقل ذلك ولو مرة واحدة. فالشعب العربي لم يدخل في حسابه إلا كواحد من شعوب العـــالم التي يتبنى قضيتها ، وفي ذلك ما يخرج برأيه عن كونه رأياً مستقلا موحداً ، ليجعـــله متسقاً مع رأي السوفياتيين انفسهم رغم محاولته الاستقلال عنهم .

إننا كثيراً ما نسمع محطات اذاعة موسكو تتغنى بحرية الشعوب واستقلالها الوطني ، والدعوة الى السلام العالمي والقضاء على الاستعمار الغربي والاستثمار والقبح والفقر والظلم الاجتماعي ، وتدعو الى اقرار الاخاء والامن والحرية والتراحم بين البشر ، ولقد سمعنا نفس هذه الاشياء من الاستاذ رئيف خوري . لقد سمعنا من موسكو ومن دعاتها في وطننا دعوتهم ودعوتها عمال العالم الى الاتحاد في وجه الظلم الاستثماري الاستعماري ، ورأينا ان جمية انصار السلم العالمي وانصار الشعوب المحبة للسلام يقفون باقدامهم على كل ارض . والاستاذ رئيف خوري لم يقف مع العامل العربي فحسب بل وقف مع الكافة العالمية ، ان دعوة الماركسية السوفياتية دعوة عالمية ، ودعوة الاستاذ رئيف عالمية .

يجب ألا ننسى أن دعوة السلام إنما هي الحرب الباردة التي يتقن الروس تكتيكها ، وربما كان ذلك من حقهم كدولة قوية لها مصالح ومآرب ودعوات تجيز في منطقها هذه الحرب الباردة لمجابهة الاستعمار الغربي والسيطرة الغربية التي تحاول بدورها خنق النفوذ الشيوعي في كل بقعة من الارض . وربما جاز لها أن تدعو الى السلم دون ان تفكر بقضايا العرب التي ظلت الى يومنـــا دون حل . اما ان يتجاوز اديب عربي هذا التجاوز ، ان يغفل قضايا امتـــه ويرفع عقيرته مع الصائحين عاش السلم العالمي ؟ فهذا حقاً يدعو الى العجب . لنتأمل قضايانا يا سيدي ولنحكم ان كان السلام العالمي يحل هذه القضايـــا ، هل تؤمن ان فلسطين ترجع عربية دون حرب . هـــل يمكن ان نقهر الصهيونية وسيادة اسرائيل والخلق اليهودي دون حرب ؟ والمغرب العربي هل تضمن للمغرب العربي الحرية دونما لجوء الى الحرب ، وطرد الاستعمار والانفكاك من الاحلاف الغربية ، هل يتم ذلك دون حرب ؟ هل يمكن ان تتم الوحدة العربية دون ان يحاول أعداء هذه الوحدة القضاء عليها؟ هل يتم ذلك دون حرب !؟ عجيب اذن ان تدعو انت يا سيدي للسلم العـــالمي دون ان تفكر بعدم الانسجام القطيع بين هذا السلم المصطنع وبين قضايا امتنا . انظر يا سيدي الى ارجاء الوطن العربي تر كل عربي يعتبر نفسه في حالة حرب . الا تعتبر نفسك في حالة حرب يا سيدي !؟ ألا تخشى حقاً أن تلتهم اسرائيل لبنانك العزيز وحتى سوريا ، اذا غلب انصار السلم في هـــذين الجزءين المستقلين !؟ وبعدئذ لماذا تعتبر السلم قضية الدول الكبرى فحسب؟ هل تعتبر حقاً ان لا قضية الا قضية الدول الكبرى وسلامها؟ اذا امنت وجود السلام بين العالمين الشرقي والغربي ، هل تحصل على سعادتك وسيـــادتك وتستكمل انسانيتك ؟ هل تقتنع بأن العرب سيحيون ابد الدهر على افضال أمريكا وروسيا ؟ اليك هذه الحقيقة يا سيدي ، ان العرب لا يؤمنون حالياً بالسلام العالمي ، ولا يسلمون قضاياهم الى ايد غير الايدي العربية .

أنا معك بأن علينا نحن العرب أن نحارب الاستعمار والاستثمار مهما كان لونهما . داخلياً ، خارجياً ، شرقياً ، غربياً . ولكن كيف سنحارب ؟!

أنا معك بأن علينا نحن العرب ان نستأصل جذور الشر والفقر والقبح والمرض ... ويجب ان تكون معي في أن على العرب ان يحددوا موقفهم فلا ينحازوا الى اي قوة أمريكية او روسية ، وان يفكروا بقضاياهم على اساس قومي مستقل ، وان يبدأوا العمل من الداخل لا من الخـــارج .

أما الحرية والتراحم بين البشر . والأمن والاخاء الانسانيان . . الخ فالحقيقة هي ان التاريخ لم يعرف من هم أفوق وانبل من العرب في انسانيتهم واذا كنا سنحقق سيادتنا ونهضتنا القوميتين فاننا لن نعادي ولن نعتدي على احد ، الا من يحاول ان يعيق نهضتنا أو يعتدي على سياستنا .

ان قضية الشعب العربي ليست قضية فقر فحسب وليست قضية مظاهر حياة هـــذا الشعب ، ولكنها قضية انعثار الروح العربية واندثارها . انهـــا اسطورة اليعاذر تتجدد . إن القضية هي قضية اساس هذه الحيـــاة لا مجرد مظاهرها .

فالحل الصحيح هو بعث شامل للامة العربية ، بعث قواهـــا الروحية والخلقية ، بعث انقلابي يقضي على الاطر المزيفة التي تأطرت فيهـــا الحياة العربية ، ويقضي على المؤسسات الغربية وعلى الصيغ الجامدة التي شكلتها رواسب اجنبية ترسبت الى الحياة العربية .

فاي اديب ملتزم عربي عليه ان يضع هذه القضية نصب عينه : « البعث » بعث اليعاذر الميت . إن اليعاذر بحاجة الى من يعيد اليه الحياة والروح وليس في حاجة الى الكساء والطعام والى درس في السلام ووعظ في الدين . انه بحاجة الى رب قدير يصيح به : هيا ، اليعـــاذر ، قم الى الحياة . وبعدئذ ثق ان اليعاذر هذا سيعرف كيف يحيا وكيف يستعيد رجولته واقدامه .

انت تعرف يا سيدي ان الترجمات التي وضعت للتـــآليف الروسية ، من غوركي الى الكسي تولستوي الى فتيان الادب السوفيـــاتي ، ان جميع هذه الترجمات مكدسة في المكاتب لا تجد من يعنى بها . والحقيقة البسيطة التي تفسر ذلك ، هي ان شعبنا ما كاد يتذوق طعم هذه الآداب حتى وجده مراً غير مستساغ ، ورغم الدعاية الصحفية والدعاية الشعبية ، فقد انصرف الشعب عن هذا الادب وربما الى الابد . فلماذا ؟ لقـــد انصرف لسبب بسيط هو أن هذا الادب لا يفصح عن حاجاته ولا يرفع قضيته .

نحن بحاجة الى الاديب العربي الملتزم ، والملتزم قضايا امتـــه ، وقضية بعثها بصورة خاصة . لقد طربت لرأيك ان الاديب يجب ان يصدر صدوراً اصيلا عن وعيه وعن القضية التي يراها هي الحقيقية ، فلا يكون مدفوعاً من قبل الحزب الحاكم ، بل يصدر عن نفسه ، وما نفسه في الحقيقة الا التعبير عن قضية امته . ربما لم يخلق الاديب العربي الملتزم بعد . وربما ظل أدبنا العربي مجرد تقليد للآداب السوفياتية ، ولكننا اذا كنا مخلصين توجب علينا ان نعمل على خلق هذا الاديب الملتزم .

نحن بحاجة الى نظرة جديدة للآداب العربية ، والجاهلية منهـــا بصورة خاصة ، نظرة تتمشى مع الصعيد القومي . والحقيقة هي ان تلك الآداب تعكس الجمال الروحي والخلقي للشخصية العربية ، التي تستمر الى الآن تحت قشور العصر والحضارات المختلفة .

نحن بحاجة الى دراسة جديدة للتاريخ العربي ، دراسة تخلو من التعصب الطائفي والمذهبي وتتناوله على اساس انه تاريخ تجلت فيه الشخصية القومية . نحن بحاجة الى خلق انقلاب شامل يتناول مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية انقلاب شامل في الحياة السياسية يضع الأمر في ايدي العرب وحدهم . نحن بحاجة الى العمل من المركز ، من الصميم ، لا من الاطار والخارج .

نحن بحاجة الى الاديب العربي الملتزم الذي يستطيع ان يعكس ضرورات امته وقضاياها في ادبه ، ويستطيع ان ينير الطريق امام الشعب والقادة . نحن بحاجة الى اديب عربي ملتزم واع كل هذه القضايا . حتى يستطيع أن يهتف بالمعاذر : انهض ايها الرمم ، وخذ مكانك تحت الشمس .

فهل هذا الاديب اديبك ؟ انه ان كان هو كنا حقاً متفقين والا كنا في واد .. وكنت انت يا سيدي في واد .

سلمية – سوريا **سامي عطفه**

غموض الفنان المعاصر .. والآخرون

بقلم محي الدين محمد

هناك * ما يشبه بوابة كهف (اللصوص الأربعين) بين المصور المعاصر ، والمتذوق .. شيء هو بين غموض الخرافة ، وغرابة الشعوذة ، جسر لن يعبر إلا بـ (افتح يا سمسم) وهي مفقودة بالكلية بين كافة المتذوقين . عالم ساكن ، جامد ، خلف البوابة الحجرية الصلبة. ولن يفك هذا السحر سوى هتاف مناسب ، ولن يتحرك هذا الكون الصامت الا بصوت تعرفه جيداً هذه الجمادات ...

نعم (افتح يا سمسم) .. وكم فينا من يملك مقدرة (علي بابا ..) ؟!

وعلى هذا تظل البوابة مغلقة ، وبينها وبين الآخرين ذلك الجسر الكافر ، والذي خلقه الفنان مؤكداً أسلوبه . أنفترض حقاً أن ناقداً ينفذ خلال ذلك السياج بغير كلمة السر ؟ بغير ان يقولها ؟ إنه يستمر في نطح ذلك الجدار وهو يصيح (افتح يا فول ..) أو (افتح يا فلفل ..) ذاكراً كافة التوابل كيما تلعب المصادفة دورها ، ويتحرك هذا العالم المجهول ، كيما يعيش وينبض متدفقاً بالدم .

ولكنه ، حتى لو قالها ، فان الجماد يذكر : إنه ليس الصوت المناسب ، لن يستحق هذا المعنى شرف إحياء كل تلك الذكريات .. ذلك العالم المغلق ، انه ليس مخصباً .. وما هو عمل الناقد ، إذا صمتت اللوحة ، وأغلقت سترها ، واطبقت فاها ؟

أيملك هذا (المثقف) غير ثقافته ؟ ولكنها ليست إلا (ديناميتاً) يستعمل لتفجير البوابة .. وما الذي نجده حقاً بعد هذا الا الخراب ، الا دنيا الفنان مختلطة بدماء (الاربعين) صالحاً ؟ واذا لم تستطع اللوحة ، والتي هي كل دنيا المصور ، ان تعطيني انا المتذوق ، وهمها الذي ادركه ، فلن يستطيع الناقد الا ان يعطيني عالمه هو ، عالمه هو ، كداود ، أو سليمان . أما عالم الفنان نفسه ، فلم تزل تخفيه الطية بعد الطية ، غائباً من قلب الخط واللون والموضوع .

نعم .. وحتى إذا قالها الناقد ، فان اللوحة تفقد أهميتها ، وأصالتها وصدقها . فهي ليست عالماً نشترك جميعاً في خصائصه ، ليست احجية نفك طلاسمها ، ثم نذهب لمقاهينا نتجرع الشاي ونتحدث عن النساء .. إنها تمثل التطابق العنيف والامتزاج الرائع بين هذا (الشكل) ومأساتي كانسان ، ومأساتي كفرد . انها تمتنع عن ان تكون مسألة هندسية غامضة يحلها الناقد ثم تصفق الجماهير .. : يا ربي كم هو ذكي ! ! او « ارأيت كيف يمثل هذا الخط معنى الثورة .. أرأيت .. ؟ » و .. « لقد كان هذا غامضاً علينا ! »

ايمثل هذا الخط حقاً معنى الثورة ؟!

ليست حقيقة اللوحة كامنة في محض اللوحة . إنها تكمن في الضوء المنسكب على اللوحة ، في الشعور بارتباطية عنيفة بين المشكلة المطروحة وبين مشكلتي ، في إعاشتي (كفكر) في صميم العالم المعلق على الجدار ..

وباللحظة التي افقد فيها هذا الارتباط ، وباللحظة التي تمتنع فيها اللوحة علي ، استطيع ببساطة ان انحيها جانباً ، فهي لا تمثلني .. انها تفترض انساناً معيناً .. إن مشكلتها في اقليميتها .. في انها لا تعطف إلا على (فلان ابن فلان) ..

لقد رفضت اللوحة ان تكون مجرد نافذة مفتوحة في افق جميل . فهي ليست متعة . واستدارة كتف ، وبروز صدر ، وياقوتية فم ، لا تمثل إلا استدارة وبروزاً وياقوتية .. ومن هنا انغلاقها .. وصمودها الرقيق ، السمج ، والهلامي ..

[ألا تعجبني هذه اللوحة ؟.] ١

[تعجبني !] (؟) وبذلك يتكون الرد من صميم السؤال !

ليس هو الاعجاب ما يبحث عنه الفن ، وكم من السنوات ظل البشر يعجبون (بمستحمات رينوار) و (براقصات ديجا) ؟ ثم ما هو الفاصل الدقيق بين الفن القديم الذي بحث ووجد الامتاع ، وبين الفن المعاصر الذي لم يجد حتى اسلوبه ؟ ايعود الفن بعد كل هذه القفزات الرائعة مجرد عرض لأفخاذ وصدور تلك الساقطات ، بقصد الاعجاب ؟ أم يغلق قوقعته ، ويحتم على غائص ماهر ان يصارع هذه التيارات والموجات والقروش ، ويحطم الغلاف الصلب ويستخرج الدرة ؟

انني اقف هنا ، كمتذوق ، وبيني وبين هذا (القمقم) بصورة الألوان والخطوط ، عداء فظيع ، فهي – (اللوحة) – ترفضني وتحتقرني ، وتنبذ ثقافتي ، وأهليتي لفهمها لأنها اعقد ، واصلب واغمض من ان تهبني صداقتها .

نعم ، انني اقف هنا ، ويقف معي الناقد والفنان : إن هذا اللون الاصفر يمثل الجنون ! ويصحح الفنان في ظرف : قد يقارب حكمك الحقيقة ، فهو يمثل المرض ... » اما انا ، فلم لا يمثل عندي الصحراء ؟

الجنون والمرض والصحراء .. ماذا تمثل جميعها ؟

التوحد ، الانفراد ، العزلة ، مرض العصر ، فقدان الذات ؟! الانسحاق التام تحت وطأة الآلية والميكانيكية .. لقد وضحت الالوان ، لان وضعيتها مقصودة بدقة وحكمة ، ووهبني الطلاسم سره .. (وفتح سمسم باب المغارة) اما ان اقف متأملا اللون الاصفر ، ثم : ولم لا يمثل عندي الذهب ؟ فقد دلت حقاً بالضحولة .. ولكن اين يقف الفنان نفسه بالنسبة لي ؟! انه يقف على صعيدي الضحل عينه ، فلو أظهر لي فارقاً دقيقاً بين حتمية ان يكون الاصفر صحراء ، او مرضاً ، وبين شك ان يكون ذهباً ، لأصبح محتماً أن انفذ خلال المفهوم الاول مؤكداً غرضه . ان الفنان يمثلني حقاً في لوحته

---

* راجع (الفنان المعاصر .. والآخرون) مقال الاستاذ شاكر حسن سعيد المنشور في العدد الخامس (نوار) من السنة الثالثة للآداب .

١ يقول (هربرت ريد) في The Meaning of Art « بأن الانطباعة الاولى لدى رؤيتي للوحة ما ، هي الحكم القاطع على نجاحها أو فشلها .. »

التي يباشر فيها مرضي ، ومأساته التي هي مأساتي ، كفرد قطيعي اولاً .. ثم (كمباس او فرديناند) ثانياً ، وليس شقاؤه في ان لا يفهم بقدر ما هو : ألا يستطيع التعبير ، ان يفتقد المقدرة على إظهار الغرض ، وبث المعنى خلال الخطوط .. آه !! نعم .. الفنان الفج " .. لا الذي ينذر الجمهور بالشر والسلبية ، بل الذي لا يوصل ، الذي لا يعطيني إلا مرضه ذاته .. عالمه هو .. كنتاج بيئي معين ، غامض على البيئات الأخرى ، كاقليمية معينة ، وبالتالي ، افتقده قطعاً في لوحته ، لا أجده ابداً .. لأنه هو .. هو .. وليس هذه المشاركة القاطعة بين مجموعة المصافير . و (الفزاعة) ..

ان خطوط الفنان نفسها وأسلوبه ليست إلا شركاً . ولكن أين يقع الطعم الذي يعني سقوطي الحتمي ..؟! إنك تخفي في طريق ، ليست طريقي ، شركاً بلا طعم ، متصوراً وتوعي فيه ، ولفرط وثوقك بنفسك ، نسيت ان تثق بها حقاً .!! وليس الطعم الا العلاقة التي تربطني بك . وفي الظلام في الصمت ، سأذهب فريداً ، وحيداً ، تجذبني تلك الفريسة الهينة ، والتي أراها من هنا .. وسأذهب وحدي صامتاً لافتح كل ذلك العالم المختفي .. لأفتحه عنوة ، لأنه امتلكني وأسرني ..

وسوف أتركك تستغرب : كيف حزرت ؟ .. ولكن .. أليس مرضك هو نفسه مرضي ..؟!

***

كم يمثل اللاشعور في المسافة التي بيني وبين غموض اللوحة ؟ .. وكم يعطيني حين أحاول (في مذلة) أن أستجيب لداعي اللوحة الغامض ..؟ أن (أغيب) أمامها عن صوابي ، محاولا أن أستبطن هذه البئر التي تنفذ من الناحية الأخرى للكرة الارضية .. ؟ !

لا تجوز ، حتى ولا (إفتح يا سمسم) لغواية هذه البوابة .. اللاشعور ..!

[من خلال أجساد وعواطف وأحلام وهذيان تلك الكائنات البشرية سينتزع الفنان رؤاه ونماذجه]

ولكي يدلل الفنان على أننا نهذي ، فهو يستعمل الهذيان نفسه .. وليست إلا الابرة ما يستخرج ابرة دفنت نفسها في كعب بشري .. لا الملقط ولا عملية جراحية ..!!

والمباشرة التي يصطنعها الفنان في إغلاق رموزه ، ليست إلا بحثه العقيم عن قيم عقيمة ، ليس سببها أن تقام على لوحة ..

« فاذا اخفقت المحاولة ، أصبح مستحيلاً ، مع أحسن الفروض ، ان نحكم أمعنى ذلك اخفاق المثال .. أم إخفاق النحت .! »١

لقد حاول (جياكومتي) ان يحقق المطلق ، فضغط الابعاد الثلاثة بالمسافة ، وخلق اناساً أشد نحافة ، وأكثر طولاً ، وابتكر نسوة من جبس يكدن يونعن أمام أعيننا ، بطبقة دهنية ، وزغب ناعم تلاحظه كلما اقتربت من أجسادهن . ولكنه كان يفشل في كل محاولة ، كان يفشل لانه حمل النحت مالا يستطيع ان يحمل : فليست المشكلة ان اخلق انساناً يمشي ويتكلم بقدر ما هي : أن أبث المشكلة .. وعلى هذا فقد حقق (جياكومتي) المطلق بنحت المظهر الراهن ..

« ولما كان في آخر الأمر يعتمد على عين الناظر في إحياء هذه التماثيل الجامدة ، فالامر ينتهي به ، وهو الباحث عن المطلق بأن يحمل أثره متوقفاً على نسبية وجهات النظر التي تتكون عنه .. » ٢

نعم !! الجنون .. المرض .. الصحراء .. ويكون نجح في ان يدلني

---

١ و ٢ جان بول سارتر « في البحث عن المطلق » مجلة الكاتب المصري

— خلال عالمه — بالمعنى الذي يستهدفه ، ولن اخطىء في تصور الاصفر ذهباً لأن خطوطه لن تدل بمعنى الذهب

[ولكن ما يرسمه الرسام المعاصر يستدعي معاصرة الناظر في استيعابه للعمل الفني . ذلك ان غياب الانسان خلال النسخ الزائفة للآخرين هو الحجاب الذي يفصل ما بين الفنان الحديث وجمهوره] .

يستدعي معاصرة الناظر !! ان تكون المشكلة المعروضة ، معاصرة نحسها ونستطيع (بالبداهة) استخراج مكنونها ، بالبداهة ، لا بالتفاعل النيء [بين ما يوجد التفكير والشعور واللاشعور في العمل الفني] .

إنني احول اللوحة مقالاً فلسفياً ، يحتاج مخاً (هيجلياً) لتذوقه ، لفرط حشوده بالتفاصيل والمغلقات ، فلن يقف المتذوق أمام اللوحة كيما يستخرج معنى لكل خط من هذه الخطوط المتشابكة والمتقاطعة .. فهو ليس حلال عقد! وانما يريد أن يلهج بسرعة إلى الغرض ، أن يدركه في صميمه بلا استعارات ، او غمزات من ناقد يشير له ...

« انظر .. هنا .. هذا لا يمثل غمامة .. إنه الغضب !! »

وبذلك لا اسقط في المزلق نفسه الذي آخذه على المتذوق : فكيف يميز (المسكين) بين الصولجان والعصا والعكاز وشاهد القبر .. في هذه القطعة البيضاء ..؟

إذا لم يكن واثقاً أن هذا ليس إلا شاهد قبر فلن يصل الى الحقيقة !! وسوف يظل واقفاً امامها تائهاً ، حائراً . ومن خلال سؤال « ابي الهول » .. كان يبرز الجواب هيناً ، سهلاً ، مشرق الروح .

« ما الذي يمشي في الصباح على أربع ، وفي الظهيرة على اثنين وفي المساء على اربع ..؟! »

.. مَنْ غير الانسان ..؟!

وعلى هذا .. فلم يكن فضل (أوديب) أن اكتشف الاجابة ، بقدر ما كان الفضل لأبي الهول في عرض السؤال ذلك العرض الهين والمغلق بالوقت نفسه ...

ليس الناقد ، ولا الفنان ، وسيظل الحجر مطبقاً حتى يتألف من مفهومي الفنان والمتذوق ما يحتم إضاءة الكهف الأسطوري والوقوف امام عذابات الانسان كتمهيد للتصعيد الموهن ، والبطيء للبشر .. من بؤس القطيعية إلى النقيض المقابل ، والذي هو غاية الفنان ....

القاهرة **محي الدين محمد**

الى الاستاذ رئيف خوري
بقلم بدر شاكر السياب

عزيزي الاستاذ رئيف خوري

أراني مديناً لك بالاعتذار . فالحق ان كلمتي التي كتبتها تعليقاً على قراءتك للعدد الشعري من « الآداب » كانت تتسم بالقسوة و « النزفزة » كما سميتها . وقد لمست من خلال ردك الاخير روحاً كبيرة رحبة الأفق زادتني إعجاباً بك على إعجاب واكباراً لك على إكبار . واذا كانت كلمتك قد اتسمت في بعض اجزائها بالمغالاة ، فان اكثر اللوم انما يقع علي ، فقد استفززتك من قبل .

ان التحدث اليك يلذ لي . فلتسمح بقليل من صبرك وتدعني اناقش بعض ما جاء في ردك الاخير .

لعل اختلاف النهار والليل الذي ينسي قد انساك – ايها الصديق الكريم – ما كتبته عن قصيدة السيد عبد الصبور في « قراءاتك » للعدد الشعري من الآداب ، فقد جاء في ردك الاخير قولك هذا : « .. كأني كنت اعين وزن قصيدة الاستاذ عبد الصبور أو كأني نفيت عن غيره استغلال وزن الرجز ... » . وسأثبت هنا نص ما سبق لك ان قلته عن تلك القصيدة ووزنها : « ويعجبني من الاستاذ عبد الصبور انتباهه للامكانات الكامنة في وزن الرجز التام والمجزوء . فقد نحى القدماء هذا الوزن ليستعملوه في الشعر العلمي ، مع انه من اغنى الاوزان العربية بالطاقة على استيعاب الشعر بكل فنونه الخ .. »

أفليس هذا تعييناً لوزن القصيدة؟ أما عن استغلال وزن الرجز لكتابة ما نسميه بـ « الشعر الحر » ، فلا أحسب أحداً قد حاوله قبل الفقير لله كاتب هذه السطور في قصيدته المتواضعة « انشودة المطر » . ولكن المفهوم من كلامك ان السيد عبد الصبور هو أول « المتنبهين » الى امكانيات هذا الوزن .

أما ما ذكرت من أن قولك هذا « لا يعني أنه – اي عبد الصبور – اقتصر على هذا الوزن في قصيدته » فهو كلام يحمل عناصر فنائه في داخله . فالحق أن عبد الصبور قد اقتصر على وزن واحد في قصيدته ، وهو الرجز . ولست أدري لم قرأت قولي « مختلة الوزن » هذه القراءة العجيبة التي جعلته « مختلفة الوزن » .

كلا ايها الصديق ، إن الابيات الاثني عشر التي ذكرتها من قصيدة عبد الصبور ليست « مختلفة » الوزن – أي انها من وزن آخر غير الرجز – ولكنها « مختلة » ، أعني مكسورة الوزن أو زاحفته أوسمها ما شئت غير أن تسميها موزونة . ولا أظنني في حاجة إلى تقطيع تلك الأبيات وتطبيق « مستفعلن مستفعلن » عليها . وبعد هذا فأين هي الموسيقية « الرجزية » المسرحية ؟ وبعد هذا أي عجب في ألا تلحظ الموسيقية الموجودة في رجزي أنا : هياي .. كونغاي ، كونغاي . (الصين) حقل شاي ؟ والصين يا سيدي ، بلد آسيوي قبل كل شيء! ولتعلم أني مثلك لا اعبد الأصنام، ولا أفرط في قوميتي العربية .

أما حديثك عن « الوضوح » الذي يعوز شعري ، فهو أمر يطول الحديث فيه . فعلينا أولاً أن نحدد معنى الوضوح في الشعر ، وعلينا ثانياً أن نثبت أن الوضوح شرط لازم لجودة الشعر . أين نضع رامبو – الذي كنت تجهله قبل أن يكتب عنه الدكتور سهيل إدريس – وأين نضع إليوت وايديث ستويل ، بل وأين نضع أبا تمام وحتى المتنبي إذا جعلنا « الوضوح » – كما يفهم من قولك – شرطاً من شروط الشعر الجيد ؟

ثم تتطرق اخيراً إلى « كثرة الاشارات التاريخية والاسطورية التي تقتضيني الشروح والتعليقات الطوال » . وهنا أحب ان اقف قليلاً لأناقشك واناقش الاستاذ محمود امين العالم الذي تطرق إلى هذا الموضوع ذاته من قبل . فلأعد الى قصيدتي (مرثية الآلهة) التي اخذ عليها الاستاذ العالم كثرة الشروح . الحق ان كل تلك الشروح كانت من فضل الكلام ، شيئاً ليس له من موجب – باستثناء لفظة واحدة هي اسم « كرب » صاحب معامل الأسلحة الشهير ، ومع ذلك فهو معروف لدى اكثر الناس . فمن لا يعرف « الأمبي » كمن لا يعرف الحرباء التي كان شعراؤنا القدامى يستعملونها في أشعارهم ، و « نرسيس » ؟ من لا يعرفه ؟ ومن لا يعرف « يهوذا » ؟ واذا عرف القارىء – من القصيدة نفسها – أن التمر كان يؤلهه معشر ثم يأكلونه حين يجوعون ، فليس ضرورياً ان يعرف أن قبيلة حنيفة هي ذاك المعشر . وكذلك قل عن بقية الشروح . ثم ان اكثر إشاراتي في قصائدي انما هي الى معان ضمنتها شعري . ومن الامانة ان نقول ان هذا المعنى مأخوذ او مضمن من بيت الشاعر فلان . وزعم الاستاذ العالم انني احذو حذو « إليوت » فيما اكتب ؟ كلا يا سيدي . ان ما اكتبه هو شيء من صميم التقاليد الشعرية العربية ودونك أباتمام لتعرف كيف كان يستخدم التاريخ والأساطير وشعر السابقين وكل ثقافته ، في شعره . إقرأ لأبي تمام قوله :

ما ربع مية معموراً يطيف به   غيلان ابهى ربى من خدها الترب

واقرأ له قوله :

إن كان (مسعود) سقى أطلالهم   فيض الدموع فلست من مسعود .

واقرأ له يصف الخمر :

(جهمية) الأوصاف إلا أنهم   قد لقبوها جوهر الأشياء

وما لي وللأمثلة أسوقها وهي اكثر من أن تعد ؟ إن أمامي شغلاً أهم من هذا . فهل سمعت – أيها الصديق الكريم الخوري – بما أحدثه تنبيهي إلى أبيات السيد عبد الصبور المختلة الزاحفة من رد فعل لدى بعض الصحفيين المصريين ؟ لقد دعا واحد منهم شعراء مصر الى الجهاد في سبيل الشعر المصري، وإعلان الحرب عليّ وعلى الشعراء العراقيين الذين اخذوا يهاجمون الشعر المصري « لأن رئيف خوري قد مجد الشاعر المصري الاستاذ عبد الصبور» . ولا أذكر أنك مجدته . كما أني أرى من رواد هذه الاقوال روحاً إقليمية يجب أن نحاربها بكل ما أوتينا من قوة . متى يفهم هؤلاء الصحفيون أننا عرب قبل ان نكون مصريين أو عراقيين أو لبنانيين ؟ متى يفهمون أننا حين ننقد عبد الصبور أو سواه لانضمر في أنفسنا أنه من هذا القطر العربي أو ذاك ؟ إنه شاعر عربي وحسب . افتراهم يريدون منا أن نسكت حين نراه يخطىء في الوزن ، فيقول :

شعر حبيبي حقل حنطة
صنعت من ضلوعي ذلك الصندوق
وجئت بستانك الصغير يا مليكة النساء
حدثتهم عن لوعتي ، يا جرحي المخضل ، يا ذلي..وكلهم مجروح
وعدت – في جرابي – بضعة من المحار

(أغنية حب – « الآداب » آذار ١٩٥٥)

او يقول :

الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير
ورحلة الضياع في بحر الحداد
الخمر تهتك الاسرار
ويضحكون ضحكة بلا تخوم
السندباد كالأعصار إن يهدأ يمت
وشاطىء البحار ما يزال يقذف الأصداف واللآل !
الخ .. الخ ..

(رحلة في الليل – « الآداب » نوار ١٩٥٥)

أفتونا أيها العارفون بعلم العروض ، فان اهتمامنا اليوم بالوزن محض الوزن ، في شعر هذا الشاعر .. اما المحتوى فالحديث عنه طويل أليم .

وأخيراً لا يسعني ايها الاستاذ الكريم إلا ان أعرب لك عن عظيم حبي واحترامي واعجابي . كما اني ارى لزاماً عليّ ان اشكر مجلة « الآداب » رحابة صدرها ، وهذه الحرية التي تتيحها لنا فنناقش الآخرين ويناقشوننا في سبيل التوصل الى الحقيقة التي لا نريد لها ان تموت .. في مجال الأدب على الأقل .

بغداد   **بدر شاكر السياب**

حول الشعر المصري الحديث

بقلم كاظم جواد

يبدو لي ، ان السيد محمود امين العالم قد اساء فهم تعليقي الذي نشرته في العدد الرابع من هذه المجلة ، حول الشعر المصري (الحديث) بصورة عامة والشعر الواقعي بصورة اعم . واساءة الفهم كثيراً ما ادت الى احتدام مناقشات عقيمة ، تساعد اكثر فاكثر على اشاعة البلبلة في المقاييس والقيم ، التي نشكو ظلها الثقيل ... ، ويلوح لي ان رد السيد العالم سيكون بداية نقاش عقيم مجدب سأتلافاه من الآن في ردي هذا .

من الواضح انني لم ازج بنفسي في الجدل الذي يدور بين السيد العالم والزميل الفيتوري ، الا بقدر ما يتصل بالنقاش الذي آل الى اعتبار بعض الشعراء العراقيين يمثلون خطاً منحرفاً في الشعر العربي ، والا بقدر ما يتصل الامر بالشعر الواقعي الانساني على المستوى العام .

ولهذا كنت ، وكنا ، نقف الى جانب السيد محمود في مسألة القومية الافريقية التي اثارها الفيتوري .. ، فالحق ان ليست هناك قضية بيض وسود بل قضية جنس بشري واعداء لهذا الجنس الرفيع الخلاق ، هذا مع عدم نكران اهمية الجانب السيكولوجي في نفسية الملونين المأزومة ، وان مجرد رغبة السيد العالم الى الزميل الفيتوري ان يتخلص (من انفعاله المأزوم) دلالة على وجود هذا العنصر النفسي ، الذي لن يكون ، في الواقع ، قضية تصير « بداية الخلاص » .

مجرد مراجعة بسيطة لكلمتي السابقة ستثبت ، انني لم اقف موقفاً قومياً متعصباً من اي مسألة تعرضت لها ، بل كانت شواهد تفكيري على الاصح تستمد اقتباساتها من شعراء عالميين (ناظم حكمت ، آراكون . فيديريكو غارسيا لوركا ، ايلوار) ، وحتى جو كلمتي القصيرة كان يستوحي فلسفة علمية اجتماعية لا اشك ان السيد العالم يدرك بعمق دلالتها الانسانية العامة .

ولهذا استغربت ، ان يحاول الكاتب الفاضل اتهامي بالمشاعر (الشوفينية) (غير السليمة) ، وانا لا اريد ان ارد عن نفسي هذا الاتهام الآن ، لأن مقاهي بغداد الرخيصة اسمعتنا الكثير من هذه الاصطلاحات التي فقدت معناها على السنة اسرع الناس الى الانهيار . والذي آخذه على السيد العالم . هو انه لم يكن دقيقاً في استعماله هذا الاصطلاح ، فالشوفينية بالمفهوم العلمي تعني : القومية العنصرية المتطرفة الاعتدائية ، والتي اتخذها الاستعماريون شعاراً لما سموه بالدفاع عن ارض الآباء Fatherland . واذاً فما هو الشيء الذي اكتشفه العالم في كلمتي ليمتد ويتعاظم الى شوفينية غير سليمة ؟ اي الى عنصرية اعتدائية ؟

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فأنا من المؤمنين بوجود امة عربية بالمفهوم العلمي لهذه الامة : من بقعة جغرافية ، ولغة ، وعنصر نفسي — تراث مشترك — ، تنتظم المجتمع الذي يستوطن البقعة الممتدة من تطوان حتى خليج البصرة ، والسيد العالم على ما لاحظت ، ينص كثيراً على ما يسميه : امة مصرية ، واذاً فهناك امة عراقية ، وامة شامية ، وامة اردنية ، وامة لبنانية ، وامة مصرية ، وامة ليبية ، وامة في واحة البريمي ايضاً ؟ ! واذا كان الامر كذلك بالنسبة لي كانت القومية المصرية هي قوميتي ، وكانت مفاخرها مفاخري ، وتراثها تراثي الذي اعتز به ، وادعو الى صيانته ، ولأن الفكرة الواحدة لا يمكن ان تكون ضد نفسها في آن واحد ، كان اعتبار مجرد نقد جانب من جوانب حياتنا الفكرية كتناقض للفكرة العامة ، غير جائز .

ولان السيد العالم ينص دائماً على ما يسميه امة مصرية ومن ثم (امة عربية) أصارحه اننا في بغداد عانينا الكثير في سبيل رد تهمة الفرعونية التي يراها البعض متخفية في رواسب اغواره !! .

وفيما يتعلق بالادب العراقي ، اود ان انص على اعتزازي به كاحد المفاخر الوطنية . لا لاصالته فحسب ، ولا لمحاولاته الجاهدة للتعبير عن البيئة فحسب ، ولا لاتصاله بروافد انسانية عامة فقط ، بل لان الأدب الواقعي في العراق يخوض في النضال العملي الفعلي ، ولانه صادف ظروفاً سيئة في اكثر ادواره حتى اصبحت الاوقات التي تتنفس فيها الصعداء لا تتجاوز الساعات المعدودات في حساب التاريخ . ليس هذا فقط ، بل ان الادب العراقي ، استطاع ان يحقق مظاهر واقعية في الشعر والقصة منذ اعوام بعيدة قبل ان نسمع ببعض الاسماء التي تعتبر افكارها جديدة على دنيا الادب الواقعي .

قلت في بداية كلمتي ان السيد محمود امين العالم قد أساء فهم كلمتي . ومن ثم اساء فهمي ، لان الذي هدفت اليه في الكلمة الآنفة الذكر ، وادركه كافة اخواني الادباء الذين التقيهم في بغداد ، انني كنت في مجال الدفاع عن الشعر الواقعي بصورة عامة ، فقد لاحظت ان بعض النقاد اخذوا يعيبون على الاتجاه الواقعي بعض المآخذ ، ومن ثم يشككون في قيمته ، استناداً الى نماذج هزيلة تافهة من الشعر المصري (الحديث) :

وشربت شاياً في الطريق ! !

والسيد العالم ، يعترف في رده بركة النماذج الشعرية التي ساقها للتدليل على (خصائص) الشعر الجديد . واود ان أسأله كيف يمكننا ان نستقري خصائص عامة ناضجة واضحة واعية ، من نماذج ركيكة ، يعترف الكاتب الفاضل بركتها ؟

الحق انني مع ايماني بطاقة الشعب المصري المجاهد ، وقواه التاريخية العظيمة ، لم اجد ، ولم يجد غيري اي تعبير عميق عنها في نماذج السيد العالم ان الواقعية الجديدة يجب الا تكون ، في وطننا ، وريثة التقاليد الفنية العالية في الشعر العربي فحسب ، ولا ان تستمد مادتها من حياة شعبنا وحياة الشعوب الاخرى فحسب ، بل ان الواقعية الجديدة يجب ان تمثل اعلى ما بلغه من الشعر بصورة عامة من جهة الاسلوب والتركيب ، ونحن لا ننكر على اي حركة جديدة بعض الاخطاء ، بل وكثرة الاخطاء ، بل الذي ننكره ان تكون الاخطاء صفحة لاستنباط القيم .

قلت ان (الشعر الجديد !!) في مصر لم يتميز باي شيء عن الشعر العراقي الجديد الذي تحددت مدارسه منذ زمن غير قريب ، واقول الآن ان بعض شعراء هذا الشعر المصري الجديد لم يتلمسوا بصورة صحيحة حتى الان قضية الوسائط ، ومن المؤسف حقاً ان نرى ان بعضهم لا يجيدون حتى (الوزن الشعري) وهو المفروض ان يتعلمه حتى المبتدئون . وبهذه المناسبة ، اي مناسبة الحديث عن الشعر العراقي والشعر المصري (الحديث) اود ان اشير الى المقالة التي بعثها الاستاذ محيي الدين اسماعيل الى مجلة « الآداب » حول فضحه لمصدر قصيدة (السور) المنشورة في الآداب والتي انتزعها كاتبها من قصيدة (المومس العمياء) للشاعر الاستاذ بدر شاكر السياب ، والتي آثرت مجلة الاداب عدم نشرها — اي المقالة — لاسباب تتعلق بها* .

---

* تعقيب الآداب : لم تتلق المجلة اية كلمة حول هذا الموضوع ، وهي لا تطوي إلا ما ينزع الى المهاترة .

الحق ان مصيبة السيد العالم هي في محاولته ان يخلع بعض الصفــات من تفكيره على نماذج ادبية (يريدها) ان تكون واقعية ، لا ان يبحث عن القيم في النماذج المعروضة . ومن هنا كان موفقاً مثلاً في تحليله العلمي الرائع للحركة الشعرية في مصر في عدد الآداب الممتاز ، وغير موفق ابداً في تقديم النماذج التي كانت من الهزال بحيث لا يمكن ان تجري على مستوى واحد مع تفكيره العام، اي ان السيد العالم كمن يحاول ان يستنبط قوانين التاريخ قبل التاريخ، ومباديء الاخلاق قبل الاخلاق.. الخ. ومهما يكن فلا يستطيع اديبنا الفاضل ان يفرض على التيار العام نماذجه الركيكة، وسنظل نعتقد ان بشائر نهضة شعرية واقعية ، في مصر ، ستتجلى في نتاج عبد الرحمن الشرقاوي وقد تجلت في قصيدته الرائعة (من اب مصري الى الرئيس ترومان) وفي قصيدته (ضربة الفجر لانفلاق انصباح) التي نشرها في مجلة الفصول المصرية على ما اتذكر ، وستتجلى في نتاج الدكتور عبد القادر القط وقــد تجلت بالفعل في قصيدته الرائعة (لن انام) والتي اذكر انني قرأتها قبل سنوات في مجلة الفصول ، وستتجلى في نتاج الفيتوري وكمال نشأت ، وغيرهم ممن لا تحضرني اسماؤهم في الوقت الحاضر ، واني لالمح دلائل تحولات مهمة في اتجاهات الثلاثة الآخيرين الذين ذكرتهم ، ستكون نتائجها جيدة ، وللسيد محمود امين العالم تقديري وحبي واعجابي .

بغداد **كاظم جواد**

حول « قرأت العدد الماضي »

بقلم عبد الرحمن الكيالي

مما يلفت النظر ، ان باب (قرأت العدد الماضي) من مجلة الآداب ، وهو من أحفل ابوابها بالحياة والنشاط – كثيراً ما تلقي به الاقدار العفوية الى ادباء لاممين ، قد يغفلون – على جلالة اقدارهم – عن قيمة الرسالة التي يتصدون لادائها في معالجة هذا الباب . فليست الكتابة في هذا الموضوع بالامر الهين السهل كما يبدو لكثيرين ، وليست تعليقاً عابراً يزجي فيه الكاتب شطراً من فراغه ، ولا معالجة سطحية يقف بها الناقد عند ظواهر النتاج الادبي ، ولا وقوفاً على الرابية لالتقاط الصور العامة من أعلى . وتقديمها باهتة المعالم مختلطة الألوان ، منطمسة الخطوط والتماريج .

إن الكتابة في هذا الموضوع هي اندماج كلي في العــدد من أوله الى آخره ، ومعيشة نابضة لما يحويه من آثار نثرية وشعرية ، وتغلغل عميق وراء السطور والحروف لتعرف ثقافات الادباء ومدى تفاعلهم مع المجتمعات العربية التي يضطربون فيها ، واستجلاء كفاياتهم الادبية المعبرة عن هذا التفاعل . ثم الخروج بعد الدراسة التفصيلية لجميع هذه الآثار ، الى تقييم القطع الفنية واحدة واحدة بميزان دقيق حساس ، والى اعطاء الحكم الادبي الحصيف على العدد كاملاً ، ورسم الملامح الذاتية التي تميز العدد عما سبقه من الاعداد ، وتحديد الخطوة الادبية التي خطاها بالنسبة الى رسالة المجلة واهدافها ، وبالنسبة الى الفكر العربي سواء كانت الى الامام ام الى الوراء .

أقول هذا، وبين يدي مقال الاستاذ منير البعلبكي في عدد أيار الممتاز قد استنفد في مقدمته اكثر من نصفه – على صغره – ثم انطلق يلقي الحكم جزافاً على عدد نيسان بأنه ضعيف كل الضعف ، هزيل كل الهزال ، حتى لقد وصفه بأنه من اضعف اعداد المجلة منذ صدورها حتى الان . اما نوع ذلك الضعف، وحقيقة ذلك الهزال فان الكاتب لا يلقي عليه بصيصاً من النور، ولا يحاول ان يكشف لنا لون ذلك الهزال ولا يذيقنا طعمه. فنحن نعلم أن الفساد في كل شيء لا يتخذ صورة واحدة ، وليس بكاف أن نصف ثوباً بالقبح ، حتى نعرف من أين أتى هذا القبح : هل هو من القماش . أم من اللون ، ام من الحياكة ، أم من طراز التفصيل ، أم من عدم انسجامه مع ما يناسب هيئة اللابس ومنظره ، أم من هذه كلها مجتمعة ؟ .

واذا كان هذا يصدق على الكساء ، فما احراه أن يصدق بصورة أدق وأعمق على النتاج الفكري الأدبي . وقد كان أولى للكاتب أن يخوض غمرة هذه التفاصيل أولا ، ثم يلقي حكمه الكلي على العدد مستنداً إليها – على انه قد اضطر أخيراً ان يناقض نفسه ، فيخرق القاعدة التي وضعها ، ويقدم لنا بعضاً من القطع الشعرية التي وصفها بالتفاهة ، مبتورة من هيا كل قصائدها فكان كمن ينزع نافذة أو شرفة من قصر جميل ليقول لنا : « انظروا اي شيء قبيح هذا » ؟ . وقد اسقط الاستاذ من حسابه حين لجأ الى لغــة الاحصاء في محتويات العدد – أبواب النشاط الثقافي في الغرب . والمناقشات ، والنشاط الثقافي في بلاد العرب – مع انها قد استغرقت ما يقرب من نصف المجلة ، ومع ان باب المناقشات على الخصوص كان من اكثر أبواب العدد إمتاعاً واشراقاً ، واحفلها بالحياة والابداع . اما حين عرض المقالات ، فقد ذكر منها أربعاً فقط ، ونسي أو تناسى – لا أدري – مقال الاستاذ نجيب سرور (نرجس في الحيّ اللاتيني) على احاطته وشموله ، وعمق ما فيه من التحليل الذي تناول أدق المشكلات النفسية بالشرح والتبسيط . وهو كما ارى كاف وحده لاعطاء العدد مكانة أدبية مرموقة .

وإني إذ اشارك الناقد الاعجاب بتلك المقالات الأربع ، أتذكر قول الأول في القرآن الكريم (ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة . وانــه ليس من كلام البشر) . وقد وصف بحث (صحة الفرد وصحة المجتمع) بقوله : « وضع الباحث الفاضل إصبعه على موضع الداء في جميع المجتمعــات المتخلفة حين قرر : أن صحة الفرد وليدة صحة المجتمع ونظامه لا العكس كما تبشر به بعض الفلسفات » . ولعمري انه لقول صحيح في جملتـه ، وان المقال جدير بهذا الاطراء ، لكن المعركة ليست دائرة في الحقيقة بين الرأي القائل : بأن صحة الفرد وليده صحة المجتمع وبين عكسه ، وانما هي دائرة داخل الرأي وفي كيفية تطبيقه ، فهناك من يذهب الى الأبقاء على الوضع الطبقي للمجتمع الحاضر ، وعلاج الصراع الثوري بين الطبقات بايجاد التوافق والانسجام عن طريق الاصلاح ، وهناك من يقرر حتمية هذا الصــراع ويؤكده حتى يقضي على هذه الطبقات ، وتلك مسألة لم يتعرض لها صاحب المقال . وأما (مرثية جيكور) التي ثبتت للغربلة فقط على رأي الاستاذ والتي أسهب القول فيها بعض الشيء ، فقد شغل الناقد فيها بالاطار عــن المضمون ، وخدع بالقافية اللازمة والوزن الرتيب ، فراح يقارن مع الفارق بين الاستاذ بدر شاكر السياب وبين أبي نواس ، وظن ان الشاعر السياب مفتون بأن يثبت لنا قدرته على مجاراة الاقدمين في النظم كما فتن ابو نواس من قبل ، فتجنى على الشاعرين .

ذلك بأن ابا نواس لم يكن همه إثبات قدرته على مجاراة الاقدمــين حين نظم على طريقتهم في المدح والطرد – كما تزعم الروايات السطحية عن الصدر الاول من نقاد الادب – بل اتبع تلك الطريقة لأنه كان يحيــا حياتين متناقضتين: حياة القصور التي كانت موئل الحكام ورجال الجاه والثراء ومن يدور في فلكهم من العلماء والأدباء الرجميين المحافظين، وحياة الخلفاء الماجنين المستهترين التي كان ينطلق فيها انطلاقاً ثورياً منحرف الاتجاه، وهو لذلك كان ذا شخصيتين مزدوجتين : شخصية الناظم القديم المتزمت المتكلف لضروب الاغراب حين يصدر عن الاولى ، وشخصية الشاعر الصادق الحر

حين كان ينطلق على سجيته مع الثانية. ويبقى بعد ذلك ان السياب لم يخطر على باله البتة مجاراة الاقدمين ، ومرثيته جديدة مئة في المئة ، وإن اتبع في نظمها القافية اللازمة والوزن الرتيب ، فالشعر العربي القديم يقوم على وحدة البيت من جهة ، وعلى التصميم المبعثر من جهة اخرى - فهو دائم الاستطراد - وعلى الانفعالات العاطفية الذاتية المتناثرة أخيراً ، وتلك جميعها مقومات الشعر الفردي الغنائي .

أما قصيدة السياب فهي موضوعية ملحمية ذات تصميم ثابت مترابط ، لو نزعت جزءاً منها لاختل البناء جميعه . وهي الى جانب هذا ذات فكرة عميقة مختمرة في نفس الشاعر ، وذات هدف تقدمي ملموس .

ولئن كان يؤخذ عليها غموضها على من لا يصبرون على قراءتها ، ويستنفدون فيها طاقتهم الثقافية والادبية، فان هذا الغموض ليس مأتاه اتباع النظم والقافية كما يتوهم ، فهناك كثير من الشعر القديم المنظوم على طريقة السلف ، كشعر ابي العتاهية والبهاء زهير مثلاً ، وهو مع ذلك واضح جد الوضوح ، بل غموض المرثية آت من جدة نوعيتها اولاً - فهي بالنسبة الى كثرة ادبائنا كالموسيقى الاوروبية بالنسبة الى آذان الذين لم يتعودوا سماعها - ومن غرابة الخيال واتساعه وتماسكه وتقدمية الفكرة ثانياً ، ثم من حشد كثير من الاسماء والحوادث التي تقتضي قارئها محصولاً ثقافياً عظيما.

ولئن صح لنا أن نحاسب السياب على شيء ، فاننا نحاسبه على قوله :

سمّ في الحضيض أعلاه   مرقاه انخفاض وان بدا كالصعود

وعلى الابيات الدائرة حول هذا المعنى، وهو يعلم ان سلم التقدم البشري لا يصعد الى اسفل ، وان بدا له كذلك في جيكور . ونحاسبه ايضاً على بيته الاخير :

والذي حارت البرية فيه   بالتأويل كائن ذو نقود

فنجيبه بأن البرية لم تحتر في تفسير هذا الكائن ، بل حلت عقده وفكت طلسمانه منذ أمد بعيد .

وبعد ، فهل لي أن اسأل الاستاذ البعلبكي لماذا اعتصم بالصمت حيال القصيدتين : (طليعة الفكر) و (اعراس الثوار) ? ام تراهما قد افلتتا من شبكته - لا غرباله - الواسعة العيون ? وهل حقيقة لم يحرك خاطره البيت الاول وهو الاخير من قصيدة طليعة الفكر ، ولم يبعث على التأمل والنظر ? ام تراه قد ايقظ فيه نفس الشعور الذي ايقظه بحث الاستاذ نجيب سرور ، فاتخذ إزاءهما موقفاً واحداً ? اني احتكم في هذه القضية الى ضمير القراء الادبي والى ضمير قلم التحرير .

وأخيراً أقول : إن النقد الذاتي ليس معناه ان يسيطر الزهو على الناقد فيجور في الحكم ليلفت النظر الى نزاهته ، وليس معناه ان يعالج المرء آثاره بروح ذاتية ضيقة ، بل معناه الصحيح أن يعالج المرء آثاره الذاتية بطريقة موضوعية مجرّدة . وهذه المجلة هي نتاج الفكر العربي الصاعد ، واذا كان لاصحابها الفضل الاول والجهد المشكور في التنظيم والاخراج والنشر ، فان نقدهم الذاتي ينبغي أن ينصب على هذه الزاوية فقط ، أما حين يتناولون الآثار الأدبية نفسها ، فلا يجوز ان يكون النقد الا موضوعياً صرفاً ، ولذلك أحب لو تستفتي المجلة قراءها في كل عدد تصدره بالاضافة الى ناقدها الشهري ليجتمع له من الرأي ما يمكنه من اصدار حكمه النزيه .

كلية بيرزيت   عبد الرحمن رباح الكيالي

لبنان

١ . اربع محاضرات كل يوم

كان رواد الاصغاء في بيروت في حيرة من امرهم، خلال الشهر الماضي. لقد حفلت المنابر بالمحاضرين ، وتوالت بطاقات الدعوة تزاحم بعضها بعضاً ، فاذا في كل قاعة محاضرة ، وفي كل ندوة اجتماع ، حتى تعذر على هؤلاء الرواد ان يرضوا رغباتهم في الاستماع الى كل من يشاؤون .

فالجامعة الاميركية واصلت سلسلة محاضراتها في الشؤون الادارية التي تناولها مديرو الدولة في لبنان ، وسلسلة محاضراتها في الانشاء والتعمير التي تحدث فيها ارباب المشروعات في العالم العربي ، وسلسلتها التربوية التي عالج نواحيها بعض اقطاب المربين .

والمعهد الثقافي الايطالي ، باشراف المستشرق مورينو ، تابع محاضراته الاستشراقية والادبية التي القاها زوار بيروت من مفكري الطليان، وكان يتخلل هذه المحاضرات حفلات فنية قدمها موسيقيون بارعون.

وما زالت الندوة اللبنانية تطبق برنامجها مساء كل اثنين ، فيتوالى على منبرها رجال الاختصاص محاضرين في مشكلات الحياة الاجتماعية والسياسية والادبية في لبنان وسائر العالم العربي .

ومؤسسة النسور تقدم كل اسبوع شاعراً يتلو على المدعوين منتخبات من شعره ، او فناناً يعرض على المشاهدين نماذج من لوحاته .

وكلية المقاصد والجامعة الشعبية والمصلحة الثقافية في وزارة التربية وجمعية اخوان الثقافة ، وغيرها وغيرها من المؤسسات الثقافية ، كلها كانت تدعو إلى محاضرات ...

غير انها كلها لم تنشط نشاط خلية الملك سعود الاجتماعية التي اكتظ برنامجها حتى اصبح لها في كل يوم محاضرة ، تلتقي موضوعاتها حيناً تحت عنوان « الناجحون في أعمالهم يتحدثون عن نجاحهم » وتفترق حيناً اخر ليتحدث كل محاضر في موضوع مستقل

ليس من الغريب اذن ان تتضارب مواعيد هذه المحاضرات ،وأن توقع روادها في حيرة .. حتى يلغي بعضها بعضاً لدى من لا يجود وقته الابفراغ محدود ، او لدى من لا يستطيع ان يكون في مكانين في آن واحد !..

هذا السيل من المحاضرات ، لفت نظر الدكتور نبيه فارس ، فدفعه الى اجراء احصاء دقيق طوال شهر ... فكانت نتيجة إحصائه ، كما اعلنها في مؤتمر الدراسات العربية ان بيروت تشهد كل يوم ثلاث محاضرات وسبعة اعشار المحاضرة !

أكثر من ثلاث محاضرات كل يوم ، وليس بينها محاضرة واحدة تعالج مشكلاتنا الملحة التي ينبغي ان نضعها في الصف الاول من البحث والنظر والمناقشة .

أكثر من ثلاث محاضرات كل يوم ، وليس بينها واحدة تنير السبيل أمام المستمعين حول المشكلات التي يجابهها العالم العربي مجابهة جاهلة يغيب فيها وجه الحق : الأحلاف وموقفنا منها ، مشروع جونستون وما وراءه ، فلسطين وكيف نخط طريق استعادتها ، العلاقات بين الدول العربية : بين مصر والعراق ، بين السعودية والعراق ، بين سوريا ولبنان؛ بين سوريا والاردن ، مشكلات التعليم ، والضمان الطبي ، والقرى العطشى ، ومشروع الليطاني ، وشركات الاستثمار ...

هذه وأمثالها موضوعات اذا عولجت بصراحة ونزاهة ووضوح ، وعن خبرة وفهم ووطنية، تفيد المستمعين وتنيرهم، أكثر مما تفيدهم تلك المحاضرات التي تتحدث عن رجال التاريخ وأعلام الفلسفة وقضايا الادب الخالصة .

وبين هذه المحاضرات التي تلقى كل يوم ، ما أكثر ما يغلب الطابع الادبي ، وما أقل الابحاث العلمية ، كثرة ساحقة في الادب ، وقلة نادرة في العلم .. ونحن ندعو المشرفين على إقامة هذه المحاضرات الى ان يزيدوا من المحاضرات العلمية التي تثقف الجمهور وتوسع مداركه ليعيش عصره الحافل بأسباب التقدم العلمي فاهماً واعياً .

٢ . مؤتمر الدراسات العربية

لمؤتمر الدراسات العربية في جامعة بيروت الاميركية موسمه الخاص وطابعه المميز وتقاليده في التعليق والمناقشة .

النشاط الثقافي في العالم العربي

وهو في كل عام يعالج موضوعاً جديداً ، ويقدم وجوهاً عربية تعالج هذا الموضوع وتتعرف في آن واحد الى الوسط المثقف في بيروت .

وكان موضوع المؤتمر هذا العام « الجامعة » كما كان الدكتور طه حسين هو الوجه الذي كان قطب المؤتمر ودرة عقده .

وقد ظن بعضهم ان اختيار موضوع « الجامعة » قد دفع اليه ايثار المسؤولين عن المؤتمر التهرب من المشكلات الدقيقة ، التي كانت تجر اليها المناقشات ، كما كان يحدث في المؤتمرات السابقة .

ومهما يكن الدافع الى هذا الاختيار ، فاننا نرى ان موضوع « الجامعة » من اخطر الموضوعات الفكرية ، وأبعدها أثراً في حياة أجيالنا المقبلة ، فعليها ، قبل التعليم الابتدائي والثانوي ، يتوقف مستقبل امتنا ، لان الجامعة هي التي تورد لاجهزة التعليم المختلفة الاساتذة ، كما تورد لاجهزة الحياة السياسية والاجتماعية والادارية رجالها .

كان موضوع الدكتور كامل عياد « ما هي الجامعة » . فانتهى الى ان مفهوم الجامعة الحديث يقضي بالخروج من العزلة الفكرية والاهتمام بحاجات المجتمع ومشاكله . وحصر اهدافها في البحث العلمي والتعليم والاعداد المهني والتربية الخلقية ونشر الثقافة .

وكانت المحاضرة الثانية في موضوع « الجامعة في العالم العربي : نشأتها وتطورها » وقد تناول فيها الاستاذ فؤاد افرام البستاني نشأة الجامعات في العالم العربي قبل العهد العربي في الاسكندرية وانطاكية وبيروت والرها ونصيبين وحران وجنديسابور . وفي القرون الوسطى عندما قام الازهر والنظامية والمستنصرية . حتى اذا بلغ النهضة الحديثة تحدث عن الجامعات القائمة اليوم ومشاريع الجامعات التي ستكتمل قريباً في العالم العربي . وختم حديثه بمقابلة بين جامعاتنا وجامعات الغرب فلاحظ ان التقليد الجامعي اي المعرفة للمعرفة . ضعيف عندنا ، كما لاحظ أن هبوط المستوى في جامعاتنا يعود الى ضعف التعليم الثانوي .

وتحدث الدكتور نقولا زيادة في المحاضرة الثالثة عن اثر الجامعة في العالم العربي ، فرأى ان جامعاتنا لا تزال مقصرة في ميادين العلم والتكنولوجيا ، كما لا تزال مقصرة في الابتكار والابداع في الدراسات الانسانية . ورأى أن الجامعة لم تحقق في ميدان الفكر المطلق الا القليل ، وذلك لانها لم تكن ثمرة صراع فكري وتجارب روحية ونضال عقلي .

وختم المحاضر الرابع الدكتور طه حسين المؤتمر عن « مستقبل الجامعة » فخالف السابقين في تشاؤمهم ورأى ان مستقبل الجامعة وضيء مضيء وانه يستنتج ذلك من الخطوات الواسعة التي حققتها الجامعات العربية منذ انشائها حتى اليوم .

كان المؤتمر ناجحاً اذا فهمنا من المؤتمر محاضراته الاربع التي كانت ثمرة طيبة من ثمرات الدرس والتحقيق والخبرة . غير اننا لا نفهم من المحاضرات الا انها محاضرات ، وأنها اساس يبني عليه مؤتمر الدراسات مناقشاته ، فالمؤتمر في الواقع يبدأ في جلسة التعليق والمناقشة ، ولا نغلو اذا قلنا ان جلسات المناقشة لم تكن مستوفية شروطها التي عهدناها في الاعوام السابقة .

لقد انتقلت جلسة المناقشة الى شبه مؤتمر صحفي ، يسأل فيه عضو المؤتمر سؤالاً ، فيجيب عنه المحاضر ، وسواء اقتنع العضو ام لم يقتنع ، فانه مضطر الى السكوت لأن الكلام من حق المحاضر والمعلق ، بينا كنا في الاعوام السابقة نشهد مناقشات حرة يشترك فيها الاعضاء جميعاً ، صحيح انها ادت في بعض الاحيان إلى اتهامات أخرجت المؤتمر عن وقاره ... ولكننا نؤثر ، الف مرة ، أن يحدث في المؤتمر مثل ذلك العنف على ان يمضي هيناً ساكناً ، لا يشارك فيه الاعضاء الا بآذانهم وبسؤال يوجهونه الى المحاضر !

ومسألة اخرى ، هي مسألة المعلقين .

أما المعلق على المحاضرة الاولى فقد غاب عن الجلسة من غير ان يصل اعتذاره الى المؤتمر حتى ساعة الجلسة . ويذكرني غياب المعلق بغياب الاستاذ عبد الحميد كاظم الذي كان من المفروض ان يتحدث عن اثر الجامعة في العالم العربي ، وكان الاتفاق قائماً بينه وبين هيئة الدراسات منذ ستة اشهر .. حتى اذا لم يبق الا اسبوع واحد على المؤتمر وصلت رسالة من المحاضر يعتذر فيها عن الحضور وعن المحاضرة ... ولماذا ؟ لانه آثر السفر الى مؤتمر باندونغ « السياسي » ، على الاشتراك في مؤتمر « الجامعة » الفكري .وهكذا اضطرت هيئة الدراسات الى تكليف الدكتور نقولا زيادة باعداد المحاضرة الثالثة .

وأما المعلق الثاني فقد ألقى سلاحه منذ ان بدأ الكلام ، واعلن انه يقف مرغماً ، وانه لا يفقه الموضوع الذي يعلق عليه ، وانه يكره التاريخ ، وموضوع المحاضرة تاريخ الجامعة في العالم العربي . لقد كان هذا المعلق شجاعاً عندما أعلن كل هذا ، غير ان هيئة الدراسات هي التي تتحمل تبعة ذلك .

ووفق المعلق الثالث في تعليقه توفيقاً ظاهراً ، لولا انه خرج بنا عن الموضوع ليقرأ من كتاب صفحات ، كان بوسعه ان يلخصها في كلمات ، ولولا انه تهرّب من بعض الاسئلة معتذراً بأن الجواب يحتاج الى مجلدات ... وقد ردد هذا القول اكثر من مرة . ومن المعلوم ان اضخم القضايا الفكرية يمكن الجواب عنها بكلمتين ... وقد لا تفيها حقها موسوعات من الكتب !

اما المعلق الرابع ، فقد كان خير من يقف للتعليق على محاضرة الدكتور طه حسين ، بكلام فيه من وحي الدكتور طه اسلوبه الانيق وحديثه الجذاب وارتجاله البارع .

وتدعونا حالة المعلقين ، على وجه عام ، إلى ان نقترح على هيئة المؤتمر ان تختار في الأعوام القادمة المعلقين في الساعة التي تختار فيها المحاضرين ، فيتاح للمعلق ان يدرس موضوعه كما يدرسه المحاضر ، فاذا ما وقف بعد ذلك للكلام لا يكون تعليقه اعتذاراً ، او تفكهاً ، او تعالماً لا ضرورة له ، او رواية ذكريات خاصة !

وفيما عدا هذه الملاحظات ، التي قد أكون قسوت فيها ، فقد حقق المؤتمر نجاحاً غير قليل ، واستطاع ان يبين أهمية الجامعة في حاضر العالم العربي ومستقبله ، وان يؤكد ان على الجامعة عندنا واجباً اكبر من واجب الجامعات الاوروبية والاميركية ، اذ من جامعاتنا انبثقت الحركات الاستقلالية والتقدمية ، ومنها يجب أن يخرج قادة الفكر في المستقبل . ولكي تقوم الجامعة بمهمتها كاملة ينبغي على الحكومة ان تمنحها استقلالها وان تمنحها من المال ما يساعدها على النمو والتوسع ، كما ينبغي على الشعب

ان لا يتخلى عن بذله ومعاضدته .

وعلى الجامعة ايضاً ان تنهض بواجبها في تعميم اللغة العربيـة في مواد الدراسة ، والعلمية منها خاصة . وبذلك تسهم الجامعة في حل المشكلة اللغوية.

والح المؤتمر أخيراً على ان تتخذ الجامعة الحرية الفكرية شعاراً لها ، وبذلك يصفو فكرنا من رواسب التقليد ، كما ينبغي ان يكون العلم هو الذي يهدي سبيلنا في طريق الحياة ، ولا شيء غير العلم .

٣. اسبوع طه حسين في بيروت

موجة من الاعجاب والحب استقبلت الدكتور طه حسين في مرفأ بيروت وأحاطت به في تنقلاته ومحاضراته ، ثم ودعته على الباخرة ، على نحو لم تهبه بيروت لواحد من ادباء العالم في وقت من الاوقات .

وما سر هذه الحفاوة التي تفيض بأجل معاني الاعجاب والحب ؟

الأنه وزير سابق ، وما اكثر الوزراء الذين يغدون ويروحون من غير ان يشعر بهم أحد ؟

ام لأنه أول رائد من رواد الفكر الحر في النهضة الادبية المعاصرة ؟

ام لأنه يتبوأ عمادة الادب العربي في عصرنا الحاضر ؟

قد يكون ذلك سبباً لو كان الاعجاب وحده هـو الذي كان يعصف بالمرحبين المندفعين، ولكن لوناً من الود العميق كان يخفق به قلب كل مثقف عربي حين يطل عليه وجه طه حسين ، فيرى انه مدين له بشيء غير قليل من ثقافته التي تلقاها منه او من كتبه مباشرة ، أو من جيـل من الادباء والمفكرين تتلمذوا عليه وتلقوا منه .

وقد ظهر هذا الحب ، في أقوى مظاهره ، في ذلك الزحام الشديد على قاعات المحاضرات وابوابها والساحات المحيطة بها .. فقد كان من العسير على منظمي هذه المحاضرات أن يقنعوا الراغبين بأن في وسعهم ان يستمعوا إلى حديث طه حسين في خارج القاعة مما ينقله اليهم الميكروفون او محطة الاذاعة...

قد لا يكون في كلام طه حسين، الذي القاه في المناظرة والمحاضرة درس عميق او اراء حاسمة ، غير ان السحر المتدفق من بين شفتيه كان يملك على السامع لبه فاذا هو يطرب لهذا البيان العذب والحديث الجاذب .

وبالرغم من ان أديبنا الكبير لم يكن في إقامته كلها في بيروت على ما ينبغي ان يكون من الصحة ، فانه لم يمض يوم من غير ان يقف فيه مرات متكلماً في الحفلات ، مناقشاً في مؤتمر الدراسات ، راداً على المحتفـين به، مجيباً على اسئلة رجال الصحافة الذين لم يكن ينقطع سيلهم . بل ان حرارة الدكتور طه كانت في ارتفاع شديد حين ألقى كلمته في مناظرة المقاصد .

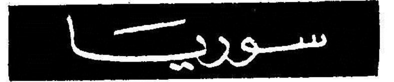
وكانت مجالسه في بيروت خصباً كلها ، كان يثير في كل محاضرة قضـايا، وكثيراً ما يتركها لتثور فيما بعد على صفحات الصحف ، ولعـل آراءه في المادحين من الشعراء العرب ، والادب الملتزم ، وموقف الاديب ممـا يكتب بعد أن ينفض قلمه منه ، ستظل مثاراً للمناقشة وقتـاً غير قصير على صفحات « الآداب » .

وقد اثيرت على هامش مناظرته مسألة صغيرة تتعلق بلفظة « كافة » ، هل تدخلها أل التعريف أم لا ، اشترك فيها ستة من الكتـاب في عشر مقالات في جريدة الحياة واخبار اليوم . وبالرغم مما تحفل به عباراتنا من أخطاء فادحة في كتبنا وصحفنا ومحاضراتنا وأحاديثنا ، فان هذه الاخطاء جميعاً لم تثر ما اثارته كلمة وردت في عنوان هذه المناظرة . ولا ريب ان الخلاف حول هذه الكلمة كان يكمن وراءه مذهبان من مذاهب اللغة : مذهـب التحرر الذي يفهم اللغة وسيلة طيعة من وسائل تعبيرنا ، ومذهب الجمود الذي يريدنا ان نكون عبيداً للغة نرضخ لاحكامها من غير تطور او تعديل .

ومن حق هيئة الدراسات العربية وكلية المقاصد الاسلامية علينـا ان نشكرهما لدعوتها الدكتور طه حسين ، فقد أتاحتا لأبناء بيروت اسبوعـاً سخياً بالفكر ، كنا نرى خلاله في الدكتور طه حسين عصراً متحركاً من عصور الأدب ، التقى فيه القديم والجديد ، وائتلف الشرق والغـرب ، واجتمعت فنون الأدب على اختلافها .

ومع ذلك فقد كانت موجة الحب تعصف بأبناء بيروت فتخفق قلوبهـم عندما يطل عليهم طه حسين بوجهه النبيل الذي يفيض تواضعاً وخلقاً وفياً ، وودا آسراً .

« بهي »



لمراسل « الآداب » سعد صائب

طه حسين في دمشق

يبدو ان ثمة لحظات من المتعة والفرح تجتاح المرء - على حين غرة - فتوقظ في ذاته هذا التواصل الروحي ، وتسمو بشعوره ، وتفتح له آفـاقاً نيرة ، وتشبع حاجته الى المعرفة . تلك حقيقة لا شك فيها ، تنطوي على ما يعتلج في نفس المرء من تشوف وتطلع نحو ما يبهجه ويخصبه ، ويهيء له الغذاء الروحي والفكري الذي يغذي عناصر حياته وينميها. هكذا كانت الحال حين زار عميد الادب العربي الدكتور طه حسين سوريا، وأم دمشق اذ اتاح لنا هذه اللحظات الممتعة ، وخلق لنا هذا الجو المعبر الذي ارتفعنا فيه فوق ذواتنا ، واستروحنا فيه نفحات من عبقريته وعبقاً من ابداعه .

ولقد استقبلته دمشق حكومة وادباء ومثقفين ، استقبالاً رائعاً ، يليق به، وراح ادباء ممن احبوه ، وتتلمذوا على ادبه ، يمهدون لهذا الاستقبـال بمقالات يتحدثون فيها عما قدمه للادب العربي من خدمات .

واخال ان هذا التماس الواعي مع ما قدم طه حسين للأدب والفكـر ، هو الذي الهب احساس الجماهير التي غص بها مدرج الجامعة السورية ، والتي اندفعت بقلبها وعقلها تستمع اليه في محاضرته التي يحدثهم فيها عن « بعـض خصائص الشعر العربي القديم في سوريا » .

بعض خصائص الشعر القديم في سوريا

استهل الدكتور طه حسين محاضرته ، بنقل تحية مصر الى شقيقتهـا سوريا ، وانتقل بعد ذلك الى التحدث عن خصائص الشعـر العربي فيها ذاكراً ، ان سوريا لم تحب المجون في الأدب قط ، وانما هي محبة دائماً للجد حريصة اشد الحرص على الصراحة ، لا تحب ان تتخذ الأدب وسيلة الى اللهو او عبث ، وهي تمتاز بهذا بين الاوطان العربية كلها امتيازاً قوياً ظاهراً ، ومع ذلك فقد حاول المجون الادبي ان يلم بها، وان يستقر فيها وقتاً ما ، ولكنه لم يستطع ان يطيل المقام ، وانما طرد منها اعنف الطرد واشنعه » ثم القى نظرة على الشعر ايام بني أمية فلاحظ « ان المجون والدعابة والغزل على اختلاف الوانه ، سواء منـه الغزل العذري والغزل الآخر

الصريح ، انما كان كل هذا مستقراً في الحجاز وحده » ، وذكر الدكتور طه حسين انهم لم يكتموا حبهم ، وانما جهروا به ، داحضاً قصة صاحب « الاغاني » التي تزعم ان المجنون وشعره من اختراع الامويين ، وان اميراً اموياً احب فتاة ، وكره ان يظهر حبه ، فاخترع قصة المجنون ، واشار العميد الى خلفاء بني امية بانهم « كانوا يضيقون بمجون الحجاز وبالشعراء الذين يتبعون الغانيات اذا شهد الموكب ، وبالمجون الفاحش المتفشي في المدينة ، ولذلك نفي الاحوص بن محمد من المدينة ، لاسرافه في الغزل وفي المجون ، بعد ان شهر به » ودل المحاضر على الخاتمة التي انتهى اليها شعر المجون في الشام ، بالمأساة التي آل اليها الوليد بن يزيد ، الذي قتل لأنه اراد ان يحمل اهل الشام على ما لم يعتادوا عليه ، ثم تطرق الى انتقال الغزل الماجن الى العراق ، فقال « ان اكثر الشعراء الماجنين في صدر خلافة بني العباس كانوا من الموالين ، وليسوا من العرب » وضرب لذلك مثلاً بشار ومطيع الى ابي نواس الماجن الرائع ، الذي قال صاحب الاغاني ، انه اخذ معانيه في الخمرة عن الوليد بن يزيد ، وقال ان حظ الشام من الشعر في القرن الاول الهجري ، كان ضخماً في الشمال ضئيلاً في الجنوب ، وذكر الأخطل كدليل على حظ شمال الشام من الشعر ، وقال ان هجاءه كان موجعاً لكنه كان عفيفاً غير فاحش كهجاء جرير ، « لان الشاعر اختاره بنفسه قبل ان يترك هذا الاختيار لغيره ، وهو يمتاز بالعفة والوقار والرصانة ، والمحافظة على الرصانة العربية في هجائه ، وهو حريص على ان يصنع شعره ، ويجوده وان يخضعه للتمحيص ولا يظهره الا بعد ان يرضى عنه ويطمئن اليه » وبعد ان ينتهي من عرض هذه الجوانب من الشعر في سوريا والعراق ، يمضي في القول عن التجديد في الشعر العربي ، فيؤكد انه نشأ في الشام ، وقد انشأه ابو تمام « لانه كان صاحب فن خاص ، لم يأخذ فنه عن احد ، انما ابتكره لنفسه ابتكاراً ، ولهذا سخط القدماء على شعر ابي تمام ، واجمعوا على انه خالف عمود الشعر » وبعد ان يشيد بما اتصف به ابو تمام من تجديد في الشعر سماه « الكلاسيك الجديد » وانشائه مذهباً في الشعر لم يخرج فيه على اصول العربية القديمة ، ختم العميد محاضرته بقوله : « ولو وقف الشعر السوري عند هذا الحد ، لما اهتممت به ، ولكنه اضاف الى الشعر العربي ثروة لم يضفها اليه شعر آخر ، ولم تستطع الآداب العربية الموروثة كلها ، ان تضيفه اليه ، وهي التي ابتكرها ابو العلاء المعري وكلنا يعرف ان ابا العلاء كان تلميذاً للمتنبي في فنه اولاً ، وفي تشاؤمه ثانياً ، ولكننا لا نستطيع ان نتردد في ان نقول : إن ابا العلاء هو الشاعر العربي الذي لم تعرف له الأمة العربية نظيراً منذ قيل الشعر العربي فيها الى الان مطلقاً ، واكاد اقطع بانه هو الفيلسوف الاسلامي الحق الوحيد ، ذلك بانه جمع بين فلسفة العقل ، وبين فلسفة الحياة العملية ، فاذا لوحظ ان سورية هي التي اعطت العالم العربي اول من حاول تجديد الشعر في الاسلام ، متأثراً في ذلك زهيراً في الجاهلية ، وهو الاخطل ، وهي التي اعطت الشعر العربي اول من انشأ في الشعر فناً جديداً واقام هذا الفن على مذهب خاص له في الجمال الفني وهو ابو تمام ، واذا لاحظنا ان سورية هي التي اعطت العالم العربي ، اعمق شاعر فيلسوف ، واعظم فيلسوف شاعر نبحث عمن نقيسه اليه في البلاد الاجنبية ، وفي الآداب الاجنبية ، فلا نستطيع ان نقيسه الا الى اثنين جمعها هو : احدهما الفيلسوف « ابيقور » عند اليونان ، والاخر فيلسوف شاعر هو « لوكريس » عند اليونان ولا اجد في العالم العربي ، ولا في هذه الآداب الحديثة ، من استطيع ان اشبه به ابا العلاء .

اذا لاحظنا ان سوريا قد اعطتنا هذا كله الى الشعر العربي ، استطعنا وانا اؤكد لكم انني لا اقول هذا مصانعاً لسوريا ، او تمدحاً امامكم بسوريا لاني بينكم ، وانما هذا الكلام الذي اعلمه لتلاميذي في مصر ، واكتبه كلما اتيح لي ان اكتبه ، استطعنا اذن ان نقول في غير مبالغة ، وفي غير اسراف وفي غير تكثر ولا غلو ان العالم العربي الاسلامي مدين لسوريا باجود ما عنده من شعر » .

وبعد ان انهى الدكتور طه حسين محاضرته، القى وزير المعارف الاستاذ رئيف الملقي كلمة اشاد فيها بالمحاضر ووصفه بأديب العصر ، ثم تقدم دولة الاستاذ صبري العسلي رئيس مجلس الوزراء، وقلده وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة ، ورد العميد على هذه العاطفة بكلمة رقيقة عبر فيها عن شكره ، وصادق امتنانه . وانتهت هذه التظاهرة الكبرى التي لم تشهد دمشق لها مثيلاً !

الادب في سوريا

من الصفات البارزة في الاستاذ فؤاد الشايب ، اتزان التفكير والحكم السليم ، وهما - فيما نعتقد - تجربتان مباشرتان استمدهما من تجارب حياته الفكرية المليئة الخصبة ، يتوسل بهما اما بمقال عميق يكتبه ، او بنظرة صائبة يلقيها ، وهو بهذا كله لا يكتفي بالحدس الشخصي فقط ، بل يستعين بالتحليل الحقيقي للواقع الفكري الذي يحياه وينفعل فيه ، وها هوذا يعلن لنا رأيه الصريح في الادب السوري ، في مقال له متزن نشره في العدد الخاص من مجلة (الجندي - ٢٠٣ - تاريخ ٢١/٤/١٩٥٥) بعنوان « المخاض الادبي في سوريا » يقول فيه : « .. ليس في تاريخ الادب السوري الحديث سوى تيارات من الريح ، وسدم عائمة من الطموحات والاحلام والمحاولات اقولها لا لأحط من قدر هذه المحاولات ، ولا لاهزأ من قدرها ، او انكر وجود ما يمكث في الارض منها ، بل لاشيد باصالة ينابيعها ، وعمق ارضها وامتناعها عن الظهور على وجه الارض قبل ان تكتمل خميرتها ، وتتجمع روافدها ، وتتفاعل عناصرها تفاعلاً طبيعياً ، له في بطن الارض هدير ومخاض عسير ، لا فوق ترابها فقاقيع عابرة ، وثمرات مبتسرة . المخاض : هذه الكلمة اطلقها على الحركات الادبية في سوريا خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، منذ عام ١٩١٤ واشهد انه مخاض طويل الامد عسير التفاعل ، يقوى ويشتد حيناً ، ويضعف ويخفت حيناً آخر ، ولكنه ما انطفأ قط في إبان الركود والخمود الا بقدر ما يكتم حشرجته في جبه جبل البركان » وبعد ان يشهد بأن هذا المخاض طويل وعسير « يكاد ييأس المراقبون من نتائج عسره وطوله ، حتى لتبدو لعيونهم مرات ، اعراض العقم ، ويوشكون ان ينفضوا ايديهم من محاولات المراقبة والتنقيب » نلقاه يتفاءل اشد التفاؤل بما سيكون عليه ادبنا في المستقبل على ضوء ما يراقبه من « كثافة الانتاج الفكري في مصر ، وهبوب ريح جديدة من الانتاج العراقي ، وسرعة ساحقة في تيار الانتاج اللبناني » لان الانتاج الفكري السوري « سيكون بعد المخاض الطويل العسير اجزل مادة ، واينع نضجاً واوسع اشراقاً، وابعد طموحاً في اداء رسالة عربية وانسانية معاً » ويقول « وفي رأيي اولا وآخراً ان فقدان دور النشر الكبرى في سوريا، تحمل الكتاب على اجنحة قوية الى الآفاق العربية، هو بالواقع من اسباب مظاهر الركود والخمود » !



« شرف الثقافه والكرامة العقلية ! »

احوج ما يحتاج إليه الكاتب شيء اسمه الكرامة العقلية .. والكرامة هي ان يحترم الكاتب عقله وعقول الناس . هي ان يقرأ بوعي ليتثبت مما قرأ ، ويفهم بعمق ليطمئن إلى ما فهم ، ويراجع نفسه وقلمه قبل أن يصدر حكمه الأخير الذي يواجه به الجمهور القارىء . أقول هذا بمناسبة الكلمة التي نشرت للأستاذ جبرا ابراهيم جبرا في العدد الماضي من « الاداب » .. لقد فسر الكاتب بعض كلمات كتبتها تفسيرا يتنافى مع الغرض الذي أهدف إليه ، ونسب إليّ كلمات أخرى لم يتنبه إلى انها ليست لي ولذلك وضعت بين اقواس ، وأسقط – لست أدري عن عمد او عن غفلة – جزءاً من احدى الفقرات حتى بدت أمام القراءة الخاطفة او المتجنية .. وهي مختلة المضمون ! . وتبعا لهذا هاجني السيد جبرا بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه أسلوب غير مهذب ، حيث ينقصه الوقار . .

يقول الكاتب وهو يتهجم بعد قراءة لا تثبت فيها ولا مراجعة : «(أدب واقعي متكامل، وأدب فردي ضيق) عبارة اخرى ،إذا شددتها بين يديك وتأملت في رسمها وحبرها ، وجدتها زائفة رغم انتشارها . فانت تستطيع بمثل هذه السهولة ان تقول :«أدب واقعي ضيق وادب فردي متكامل» فماذا استفدنا او خسرنا؟ المقابلة هنا بالطبع بين «ادب الواقع والادب الفردي» ولكن منطوى عبارة الأستاذ المعداوي هو ان الادب الفردي لا يستطيع ان يكون واقعياً ، وأن الأدب الواقعي لا يستطيع أن يكون فردياً .. خلط عجيب » !

هذا الخلط العجيب الذي ينسبه الكاتب يجب ان ينسبه الى نفسه ، لأن التعبير الذي يهاجمني من أجله ليس لي وانما هو بنصه للأديب المصري الفاضل محمود العالم .. ولقد ورد هذا التعبير في مقالي وهو مقتطف ضمن الفقرة التي ورد فيها من مقاله ، ثم وهو موضوع بين اقواس كما سبق أن قلت بقصد العرض والمناقشة . قال السيد محمود وهو يناقشني حول قضية الأدب الملتزم : « .. لم تعد قضيتنا هي قضية أدب ملتزم او غير ملتزم لا... بل قضية ماذا يلتزم الأديب ؟ هذه هي المشكلة . ما هي حقيقة موقفه الاجتماعي ، من هذا السؤال تنبع التفرقة الحقيقية بين أدب واقعي متكامل ، وأدب فردي ضيق » !

ومرة أخرى يقول الكاتب وهو يتهجم بعد قراءة لا تثبت فيها ولا مراجعة : « وبعد هذا خذ كلمة الرومانسية التي يذرذرها الأستاذ هنا وهناك . . دون ضبط ولادقة . فهو أولا يقول: «الرومانسية او الابتداعية وأنا حين أرى أديباً يستعمل كلمة «الابتداعية» مرادفة للرومانسية، أعرف في الحال مدى اطلاعه على تاريخ الادب »!

عيب الاستاذ جبرا أنه يقرأ « في الحال » ، ويفهم « في الحال » ويحكم «في الحال» .. ولو لم يكن كذلك لعرف ايضاً – وعن يقين – انني لم استعمل مطلقاً كلمة « الابتداعية » وهي مرادفة للرومانسية ، وانما الذي استعملها ايضاً هو السيد محمود العالم ، وكل ما فعلته انا هو انني وقفت من هذه العبارة نفس موقفي من العبارة السابقة . اعني انني اقتطفتها ضمن الفقرة التي وردت فيها من مقاله ، ثم اثبتها في مقالي وهي موضوعة بين اقواس بقصد العرض والمناقشة . قال السيد محمود وهو يناقشني حول مشكلة النسبية في تقييم الفن: « حقاً ان دراساتنا التقييمية للفن ينبغي ان ترتبط بحدود المرحلة التاريخية المعينة التي صدر منها الاثر الفني . على ان لا نقف في هذا عند حدود التسمية الخارجية ، بل نتجاوزها الى تكشف الوظيفة . فالادب الرومانسي (الابتداعي) في القرن التاسع عشر لم يكن ادباً رجعياً بل كان في جوانب كثيرة منه ادباً ثورياً بكل ما في الكلمة من معنى » !!

ولم يكتف السيد جبرا بأن نسب الي ما لم اقل ، بل تعداه الى ما يمس في شخص الكاتب صفة الكرامة العقلية . فهو يقول لي على سبيل المثال : « وما الذي فهمه صديقنا من « تشايلد هارولد » لبايرون ، حتى حشره في زمرة « القصص » – وليس ذلك فحسب – بل حشره في زمرة القصص المائعة ؟ إن لم يكن بايرون من امثلة الثورة في وجه الطغيان الاجتماعي والسياسي بكتاباته وحياته ، فمن يكون » ؟

إن الكاتب هنا يسخر مني .. لماذا ؟ لانني في زعمه او في وهمه قد حشرت اثراً شعرياً لبايرون في زمرة الآثار القصصية ! هل حدث هذا حقاً ؟ انني أعيد هنا نص الفقرة التي ورد فيها ذكر « تشايلد هارولد » ليسخر السيد جبرا من نفسه ومن قراءته الخاطفة ، أو على الاقل ليعتذر الى عقول القراء .. لقد قلت وانا اعقب على رأي السيد محمود العالم في مضمون الادب الرومانسي : « واذا كان هذا الادب ثورياً بكل ما في الكلمة من معنى كما يقول الاديب الفاضل ، فما هي المضامين الثورية التي يمكن ان نجدها في مجال القصة حين نذكر على سبيل المثال لا الحصر : رينيه لشاتوبريان وماريون دلورم لهيجو ، ورفائيل للامرتين ، وادولف لكونستان ، وغادة الكاميليا لدماس الابن ، وآلام فرتر وهرمن ودروتيه لجيته . وفي مجال الشعر أزهار الشر لبودلير ، وليالي دي ميسه ، وتشايلد هارولد وعروس ابيدوس لبايرون » ؟

هذه هي الطريقة التي يقرأ بها الاستاذ جبرا آثار الغير .. وهي نفس الطريقة التي قرأ بها «تشايلد هارولد » كما اعتقد ، والا لما بدا هذا الاثر الشعري في رأيه وهو ثورة في وجه الطغيان الاجتماعي والسياسي : وبدت قصة « فاوست » وهي تمثل الرومانسية في انصع اشكالها بدلا من « آلام فرتر » ! ولا يظن السيد جبرا انني بهذا سأناقشه ، كلا .. فانا لا اميل إطلاقاً الى ان اناقش فئة من الناس اعرف مدى شغفهم بالبهلوانية ، اومدى نزعتهم الى تشويه قيم الآخرين !

وما هي البهلوانية وما هو التشويه إذا لم يكن كل ما سبق من تعقيبات الكاتب يحمل كل ما فيها من مضمون ؟ وما هما مرة اخرى إذا لم يواجهك ايضاً مثل هذا التعقيب:« ما الذي يقصد اليه الاستاذ بعبارة«شرف الثقافة» وكيف يتنكر المضمون الاجتماعي اولا يتنكر لهذا الشرف ؟ بل ما معنى « الثقافة » في هذا الصدد ؟ وما الرابط الجديد الذي اكتشفه الكاتب بين المضمون الاجتماعي والثقافة ؟ هل يعد الاستاذ المعداوي الاطلاع – مثلاً – على الآثار القديمة ودراستها ثقافة أم لا؟ فكيف يتنكر المضمون الاجتماعي لشرف علم الآثار » ؟. ثم هذا التعقيب الآخر : « وانظر الى هذه المنبرية الطلابة التي لا تدل الا على تضخيم لذات لست ادري بأي حق يفرضها الكاتب علينا « ان الالتزام الذي نريده والذي دعوت اليه .. » من سمع او قرأ في تاريخ الادب عن ناقد خلق الادب الذي يتفق واهواءه » ؟

اما عن « شرف الثقافة » فهو تعبير يعرف الادباء التقدميون مضمونه ومغزاه ، ومعذرة لغير التقدميين إذا لم يفهموه ، واذا لم يتنبهوا الى انني قد درت حوله بمثل هذه العبارات التفسيرية:«.. ولكنني حددت لون الاتجاه الالتزامي الذي يتناسب مع اوضاعنا الاجتماعية ، من خلال ادب يمكن ان

يشارك في توجيه هذه الاوضاع نحو اهداف متسامية .. ليس منها طبعاً ذلك الخروج الشاذ عن حدود الجماعة ، ولا ذلك التبرير المخجل لانواع الخيانة ، ولا تلك الدعوة الانهزامية الى قبول الزعامة المطلقة .. هو في الادب ذلك المضمون الاجتماعي الذي لا يتنكر لشرف الثقافة .. ومعنى هذا انني تحدثت عن المضمون الاجتماعي بالنسبة إلى « الادب » وتنكره او عدم تنكره لشرف الثقافة بالنسبة الى « الاديب » ، وما دامت الالفاظ هنا محددة مثل هذا التحديد فلم هذه البهلوانية في المناقشة عندما يسألني الكاتب عن كيف يتنكر المضمون الاجتماعي لشرف علم الآثار ؟

ولم هذه البهلوانية ايضاً في تفسير عبارة كتبتها وهي : « الالتزام الذي نريده والذي دعوت اليه .. بأنني قد خلقت الادب الذي يتفق واهوائي ، او هكذا نسب الى انني اريد ان اقول ، او انني اريد ان افرض على الادباء اتجاهاً قد ابتكرته ؟ إن شيئاً من هذا لم يحدث .. لانني حين تحدثت عن الالتزام ذكرت اسم سارتر اكثر من مرة على انه صاحب النظرية أو صاحب الاتجاه ، أما عبارة « دعوت اليه » فمعناها الواضح المفهوم هو « طالبت الادباء بأن يتجهوا اليه » .. ومع ذلك فانا لم « افرض » هذه الدعوة أو هذه المطالبة على احد بل « رجوت » ، وهذه هي كلماتي في هذا الصدد : «هذا هو موقفي بالنسبة الى الادب الملتزم منذ عامين ، دعوة اليه وايمان به ، و « رجاء » الى الادباء ان يحملوا شعلته ليصل الضوء الى القادمين من بعيد » !

بعد هذا يجب ان يفهم الكاتب مرة اخرى انني لا اناقشه .. وانما اتحدث الى القراء !!

القاهرة **انور المعداوي**

✡

الى الاستاذ منير البعلبكي

قبل كل شيء اقولها بصراحة : انني من الذين لا يعلقون اهمية كبرى على رأي « قاريء العدد الماضي من الآداب » لايماني الاكيد بان الرأي متصل اتصالاً وثيقاً بقائله ، فلا يعبر الا عن وجهته الشخصية . وقد يكون لغيره حق مشاركته الرأي نفسه ، وقد يكون لغيره كذلك حق مخالفته وعدم الالتزام برأيه ، وفي هذين الاتجاهين نرى كثيراً من التناقض والمطابقة في نتاج ادبي واحد لا يتغير .

اريد ، مما سلف قوله ، ان اخلص الى الحديث عن النهج الجديد الذي سار عليه الاستاذ منير البعلبكي في النقد — ونعم النهج — حيث يرى (ان ينظر الى عدد الآداب ككل متماسك لا كأجزاء متفرقة)

جميل .. مثل هذا التحديد المنهجي الجديد الذي اختطه الاستاذ البعلبكي ... ولكني استوقفه ملياً واقول : هل طبق منهجه والتزم به ؟ الواقع .. لا ! .. وكان ما كان من نقد تجريدي على طريقة غير متماسكة مما كان يرجوها ، فلا هو بالمنهجي الجديد ، ولا هو بسائر مع ركب النقاد الاخرين .. فورّط نفسه في اصدار احكام غير منسجمة على الاجزاء المبعثرة بين يديه ، حتى اضطره واقع الحال من جراء هذا التناقض والاضطراب الى الاعتراف المنسرح بعدم التزامه النهج الجديد الذي احتضنه وتبنّاه في مهده !

على هذا الاساس المتقدم ، اسمح لنفسي ، ان اناقش الاستاذ البعلبكي فيما يخص قصيدتي (اعراس الثوار) المنشورة في العدد الرابع من الآداب فهو يقول (مصيبة هذا العدد في قصائده وعددها كما سلف ثمان ، ما كان ينبغي ان يثبت منها للغربلة ، ولا نقول للنخل ، غير قصيدة او قصيدتين ، واذا اردنا التسامح (؟!) قلنا غير ثلاث قصائد هي (مرثية جيكور) للاستاذ بدر شاكر السياب و (غزل في الاغلال) للاستاذ عصام حماد و (امرأة على درب) للاستاذ محيي الدين فارس ، واذا كنت اعد قصيدة السياب خير شعر العدد اطلاقاً ! فليس يمنعني ذلك من ان اقول الخ ...)

انا آسف ان اقرر ان الاستاذ البعلبكي اصدر احكامه بدرجة من الشمولية لا تستند الى الدقة والحصر والروية المفترضة في الناقد الفني ... وارجو الا يتبادر الى ذهنه انني ممن يبتغون استعطاف المديح او يستنكرون النقد الحر المجرد من الاهواء .. ولكني بالرغم عني اقرر كذلك .. ان « اعراس الثوار » تقف شامخة بكل كبريائية بين صفحات عدد الاداب الماضي ، بروحها الثوري العنيف ، وعروبتها المتحدية ، وتمردها على الاستعباد الاجنبي الوحشي وورومانتكيتها الحافلة بالحياة والبعد عن الوهم واليأس والكآبة الى جانب الاصداء المدوّية من رنين الاغلال التي تتهشم على صخرة واقعيتها الحية ! ومن حقي ان اطالب الاستاذ البعلبكي (بغربلة) اعراس الثوار و (نخلها) و (تصفيتها) كذلك كما يشاء من غير تسامح ومن حقي ايضاً ان اطالب بان يقدم للقراء ... بيتاً واحداً ... أجل ... بيتاً واحداً من من أصل (٥٢) بيتاً ، يقف وحده أسيفاً . نثرياً ، مريضاً بين سطورها ، بعد ان استعرض بثاقب فكره النير الابيات المهلهلة التي اكتشفها وساقها الى القراء .. حتى تتبين للحقيقة ، القيمة الواقعية .. للنهج الجديد !

تبقى هناك ، قضية اعتبار « مرثية جيكور » خير شعر

العدد إطلاقاً على حد تعبير الاستاذ البعلبكي ، وهي لعمري افجع حكم ادبي يصدر عن الاستاذ البعلبكي وما يستتبعه من مسؤولية مقررة ..

ان السياب اخي وصديقي الصدوق ، ولا أريد ان اسيء اليه ، أو انتقص من مكانته كشاعر من شعراء الشباب الاحرار والطليعة الواعية في العراق ، بل انني من المعجبين بشاعريته الخصبة وقد جاهرت برأيي اكثر من مرة سواء على صفحات الآداب او غيرها ، واخي السياب يعرف ذلك جيداً عني ، لا مجاملة او موازبة مني ، ولكن دفاعاً عن الحقيقة الادبية الخالدة . غير ان الحقيقة نفسها تدفعني ، مجردة من وشائج الصداقة او الاخوة ، الى القول بأن « مرثية جيكور » كانت فيما ارى من القصائد الميتة في عدد الآداب المنصرم ان لم تكن اقرب الى ادناها شاعرية ، ولست ادري كيف سمح الاستاذ البعلبكي لنفسه الى يهاجم الشعر النثري في قصائد الآخرين ويغض الطرف عن (العقار الأكيد والساعة القوراء والاركيد والرغيف الوئيد وحساب النقود و (بما) (ليس) (غير) عقم الولود وكائن ذو نقود وشيخ اسم الله ترللا ، ترللا عرس حمادي) الى آخر ما احتوته قصيدة اخي السياب المضطربة التي ضج بها التكرار اللفظي والتعميه الباهت واختفت من اجواء القلق وعدم التركيز في المشاعر الوجدانية الواضحة بالاضافة الى تطعيمها بشاردات المتنبي وشذرات المعري ممسوخة مهرأة ، كل ذلك دليل على فشل السياب في هذه القصيدة ذات القافية الواحدة ، وبرهان آخر من وجهة ثانية على نجاحه الرائع في طريقة الشعر الحر .. كعمله في (حفار القبور) .. تلك الرائعة الانسانية الفخمة وسواها .. المومس العمياء والاطفال والاسلحة وقصيدته الممتعة (انشودة المطر) .

وارجو ان يتقبل اقوالي برحابة صدر اخوي ، وللاستاذ البعلبكي خالص محبتي وتقديري .

بغداد علي الحلي

*

حتى انت يا بروتوس !

(الى الشاعر نزار قباني)

قبل الف واربعمئة عام ، قال عمر بن الخطاب : اصابت امرأة وأخطأ عمر .

وقبل بضعة ايام فقط قال السيد نزار قباني ، أصابت امرأة وأخطأ العمالقة .

لقد كنت اظن ان المرأة اعرق في الرواسب من الرجل ، فلما قرأت كلمة الاستاذ نزار ، عجبت لشاعر متحرر يستكثر على امرأة أن تفهم ما لم يفهمه العمالقة ، اولم تستطع كلمتي وقد وعاها ، ان تنفض عنه اثقال الرواسب القديمة على ظهور الرجال – حتى وهو يدافع عن المرأة ؟ –

فان كان عمر (رضه) قال هذا زمن وأد البنات فهو ليس بلوم ، وإن كنا نحن معشر النساء ننتقل الى بيوت ازواجنا مقرونين بالصناديق وعلب التواليت والسجاد التبريزي بل والحصير القشي فان موجة الوعي الصاعد لفضح ومقاومة هذا الوضع المزري ، لكفيلة بان تنتزع منا قدر الامكان ، رواسب تلك النظم النخرة ، وتجعلنا نمد أيدينا الى نصفنا الآخر لنساهم واياهم في تحطيم كل قيد يعرقل سير تقدمنا الى الامام ، أوليست قضيتنا واحدة ؟ ثم أليست المرأة نصف المجتمع ؟ ومن احق بحمل تلك الرسالة من الادباء والمفكرين رجالاً كانوا ام نساء .

إن مجرد البحث في قضية المرأة ، ومحاولة اثبات ، او عرقلة حقوقها والاعتراف بها كانسان كامل ، لهو في الحقيقة اهانة لها ومصيبة ، ونحن لا نلوم الجهال والمغرضين الذين يفصلون قضية المرأة عن الرجل بل نوجه اشد اللوم واعنف العتاب ، لانسان واعٍ مفكر وشاعر رقيق كالاستاذ نزار ، بل ونحاسبه حساباً عسيراً على قوله (يا الله أصابت امرأة واخطأ العمالقة !!!) كم في هذه الكلمة الخارجة من الاعماق من رواسب الاجيال !!

ثم من هم هؤلاء العمالقة ؟ ومن عملقهم ؟ أوليس هذا النظام نفسه الذي ثار عليه الشاعر نزار والذي نوزح تحت وطأته ، أوليس هذا هو الذي عملق العمالقة وغمر المغمورين ؟

انّي ارى ان القضية قضية ثقافة صحيحة ورأي صواب ، أو ثقافة مغلوطة ورأي خطأ ، بغض النظر عن الالقاب والاسماء مهما بلغت من الشهرة والضخامة ، وكم من الناس المغمورين لو اتيحت لهم الفرص لبلغوا القمة ، وكم وكم من عمالقة فرضوا على الناس فرضاً .

ارجو ان يقبل الشاعر هذه اللفتة بصدر رحيب ونية حسنة .

بيروت ندى كيالي